

# العرب فى أخطر المعارك الحربية فى تاريخ العالم

دكتور

محمود السيد

منشأة المفكرين - أسكندرية

٢٢ شارع عمر لطفى - الابراهيمية

تليفون : ٥٩٦٢٨٠٢ - اسكندرية

العرب فى أخطر المعارك الحربية فى تاريخ العالم

دكتور محمود السيد      منشأة المفكرين - اسكندرية



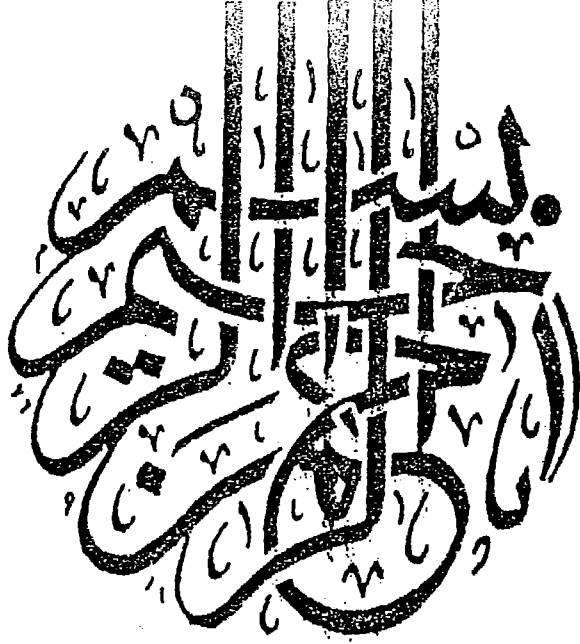
الأهداء

إلى أولئك المجاهدين من العرب والمسلمين

الذين استشهدوا في حروب التتار والمغول

دفاعاً عن أوطانهم





السيد الدكتور/ محمود محمد السيد، حاصل على الدكتوراه باشرافى، من جامعة الاسكندرية، قسم التاريخ، كلية الآداب، عام ١٩٨٦؛ حيث اعتبرت رسالته دراسة متكاملة لأول مرة، وبذلك سدت فجوة فى التاريخ الاسلامى. هذا بالاضافة الى أن السيد الدكتور محمود محمد السيد يتمتع بالتماعات فى تناوله للتاريخ الاسلامى وله فيه ملاحظات قيمة واجتهادات وفقه الله فى الاسهام فى بيان تاريخ أمجاد حضارتنا الاسلامية.

أ.د. عبدالمنعم ماجد

عبدمنعم ماجد

أستاذ التاريخ الاسلامى

بكلية الآداب - جامعة عين شمس

العباسية - القاهرة

جمهورية مصر العربية





## القبائل العربية في الشام ودورها في عصر سلاطين المماليك

المقدمة : التمهيد

قائمة بأسماء سلاطين المماليك ومن عاصرهم من الزعماء العرب.

محتوى الكتاب

نقد المصادر : الوثائق، النقوش، العملة الشامية المملوكية، المصادر الكتابية، الأنساب والمسير والوفيات، المؤلفات التاريخية، المراجع العربية والأجنبية، الدوريات.

الفصل الأول : أحوال الشام في عصر دولة سلاطين المماليك

الوصف الجغرافي، التقسيم الإداري، أهل الشام، المذاهب والعقائد.

الفصل الثاني : العصبية العربية في الشام :

العصبية عند العرب، موقف الإسلام من العصبية، أثر الإسلام في تكوين أمة عربية واحدة محورها الدين، تسنوا على مبدأ العصبية القبلية العربية، ضياع مبدأ الأمة منذ الحكم الأموي في الشام، موقف عرب الشام من العباسيين، في أيام ضعفهم، موقف عرب الشام من البويهيين والفرس في العراق، موقف عرب الشام في عصر الفاطميين الذين إعتمدوا على المغاربة، موقف عرب الشام في زمن الصليبيين، موقف عرب الشام في عصر الأيوبيين، موقف عرب الشام في عصر المماليك.

الفصل الثالث : موقف عرب الشام من الحكم المملوكي:

إعتراف الحكم المملوكي بزعماء قبائل عرب الشام، أقطاعاتهم واستحواذهم على مناطق في بلاد الشام، اشتراكهم في الجيش المملوكي، كجنود

أسلحة فى حروبهم وحراستهم للطرق وغيرها، أمثلة على دورهم الحربى فى أيام المماليك، دور عرب الشام فى نهاية الحكم المملوكى.

الفصل الرابع : العمران فى الشام فى عهد المماليك :

حياة قبائل الشام الإجتماعية فى الحضر والبادية، إشتغالهم بالزراعة، والتجارة والرعى وتربية الخيول، أزياء عرب الشام، الدور الثقافى لعرب الشام، إنتشار التعليم، إنتشار المدارس.

الخاتمة :

ثبت المصادر والمراجع والدوريات.

## التمهيد

ارتبط العربي في الشام بقييلته التي استشعر برابطة حقيقية مع أفرادها، مثل هذه الحقيقة، أثارت مشكلة سياسية هامة، إذ أن العربي في الشام جعل الولاء للقبيلة قبل الولاء للدولة، وذلك لتمسكه بالأنساب وبالعبادات والتقاليد. مما أدى إلى ظهور كثير من الصراخ القبلي وقيام الفتن والمنازعات.

ولعل الظروف الجغرافية، للشام، من الأسباب التي جعلت أهل الشام لا يكونون دائما دولة واحدة أو شعبا واحدا، إذ أنهم من هجرات متعددة، ومتوالية إلا أنهم سرعان ما يندمجون معا. ولذلك يقال لهم عادة أهل الشام ولا يقال شعب الشام، على عكس ما يقال في مصر شعب مصر وليس أهل مصر.

ولاشك أن أهل الشام القدامى الذين هم من أصول قديمة مثل عمورية أو أرامية أو كنعانية أو غيرها وهم الذين وفدوا عليها من داخل الجزيرة العربية أو من أطرافها أو من هجرات من البحر الأبيض، مما كان السبب في ظهور عصبية بمعنى التعصب العرقي، للمجموعة الواحدة بحيث أن مجيء هجرة جديدة كان يعنى تعصبا أو إثارة لعصبيته مستقرة. إذ أن أى عصبية لا تنسى أصولها. وقد استمر ذلك عبر تاريخ الشام الطويل حتى بعد ظهور الإسلام، حينما جاءت هجرات من داخل الجزيرة أو من أطرافها متمثلة في عرب عدنانية أو يمانية على الخصوص.

وهدفنا من هذا الكتاب، هو تتبع العصبية الشامية العربية ودورها الحضارى في عصر المماليك بالذات، وان كان هذا يبدو مناقضا لروح العصر بسبب أن روح الإسلام كانت قد اندمجت في النفوس وبدأت تهدد من روح العصبية، حتى تحولت كما ذكر ابن خلدون في مقدمته الى غاية من الدعة والرسوخ. ومع ذلك فبقى أهل الشام يتمثلون في قبائل.

يضاف الى ذلك أن المماليك بدورهم اهتموا بالشام اهتماما كبيرا. على أساس أن يكون دورهم في الشام مكملا لدورهم في مصر ، مما جعل نظام الحكم في الشام صورة طبق الأصل مما كان يوجد في مصر في عصرهم. وكأنه نداء للوحدة الأزلية بين قطرى مصر والشام.

كذلك اتخذت القبائل العربية في الشام من المماليك موقفا مؤيدا لهم سواء في التمسك بحكمهم أو التأييد لسياستهم، على الرغم من أن الشام، كان مجالا لغزوات الصليبيين والمغول والعثمانيين، ولكن تمسك أهل اشام بالحكم المملوكى، ربما لأن المماليك أصبحوا فرسان المسلمين وقاموا في بداية قيام دولتهم بدفاع مشرف عن الشام ضد غزوات المغول في موقعة عين جالوت مما أقنع أهل الشام بأحقية المماليك في حكم البلاد. وذلك على عكس موقف العرب في مصر الذين كانوا يأنفون في أول الأمر من أن يحكمهم الرقيق. وقد كان تجاوب عرب الشام مع المماليك سببا في أن مكن هؤلاء من الدفاع عن الشام ضد أعدائه، ولاسيما من الفرنجة ولاسيما المغول.

والله ولى التوفيق.

قائمة بأسماء سلاطين المماليك الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب  
ومن عاصرهم من الزعماء العرب في بلاد الشام

ملاحظات	زعماء القبائل	السلاطين	السنون
	زامل بن على بن حديثه	المعز أيبك	٦٥٥/٦٤٨ (١٢٥٧/١٢٥٠)
	زامل بن على	السلطان قطز	٦٥٨/٦٥٧ (١٢٦٠/١٢٥٩)
	عيسى بن مهنا	الظاهر بيبرس	٦٧٦/٦٥٨ (١٢٧٧/١٢٦٠)
		العادل سلامش	٦٧٨ (١٢٧٩)
	عيسى بن مهنا	المنصور قلاوون	٦٩٣/٦٧٨ (١٢٩٠/١٢٧٩)
	أحمد بن حجي		
	محمد بن أبي بكر بن هبه	خليل قلاوون	٦٩٣/٦٨٩ (١٢٩٣/١٢٩٠)
	فخر الدين عثمان		
مدة أولى	جماز بن محمد بن أبي بكر	محمد بن قلاوون	٦٩٤/٦٩٣ (١٢٩٤/١٢٩٣)
	مهنا بن عيسى	العادل كتبغا	٦٩٦/٦٩٤ (١٢٩٦/١٢٩٤)
مدة ثانية	فضل بن عيسى بن مهنا	محمد بن قلاوون	
	موسى بن مهنا		
	مهنا بن عيسى	المنصور لاجين	٦٩٨/٦٩٦ (١٢٩٧/١٢٩٧)
	سليمان بن مهنا	محمد بن قلاوون	٧٤١/٧٠٩ (١٣٤١/١٣١٠)
مدة ثالثة	أحمد بن نصير		
	هلال بن ساعد الزبيدي		
	سليمان بن مهنا	الناصر أحمد	٧٤٣/٧٤٢ (١٣٤٢)

## تابع القائمة

ملاحظات	زعماء القبائل	السلطين	السنون
	فياض بن مهنا	الصالح اسماعيل	(١٣٤٥/١٣٤٢)/٧٤٣
	أحمد بن مهنا		
	سيف بن فضل		
	أحمد بن مهنا	الكامل شعبان	(١٣٤٦/١٣٤٥)٧٤٧/٧٤٦
	نعير بن حيار		
مدة أولى	حيار بن مهنا	الناصر حسن	(١٣٥١/١٣٤٧)٧٥٢/٧٤٨
مدة ثانية	حيار بن مهنا	الناصر حسن	(١٣٦١/١٣٥٤)٧٦٢/٧٥٥
	زامل بن موسى بن عيسى	الأشرف شعبان	(١٣٧٧/١٣٦٣)٧٧٨/٧٦٤
	معقل بن فضل بن عيسى		
	معقل بن موسى بن عيسى	المنصور على	(١٣٨١/١٣٧٧)٧٨٣/٧٧٨
	عيسى بن مهنا		١
	عيسى بن مهنا	الصالح حاجي	(١٣٨٢/١٣٨١)٧٨٤/٧٨٣
مدة أولى	عيسى بن زيد بن جماز	الظاهر برقوق	
	فضل بن حجي		
مدة ثانية	علي بن فضل بن حجي	الظاهر برقوق	(١٣٩٩/١٣٩٠)٨٠١/٧٩٢
	نعير بن حيار	الناصر فرج	(١٤٠٥/١٣٩٩)٨٠٨/٨٠١
	سيف بن فضل	الأشرف قايتباي	(١٤٩٦/١٤٦٨)٩٠١/٨٧٣
	محمد بن ساعد	الغوري	(١٥١٦/١٥٠٠) ٩٢٢/٩٠٦
	ناصر الدين بن الحنش	طومان باي	(١٥١٧/١٥١٦) ٩٢٣/٩٢٢

## محتوى الكتاب

فى هذه الدراسة، التى تتناول القبائل العربية فى الشام ودورها فى عصر سلاطين المماليك، الذين عرفت دولتهم باسم الممالك الإسلامية، أو المملكة الإسلامية. وان كانت هذه التسمية، الممالك، لها أصول فى العصر الأيوبي، حيث انقسم الشام بين أمراء الايوبيين الى ممالك. الا أنه كان لابد من أن يفرد بحث عن اقليم الشام الذى كان جزءا هاما من دولة سلاطين المماليك. والكتاب فى أربعة فصول مع مقدمة تشمل تمهيدا، ومحتوى الكتاب ونقد للمصادر وخاتمة.

**الفصل الأول :** وهو بعنوان، أحوال الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك. الوصف الجغرافى، التقسيم الإدارى، أهل الشام، المذاهب والعقائد.

**الفصل الثانى :** وعنوانه العصبية العربية فى الشام، والدور الذى لعبته القبائل العربية فيه، منذ عصر الدولة الأموية التى اشتدت العصبية فيها، بين القبائل القيسية واليمينية وأسبابها ونتائجها. وظهور تكتل عربى منذ العباسيين الذين قامت دولتهم على أكتاف الشعوبية من الفرس والترک خفف من حدة العصبية القبلية فى الشام التى استمرت الى وقت ظهور المماليك.

**الفصل الثالث :** وعنوانه، دور القبائل العربية السياسى والحربى فى الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك، الدور الذى لعبته القبائل العربية فى الحياة السياسية فى العصر المملوكى. مثل إتجاه بعض سلاطين المماليك وأمرائهم الى زعماء القبائل العربية فى الشام، لمساعدتهم فى استرداد سلطانهم المفقود، أو لنصرتهم على

معارضيتهم، أو حمايتهم من تدمير مؤامرة. والدور الذى لعبته هذه القبائل فى السياسة الداخلية للدولة من حيث رفع المعاناة عن الأهالى من جور وعسف بعض الولاة. والعلاقة الوطيدة التى ربطت بين زعماء القبائل العربية فى الشام وبين سلاطين المماليك فى مصر.

وفى هذا الفصل أيضا دور العرب الحربى فى الدفاع عن الشام وردهم التتار والمغول على أعقابهم منهزمين ودورهم فى حروب الفتوحات التى تمت فى الشام، واسترداد كثير من المدن الشامية من الصليبيين فى فلسطين والكرك والشويك وبلاد الساحل.

**الفصل الرابع :** وعنوانه، الدور الحضارى للقبائل العربية فى الشام. وهو عن تقاليدهم وعاداتهم، واحتفالاتهم وملابسهم، ثم دور العرب الثقافى واهتمامهم بنشر العلوم والفنون والآداب، وآثارهم فى اللغة العربية وعلوم الدين. وخاتمة.



## نقد المصادر

الوثائق، النقوش، العملة الشامية المملوكية، المصادر الكتابية،

الأسباب، السير والوفيات، المؤلفات التاريخية،

المراجع العربية والأجنبية، الدوريات

تعتمد أهمية ما يصل إليه هذا الكتاب، على دراسة الحوادث المتعلقة به، وأخذها من مظانها، تلك التي كتبها مؤرخون عاشوا في العصر المملوكي. وهي في معظمها مصادر تاريخية سردية. ولكن بالإضافة إلى ذلك كان لابد من الرجوع الى مصادر تاريخية لها أهميتها الكبرى، لم تكتب للتاريخ أصلاً، حيث اختص بها ديوان الإنشاء المملوكي في مصر والشام، فكان ديوان الإنشاء الشامي له نفس النظام بديوان الإنشاء بالقاهرة، وان كان بالضرورة لابد أن يتبعه فيقوم بتصدير الوثائق الرسمية المملوكية المتعلقة بأحوال الشام والاحتفاظ بصور منها، مثلما يكون الحال لديوان الإنشاء بالقاهرة وهي التي تتناول أموراً متعددة أغلبها صادر من الدواوين المملوكية الرسمية المختلفة لكي يقوم بتصديرها أو الاحتفاظ بنسخ منها، اذ لم نسمع بأى ديوان آخر يوجد به أرشيف - الذي يمثله الخازن - غير ديوان الإنشاء وان لم يذكر أن دواوين أخرى فرعية لها مثل هذا التنظيم في الأرشفة.

ومن هذه الوثائق المملوكية التي تهم البحث، الأوامر السلطانية الخاصة بأرباب الوظائف من أمراء العربان في الشام. وهم طبقات على حسب أهمية القبيلة في الشام، من ناحية مركزها السياسي حيث أنها اذا كانت متعاونة مع السلطان المملوكي يصير لها مكانتها الخاصة في الدولة المملوكية. فكانت هذه الوثائق المملوكية تتناول تعيين زعماء الأسر القوية في قبائل الشام، حيث كان

يصدر لها تقليد أو مرسوم مثلما كان يصدر عند تعيين موظفى الدولة المملوكية الكبار الآخرين فى مصر والشام. ومن هذه الوثائق المملوكية يتبين أنه كانت توجد تفرقة فى الصياغة لكل طبقة من أمراء الشام باعتبار قوة نفوذه فى قبيلته، ومدى تعاونه مع السلطان وهذا يطابق تقسيم القلقشندى لكبار موظفى الدولة المملوكية الى طبقات متفاوتة. وذكر القلقشندى أن تعيين زعماء العرب كان فى طبقة أولى مقسمة الى مرتبتين. ويعين الأمير من هذه الطبقة بتقليد سلطانى. وطبقة ثانية من زعماء العرب مقسمة الى مرتبتين أيضا. ويعين الأمير من هذه الطبقة بمرسوم سلطانى بحيث أنه على حسب هذه الفروق فى التعيين يكون أيضا نوع الورق للتقليد أو المرسوم. فأصحاب الطبقة الأولى من زعماء العرب يخرج لهم التعيين فى قطع النصف وهو حجم ممتاز من الورق. أما الآخرون وهم الطبقة الثانية فيكون القطع فى حجم الثلث وهو أقل من الأول. ومن هذا التمايز أيضا إضافة الياء ألقابهم، فبعضهم بياء وبعضهم بغير ياء. فكل هذه المعلومات المستمدة من وثيقة التعيين تبين أهمية الوثيقة بالنسبة الى موضوع البحث.

فمن هذه الوثائق مثلا، وثيقة فضل بن عيسى (١) التى وردت فى كتاب صبح الأعشى القلقشندى بتوليته عام ١٣١٢/٧١٢ أميراً على آل فضل فى حراسة الحدود الشمالية للشام من حمص (٢) الى أطراف العراق، كما تكشف عن

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ١١٨، ط القاهرة ١٩١٤.

(٢) بالكسر ثم السكون، والصاد المهملة: بلد مشهور قديم كبير مسور، وفى طرفه القبلى قلعة حصينة على تل عال كبير، وهى بين دمشق وحلب فى نصف الطريق، فى أهلها كثير ممن رأى مذهب النصيرية، وأصلهم الامامية (ياقوت الحموى، معجم البلدان، ص ٣٠٢ ص ٣٠٤).

دور قبائل عرب آل فضل - أسرة من العربان فى قبيلة آل ربيعة(١) - فى حراسة الحدود الشمالية للشام، ومطالعتهم أخبار التتار الذين كانوا يهاجمون فى الشام وتبين أيضا التفاف أفراد القبيلة جميعهم حول زعيمهم الذى امتاز بالشجاعة وحسن الطاعة والاخلاص للسلطان المملوكى. فكان هذا التقليد الذى منحه السلطان لهذا الأمير، الذى هو مثل لأمرأ أسر قبائل الشام، تأكيدا بالإشراف على قبيلته. وهذه الوثيقة تفيد أيضا أن قبائل الشام كانت تظهر الولاء للحكام المماليك.

وثيقة أخرى، عبارة عن مرسوم شريف للأمير جماز بن محمد بن أبى أبى بكر(٢) بتوليته أميرا على آل على - وهى أسرة من قبائل الشام - فى مرج دمشق وغوطتها، وأنه وقبيلته حراس لأسوار دمشق وهو مكان آخر عند حدود الشام. وتفيد أن لآل على، وهم من آل ربيعة(٣) - القبيلة المعروفة بالشام أعلى مكانة بين قبائل العرب فى الشام(٤)، بحيث تقدموا آل فضل.

أما بالنسبة للوثائق الأخرى التى تتعلق بأحوال الشام عامة فى ظل دولة سلاطين المماليك فهى كثيرة، وهى تشتمل على رسائل دبلوماسية متبادلة، أو معاهدات أو مهادنات، أو غير ذلك، كلها تتعلق بأحوال الشام. ولاشك أن الشام بحكم أنه بلاد صلة وامتداد لمصر، بحيث اعتبر مملكة اسلامية بين الممالك الاسلامية فى دولة سلاطين المماليك اذ كانت دولتهم تسمى باسم الممالك

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ١٢، ص ١٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢١٠.

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٢٠٦.

الاسلامية. هذه الوثائق توجد فى الكتب السردية المملوكية على أساس انها نسخ من الوثائق الاصلية. نذكر منها واحدة على سبيل المثال، تلك الهدنة التى أوردتها القلقشندى فى عام ١٢٦٦/٦٦٥ بين الظاهر بيبرس وبين أسرة الاسبتار من فرنج الشام. هذه الوثيقة حيث أنها طويلة بلغت ثمان صفحات تكشف عن قيام نوع من التعاون بين السكان المسلمين والمسيحيين.(١)

### النقوش :

وتعتبر النقوش التى تحفل بها العمارة الاسلامية فى الشام فى عصر سلاطين المماليك، مصادر توثيقية فى بحثنا، سجلت معظمها على الحجر، الاصلاحات التى قام بها سلاطين المماليك فى مساجد الشام ومصر وفى غيرها من المباني الأثرية الهامة فمنها ما أجراه بعض السلاطين مثل بيبرس، فى الجامع الأموى بدمشق فى ١٢٦٤/٦٦٣، فقد سجلتها نقوش مكتوبة فى مدخل باب البريد، الذى هو أحد أبواب الجامع فى أعلا جداره الجنوبي(٢).

وفى عام ١٢٦٥/٦٦٤ قاد السلطان الظاهر بيبرس حملة عسكرية على مدينة سيس بأرمينية الصغرى مارا بمدينة حمص وزار بها قبر خالد بن الوليد،

(١) القلقشندى، صبح الاعشى، ج ١٤، ص ٣٩.

(٢) مجلة الحوليات السورية، المجلد العاشر، دمشق ١٩٦٠، ص ٤٥.

فسيفساء الجامع الأموى، عبدالقادر الريحاوى - دمشق بكسر أوله وفتح ثانيه (ياقوت الحموى، معجم البلدان)، المجلد الثانى، ص ٤٦٣.

وأمر باصلاح وتجديد له. وسجلت هاتين الحادثتين، كتابتان أثريتان فى جانب مقام خالد بن الوليد فى مسجده الحالى بحمص(١).

كما قام نفس السلطان بتجديدات ببعض أقسام الجامع الكبير فى حمص فى ١٢٧١،/١٢٧٢ وسجلت فى كتابه أثرية منقوشة على لوح من الحجر، وجدت بحائط جامع حمص الكبير(٢).

وفى عام ٧٠٠/١٣٠٠ أجرى السلطان بيبرس اصلاحات بالجامع الأموى بدمشق، وسجل هذا الاصلاح، فى نقش مكتوب على الحجر ذكر فيه اسم الأمير ركن الدين بيبرس مع آية قرآنية(٣).

كما أنشأ السلطان محمد بن قلاوون بعض الأروقه بالمسجد الكبير فى طرابلس فى عام ٧١٥/١٣١٥ سجلتها النقوش الأثرية على لوح من الرخام(٤).

وسجلت النقوش فى مدرسة العسرونية فى حماة(٥). جهود اهل الشام فى انشاء المدارس، ورصد الأوقاف، للاتفاق عليها.

(١) Et. Comb Sauvaqet. Wiet, Repertoire chronologique D'Epigraphie Arabe. (١)

t 12 p. 104, 105 Le Caire, 1954. L'institut francais.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٦

(٣) Van Berchem, Catalogue de la phototheque, Gienève, 1975. p. 80.

(٤) Et. Combe, Repertoire chronologique D'Epigraphie Arabe T. 14. p. 101.

(٥) حماة : بالفتح . مدينة كبيرة. (ياقوت الحموى، معجم البلدان، المجلد الثانى، ص ٣٠٠، ط. بيروت،

وفى عام ١٣١٥/٧١٥ أنشأ محمد بن محمد بن أبى بكر مدرسة العسرونية فى مدينة حماة، ووقف عليها أوقافا كثيرة، وخصص مدرستين لتعليم الطلاب القرآن وحفظه فى مدة محدودة، وجعل للطالب المجد كسوة فى نهاية المدة تصرف له كمكافأة(١).

وسجلت النقوش فى مدينة حصن الأكراد، أنشأ مدرسة فى عام ٣١٩/٧١٩ بالمسجد الكبير بها، وخصصت لتعليم الأيتام. وخصص لها وقفا للإتفاق عليها، ولم يثبت فى النقش إسم منشى المدرسة(٢).

كما سجلت النقوش الإصلاحات التى تمت فى قباب المسجد الكبير بمدينة غزة، بأمر سنجر الجاولى نائب السلطنة، فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فى ١٣١٨/٧١٨(٣).

وسجلت النقوش بمدينة حصن الأكراد، إهتمام أمراء المماليك بإنشاء المستشفيات لعلاج المرضى، فى عام ١٣١٩/٧١٩ أنشأ بكتمر بن عبدالله نائب السلطنة بيمارستانا وخصصه لعلاج المرضى من المسلمين المقيمين بالمدينة ومن غيرهم من الواقدين(٤).

وفى ١٣٣٣/٧٣٤ جدد السلطان محمد بن قلاوون بناء باب ثوما وهو أحد الأبواب بالجهة الشمالية لمدينة دمشق، فقد كانت دمشق محاطة بسور له ثمانية أبواب، منها هذا الباب(٥).

(١) Et. Combe. J. Sauvaget. wict, Repertoire chronologique D'Epigraphie Arabe. (١)  
t. 14. p. 136. Le Caire. 1954. L'institut-Français.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٣) نفسه، ص ١٢٧.

(٤) نفسه، ص ١٣٩.

(٥) Van Berchem, Catalogue de la phototheque. Genev. 1975. p. 80.

وسجلت النقوش الأثرية أيضا، للأمرء المماليك فى الشام دورا هاما فى التشييد والبناء، فى عام ١٤٢١/٨٢٤، أنشأ الأمير جقمق نائب الشام، مدرسة فى حى الكلاسة فى المنطقة المجاورة للجامع الأموى بدمشق، وأنشأ أيضا خانقاه (١) مجاورة للمدرسة وسجل بخط نسخ مملوكى منقوش على الحجر بأعلا جدار المدرسة اسم الأمير جقمق نائب الشام منشى المدرسة والخانقاه فى عام ١٤٢١/٨٢٤ مع شريط من الآيات القرآنية، وحولها نقوش من العروق والأوراق النباتية البارزة (٢).

لقد أظهرت النقوش الأثرية فى الشام مدى العناية التى أولاها سلاطين المماليك للآثار الاسلامية الشامية فى العصر المملوكى.

ومن المصادر الموثوقة والمفيدة فى موضوعنا، العملة الشامية المملوكية، وهى التى وصلتنا فى قوائم من عمل المستشرقين وغيرهم، حيث كان فى العصر المملوكى فى دمشق دار لسك العملة وكذا فى طرابلس وحلب وحماء. بعضها كان يتعامل فى أماكن أخرى غير الشام، وقابلة للتداول فيها. أما بعضها فكان يعتمد محليا لايتداول الا فى الشام فمن النوع الأول وهو عملة جيدة أما النوع الثانى فهو عملة أغلبها نحاس مثلما كان يحدث فى مصر. حيث يذكر المقرئى وجود عملة محلية فى الاسكندرية فقال (وأدركت الاسكندرية وأهلها لايتعاملون الا بها) (٣). وقد وصلتنا صور هذه العملة فى القوائم، فمن

(١) الخانقاه: هى نوع من المعاهد العلمية يخصص للصوفية والعلماء المغتربين. (مجلة

الحواليات، المجلد العاشر، ص ٦٩) دمشق ، ١٩٦٠.

(٢) مجلة الحواليات، المجلد العاشر، ص ٧٢. دمشق ، ١٩٦٠.

(٣) المقرئى، اغاثة الامة، ص ٦٥، نشر وتحقيق، جمال الدين الشيبان.

العملات الخاصة بالعصر المملوكى ( البحرى ) تلك التى ضربت فى دمشق باسم السلطان الظاهر بيبرس فى عام ١٢٧١/٦٧٠ من الفضة، وتوجد منها أربع قطع فى المتحف البريطانى بأرقام من ١٥٧ الى ١٦٠(١).

وعملة باسم السلطان الصالح اسماعيل، ضربت فى حماة من الفضة. ولم يثبت تاريخ الضرب، والغالب أنها ضربت فى عام ١٣٤٤/٧٤٥ وتوجد قطعة منها محفوظة فى المتحف البريطانى برقم ١٨٠(٢).

وعملة من النحاس ضربت فى طرابلس الشام باسم السلطان الأشرف شعبان فى عام ١٣٧٤/٧٧٦. وتوجد قطعة مقيدة بالمتحف البريطانى برقم ١٩١(٣).

وعملة باسم السلطان الأشرف شعبان أيضا ضربت فى حلب غير محدد تاريخ الضرب، وتوجد قطعة نحاسية بالمتحف البريطانى برقم ١٩٤(٤). ومن العملات التى ضربت فى عصر المماليك (البرجية)، عملة باسم السلطان برقوق، ضربت بدمشق فى عام ١٣٩٣/٧٩٦ من النحاس وتوجد قطعة منها فى المتحف البريطانى برقم ٢٠٢.

---

Lane poole catalogue of the Mohammedan coins. Oxford. (١)  
1888, p.9.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩

(٣) نفسه، ص ١٠

(٤) نفسه، ص ١٠



وعملة ضربت فى دمشق باسم السلطان الاشرف اينال فى عام ١٤٥٥/٨٦٠ وتوجد قطعة منها من النحاس بالمتحف البريطانى برقم ٢١٣(١).

ومن النوع الثانى وهى العملة المحلية لبلاد الشام، عملة ضربت بطلب وهى من النحاس وغير ثابت تاريخ الضرب أو اسم السلطان وتوجد قطعة منها بالمتحف البريطانى برقم ٢١٨.

ووجدت عملة من النحاس توجد منها قطعتين بالمتحف البريطانى الأولى تحت رقم ٢١٩ والثانية برقم ٢٢٠ من ضرب دمشق وغير ثابت بها اسم السلطان أو تاريخ الضرب.

وتوجد عملة شامية بالمكتبة الخديوية بالقاهرة، منها العملة التى ضربت بدمشق باسم السلطان محمد بن قلاوون فى عام ١٣٣٠/٧٣١ وتوجد قطعة منها مقيدة بالمكتبة الخديوية برقم ١٥١٥(٢).

وتوجد عملة ذهبية ضربت بطلب باسم الأشرف شعبان فى عام ١٣٧٥/٧٧٧ ومسجلة بالمكتبة الخديوية بالقاهرة ١٥٣٦(٣).

---

Lane poole catalogue of the Mohammedan coins. Oxford. (١)  
1888, p.9.

Stanley Lane poole, Catalogue of the collection of Arabic coins, (٢)  
Oxford., 1897, p. 254.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

والدينار الأشرفي من العملات المملوكية التي عرفت في الشام ومصر  
وسك في عام ١٤٢٥/٨٢٩ في عهد الأشرف برسباي(١).

ويفيد هنا أيضا ذكر العملة الصليبية التي سكبت في عكا حوالي عام  
١٢٥٠/٦٤٨، وكانت مع ذلك تحمل نقوش عربية، وهي تحمل العقيدة  
الصليبية(٢) ضربها الصليبيون حينما كانوا في الشام، وكانت عكا من أكثر المدن  
ازدهارا وكانت تعتبر في قيمة القدس(٣).

وتفيد هنا أيضا الإشارة الى العملة الاجنبية الذهبية التي ضربت في  
البندقية وفي فلورنسا وعرفت في مصر والشام المملوكية باسم "بندقى" أو  
"الافرنتى"(٤) ولم ترد هذه العملة الصليبية في قوائم المستشرقين، ونقل صورة  
لهذه العملة، فيليب حتى في كتابه "تاريخ سوريا"(٥).

بعد ذلك تأتي في الأهمية، المصادر الكتابية، ولاسيما ما يتعلق منها  
بالشام، وفي مقدمتها تأتي كتب الأنساب، وذلك بسبب أنها تتناول أحوال سكان  
الشام، الذين أغلبهم كان يعيش في قبائل، وهذه الكتب تفيدنا في معرفة القبائل  
التي كانت بالشام منها كتاب "تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحريين من بني  
الغرب" لصالح بن يحيى ت ٨٣٩-١٤٣٦/٨٤٠ ذكر فيه بني بحتر من قبائل  
الشام، ودورهم البطولي في الشام ومشاركتهم في معارك عين جالوت في

(١) Sauvaget, memento chronologique d'histoire musulmane, Paris, 1950

Philip K. Hitti History of Syria, London, 1957, p. 607

(٢) عبدالرحمن فهمى، النقود العربية ماضيها وحاضرها، القاهرة ١٩٦٤، ص ٨١.

(٣) فيليب حتى، تاريخ سوريا، ج٢، ص ٢٥٩، ابن بطوطة، ج١، ص ١٢٦.

(٤) عبدالرحمن فهمى، النقود العربية، ص ٩٥.

(٥) Philip K. Hitti History of Syria, London 1957, p. 607

فلسطين(١) ضد التتار والمغول ودفاعهم ضد الصليبيين، في بيروت وغيرها من مدن الشام الساحلية(٢) - وأصل بنى بحتر من العرب من آل تنوخ(٣).  
 ثم كتاب "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" للقلقشندي ت ١٤١٨/٨٢١(٤) وهو اذا كان يتكلم عن العرب بصفة عامة الا انه أتى بمعلومات قيمة عن قبائل الشام. فذكر أصولهم وأماكنهم وأخبارهم وعلاقاتهم بسلاطين المماليك، ويتميز هذا الكتاب بأنه مرتب على حروف المعجم.  
 ثم كتاب "قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان"(٥)، وهذا الكتاب للقلقشندي أيضا، ورد به بعض اضافات لا توجد في غيره، مثل ذكر أنساب آل ربيعة بالاشارة أنهم من عرب الجنوب.

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ الأمراء البحتريين من بنى الغرب، ص ٩٢، نشر لويس شيخو، بيروت ١٨٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٥

(٣) محمد كرد على، خطط الشام، ج١، ص ٣٤، محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين.

(٤) القلقشندي، "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب"، ط. القاهرة، تحقيق ابراهيم الايبارى.

(٥) القلقشندي، "قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان"، ميكروفيلم، مخطوط ٣٨١، معهد احياء المخطوطات، جامعة الدول العربية، القاهرة.

ثم "البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب"<sup>(١)</sup> للمقريزى ت ١٤٤١/٨٤٥ ويتميز المقريزى فى كتابه البيان بذكر الصلوة التى تربط بين القبائل العربية فى الشام ومصر، وذلك باعتبار مصر للمملوكية كانت تشمل مصر والشام وذكر دورها السياسى، وعلاقتهم بالحكام المماليك.

ثم كتاب "سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب"<sup>(٢)</sup> للسويدى ت ١٨٢٣/١٢٣٩ ذكر فيه طبقات قبائل العرب وأنسابها، وتتبع هجرتها من الحجاز الى الشام، وأماكنها ومناطق استقرارها، وقد انفرد السويدى فى كتابه سبائك الذهب بذكر أسماء القبائل المجهولة بالشام، مثل بنى حارثة والعايد وآل سلطان وهى القبائل التى ذكرها النسابون ولم يلحقوها بقبيلة معينة.

ثم كتاب "الروض البسام لأشهر البطون القرشية فى الشام"<sup>(٣)</sup> لأبى الهدى الصيادى، خص فيه بطون قريش وفروعها التى وفدت الى الشام بالذكر، مثل بنى مخزوم، ويقال أنهم بنو خالد، وهم من أحلاف آل فضل.

ومن الكتب التى تناولت أنساب العرب بعامة، وهى تفيد الى حد ما فى معرفة سكان الشام فى عصر المماليك منهم : كتاب "جمهرة نسب قريش وأخبارها"<sup>(٤)</sup> للزبير بن بكار ت ٨٦٩/٢٥٦.

(١) المقريزى، "البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب"، القاهرة، تحقيق عبدالمجيد عابدين.

(٢) محمد أمين البغدادى، "سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب"، بغداد، ١٢٩٦.

(٣) ابو الهدى الصيادى، الروض البسام لأشهر البطون القرشية فى الشام، اسكندرية ١٨٩٢.

(٤) الزبير بن بكار، جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمد محمود شاكر، القاهرة ١٣٨١.

ثم جمهرة أنساب العرب لابن حزم ت ٤٥٦/١٠٦٣ (١).

ثم "أنساب الأشراف" للبلاذرى (٢) ت ٨٩٢/٢٧٩.

كذلك يؤخذ في الاعتبار ان أهل الشام لم يكونوا جميعا قبائل، وانما أيضا كثير منهم كانوا من الشخصيات اللامعة في المجتمع، انتسبوا الى عرب الشام. فظهر فيهم مايعرف بكتب التراجم، مثلما كان يوجد في مصر في تلك الفترة. ومن الملاحظ أن علماء الشام هم الذين بدأوا هذه السلسلة من التراجم، ولذلك ظهرت أسماء لامعة وتراث جيد.

والتراجم والسير، سجل لحياة فرد من مولده إلى مماته وكان له دور بارز في المجتمع، في العصر الذي عاش فيه وتعتمد كتب السير والتراجم والوفيات، على الوثائق والمدونات والأسانيد القاطعة، مثلها في ذلك مثل تدوين التاريخ (٣).

ومن أبرز الكتب كتب السير أو الوفيات، مثل "التاريخ الكبير" لابن عساکر ت ١١٧٦/٥٧٢، الذي أوجز فيه سير جميع الوجهاء بالشام. وكتاب "وفيات الأعيان وأنباء الزمان" لابن خلكان ولد في أريد بفلسطين، وهو أبرز مؤلفي السير في الإسلام، ولي منصب قاضي القضاة في سوريا أكثر من عشرين عاما. ويعد كتاب "وفيات الأعيان" أول معجم

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٢.

(٢) البلاذرى، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الدين، القاهرة ١٩٠٠، معهد المخطوطات العربية.

(٣) حسين فوزى النجار، التاريخ والسير، القاهرة ١٩٦٤، ص ٦١.

عربي<sup>(١)</sup>، وهو مجموعة كبيرة من السير لأعلام المواطنين من المشاهير والأعيان في مصر والشام ومن غيرهم.

وكتاب "قوات الوفيات" لمحمد بن شاکر الکتبی ت ١٣٦٣/٧٦٤، وهو أيضا من مواليد الشام، ألفه بن شاکر الکتبی تکملة لکتاب وفيات الأعيان لابن خلکان، وضمنه ذکر الأئمة الخلفاء والسادة الفضلاء من شخصيات الشام المؤثرة في تاريخه، ممن لم يذكره ابن خلکان في معجمه<sup>(٢)</sup>.

ثم کتاب "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لابن حجر العسقلانی ت ١٤٤٩/٨٥٢. وهو وإن كان من مواليد القاهرة، شامی الأصل، يرجع لقبه "العسقلانی" نسبة الى مدينة عسقلان بفلسطين، وهو أول من تناول الوفيات على حسب القرون، وليس على حسب السنوات، حيث خصص لها قرنا بعينه.

ثم کتاب "أنباء العمر في أبناء العمر" وهذا الكتاب ترجمة لحياة ابن حجر العسقلانی الذي أشرنا إليه أنفا حيث بدأ كتابه على شكل مذكرات حولية بدءا من سنة ميلاده، وتعد هذه المذكرات من أهم المصادر الأصلية لتاريخ الدولة المملوكية في حياة ابن حجر<sup>(٣)</sup>.

---

(١) فليبي حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، بيروت ١٩٥٨،

جزءان، ج ١، ص ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) محمد مصطفى زيادة، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، القاهرة

١٩٥٤، ص ١٩.

وكتاب " تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين " لفيليب حتى، بيروت ١٩٥٩ ذكر فيه القبائل العربية والطوائف المختلفة التي عاشت بالشام فى العصر المملوكى، وعلاقتها بالدولة المملوكية والنواحي الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الشام.

ثم كتاب " العصر الممالكى فى مصر والشام " لسعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة ١٩٥٦ تناول فيه قيام دولة المماليك فى مصر والشام ودورها فى الدفاع عن الشام ضد التتار والمغول والصليبيين، وذكر القبائل العربية ودورها الطليعى فى الحروب ضد التتار والصليبيين، وذكر دورها السياسى والحضارى. ثم كتاب " مقدمات العدوان الصليبي " لعمر كمال توفيق، الاسكندرية ١٩٦٦ ذكر فيه دور القبائل العربية الدفاعى فى الشام فى العصور الاسلامية السابقة على العصر الممالكى، ضد القوى المتعددة المناوئة وجهادهم ضد البيزنطيين، ومناطق وجودهم فى أنحاء الشام.

ثم كتاب " العدوان الصليبي على بلاد الشام " لجوزيف نسيم، اسكندرية ١٩٧١ ذكر فيه الاسماعيلية بالشام، وعلاقتهم بصليبي الشام وأماكنهم وذكر قلاعهم فى طرابلس وغيرها.

وكتاب " تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام " لمختار العبادى وعبدالعزيز سالم، بيروت ١٩٧٢، تناول هذا الكتاب تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام، فى العصر الاسلامى حتى العصر المملوكى والحملات المملوكية البحرية ضد الصليبيين ثم استرداد الثغور الشامية.

أما المراجع التى لها علاقة بالشام فأهمها :

" المدخل الشرقى لمصر " لعباس عمار، القاهرة ١٩٤٦ تناول فيه تحركات القبائل العربية فى هجرتها من الشام الى مصر خلال العصور السابقة على العصر المملوكى ثم من مصر الى الشام فى العصر المملوكى.

ثم كتاب " مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامى " لعبدالمعمر ماجد، القاهرة ١٩٥٣. والكتاب يبحث فى أحدث الطرق لمنهج البحث ومصادر التاريخ الاسلامى الأصلية والفرعية.

وكتاب " نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر " لعبدالمعمر ماجد ذكر فيه التقسيمات الادارية والجغرافية ونظام الولايات والمكاتب وأنواعها، وفيه جداول بأسماء سلاطين المماليك البحرية ثم البرجية وتواريخ حكمهم.

وكتاب " الأطلس التاريخى للعالم الاسلامى فى العصور الوسطى " لعبدالمعمر ماجد ويحتوى على خرائط توضح المناطق التى سكنتها الطوائف المختلفة فى الشام.

ثم كتاب " الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى " لأدم متز، ترجمة عبدالهادى أبوريدة، بيروت ١٩٦٧. ذكر فيه أخبار الطوائف الاسلامية من الشيعة وغيرهم وعلاقتهم بأهل السنة، وذكر فيه العادات والتقاليد والأعياد.

ثم كتاب " معجم قبائل العرب القديمة والحديثة " لعمر رضا كحالة، ط. ثانية بيروت ١٩٦٨. ويضم هذا المعجم عددا كبيرا من العشائر والبطون مع ذكر أصولها وفروعها وأماكنها مما يعين الباحث فى موضوع البحث.



المراجع الأجنبية :

ومن المراجع الأجنبية الهامة كتاب :

Studes sur la tradition Islamique extraires de tome II des Muhammedanische studien. paris, 1952.

لمؤلفه Goldziher

والكتاب دراسة عن التقاليد الإسلامية التي مصدرها الحديث والسنة، وكيف أن بدء ظهور السنة كان في المدينة، ثم أخذت تنتشر في بلاد الشام، بجهود بعض الصحابة والتابعين. مثل مكحول الشامي الذي كان ينتقل بين بلاد الحجاز والعراق ومصر ثم استقر بالشام. وكان له مذهب بها، في خلال القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) وكتاب Catalogue of the Muhammedan coins. Oxford. 1888. كتبه المستشرق الفرنسي لين بول Lane poole. وهو عن العملة بأنواعها المختلفة في العصر المملوكي التي ضربت في بلاد الشام، في مختلف عهود سلاطين المماليك. وردت في قوائم توضح النماذج التي مازالت يوجد بعضها بالمتحف البريطاني، مع ذكر أرقامها وجهته وتاريخ ضربها وكتاب SayfAldula. Alger 1934 لمؤلفه كانار Marius Canard وهو عن سيف الدولة الحمداني، مؤسس الدولة الحمدانية في شمال الشام، والدور الذي قام به سيف الدولة في الدفاع عن الشام ضد الصليبيين.

كما ورد بالكتاب ذكر أحوال الشام، الوصف الجغرافي والتقسيم

الإداري.

وكتاب Memento chronologique d'histoire Musulemane Paris 1950.

لمؤلفه J. Sauvaget وهو دليل تاريخى يربط به المؤلف بين أهم الحوادث بتواريخها فى الشرق وما عاصرها من أحداث فى الغرب.

وكتاب Repertoire chronologique d'Epigraphie Arabe.

t 19, 14 Le Caire 1954.

لمؤلفه Et. Combe مع مجموعة من المستشرقين. وهو فهرس تاريخى للنقوش العربية التى سجلها سلاطين المماليك، على الحجر فى المباني الاسلامية بالمساجد والمدارس فى انحاء الشام. وترجع أهمية هذا الكتاب الى أنه يوضح جهود سلاطين المماليك فى بناء واصلاح المساجد الكبرى فى بلاد الشام، وتطوير النقش فى عصر سلاطين المماليك.

وكتاب : Catalogue de phototheque. Geneve, 1975.

لمؤلفه Van Berchem وهو دليل للمكتبة المصورة الموجودة فى المتاحف المحفوظة فى المكتبة العمومية فى جنيف عن الآثار الاسلامية فى بلاد الشام، وغيرها من البلاد الاسلامية، وترجع أهميته الى أنه يوضح بالصور الاماكن الاثرية الهامة فى الشام مما يسهل للدارس معرفة المواقع الاثرية عن قرب والتى تتصل بهذا البحث.

وكتاب History of Syria, London, 1957.

لمؤلفه : فيليب حتى Philip. K. Hitti ويمتاز هذا الكتاب بذكر العملات الصليبية التى سكها الصليبيون حينما كانوا فى بلاد الشام.

و Encyclopedia de L'Islam A-D, Paris, 1913.

لمؤلفه t. W. Arnold وآخرين عن الاتساب بين العرب والعلاقة بين العرب خاصة من المهاجرين والأنصار وعلاقة ذلك بالخلافة الاسلامية .

الدوريات :

- مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد العاشر، دمشق ١٩٦٠.
- بحث موجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها، سليم عادل، ص ٢٩.
- فسيفساء الجامع الأموي بدمشق، عبدالقادر الريحاوي، ص ٦٩.
- مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، مجلد ١٦، ١٩٦٢.
- طرابلس الشام، تاريخها وآثارها في العصور الوسطى، عبدالعزيز سالم.
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، رقم ٤٨، ابريل ١٩٧٣.
- بيان بأسماء المدارس العلمية الموجودة بدمشق، صلاح الدين المنجد.

## الفصل الأول

### أحوال الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك

- الوصف الجغرافى
- التقسيم الإدارى
- أهل الشام
- المذاهب والعقائد

لعل من الأوفق قبل المضى فى عرض أحوال الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك، أن نعرض لوصف بلاد الشام، تلك الأرض التى شهدت تحركات القبائل العربية، والعناصر السكانية الشامية الأخرى، منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى وبداية العصر العثمانى.

والشام من الناحية الجغرافية، يحد من الغرب بالبحر المتوسط، ومن الشرق بالبادية من أيلة الى الفرات، ويحدها شمالا بلاد آسيا الصغرى، وجنوبا حد مصر (١).

ولاشك أن الظاهرة التضاريسية فى بلاد الشام قد لعبت دورا هاما تسببت فى تقسيمه دائما الى دول أو ممالك متعددة، لوجود جبال حاجزة متعددة فى جميع أركانها نذكر منها، جبل اللكام، اذ يقطع الشام طولا ممتدا بأطرافه الى مصر والبحر الأحمر جنوبا وبلاد آسية الصغرى شمالا، ويعد من أهم ظاهرات التضاريس فى شمال الشام الغربى، ويقع محاذيا للسهل الشامى الساحلى. وفيه بالذات تقع ثغور الشام التى تسمى أيضا الدروب جمع درب، وعندما يجاوز اللاذقية يسمى جبل بهراء وتتوخ الى حمص. ثم يسمى بعد ذلك جبل لبنان، الذى يسمى جزء منه جبل الثلج لأنه يغطى بالثلج، اذ أن جبل اللكام له أسماء متعددة (٢). ويتجاوز دمشق فاذا صار شماليها سمي جبل سنير، كما يسمى جانيه المطل على دمشق جبل قاسيون، ويتجاوز دمشق ويمر غربى بعلبك ويسمى

(١) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ٥٥ ليدن، ١٩٢٧، Canard, Sayf Al Dula, p. 37.

أتى بوصف جغرافى ممتاز للشام.

(٢) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ٥٥، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٧٩.

الجبل المقابل لبلعك جبل لبنان(١). ثم يمتد على الشام حتى ينتهى الى بحر القلزم (الأحمر)(٢).

كذلك توجد فى الشام أيضا هضاب، حاجزة منها الهضاب العالية فى جنوب الشام فى إقليم طبرية وهضبة اليهودية - وبها القدس - وهضبة الأردن ويفصل غربها عن شرقها، أخدود الغور، ويوجد فى هضبة الأردن مسالك وأغوار تتجه الى مصر، والغور طريق ممتد محصور بين مرتفعات(٣). كذلك توجد أنهار تفصل بين أجزاء مناطق الشام - يتفرع معظمها الى نهيرات - أشهرها نهر الفرات الذى يخترق الجزء الشمالى الشرقى من الشام، وهو أعظم أنهار الشام، وينحدر من هضبة الأناضول فى طريقه الى العراق، وهو يقطع الأراضى الشامية فى هذه الجهة من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى(٤).

ونذكر نهر حماه ويسمى نهر العاصى أو الأرنت، وهو اسمه القديم(٥). وهذا النهر بعكس غالب الأنهار فى الشام يجرى من الجنوب من وسط الشام شمال بلعك ويمتد شمالا غرب حمص، ثم حماه الى قرب أنطاكية.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٧٩. Canard, Sayf Al Dula P. 38.

(٢) الصطخرى، مسالك الممالك، ص ٥٥، لين ١٩٢٧.

(٣) تقع هضبة الأردن الغربية فى فلسطين، وأخدود الغور الذى يجرى فيه نهر الأردن،

القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٣.

(٤) وعلى هذا النهر تقع كل من دلرقة ودير الزور وهما من بلدان الشام (عبدالمنعم

الشرقاوى، الاطلس العربى، ص ٤٠).

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٧٥.

ونذكر نهر الأردن، ويسمى الشريعة وفرعه اليرموك أيضا وأصله من أنهار تصب من جبل الثلج في شمال لبنان ويمتد جنوبا الى فلسطين. ونذكر نهر العوجاء ويسمى نهر أبي فطرس، ويجرى من جبل الخليل في فلسطين.

كذلك في الشام توجد الصحارى، التى تسببت فى تقسيم الشام قسمين رئيسيين، تضم مساحات واسعة من أراضي الشام اشتهرت باسم بادية الشام أو البلقاء (١) وهذه المنطقة تضم مجموعة من المراكز كنقط عبور للقوافل والرحلات الصحراوية بين الشام والجزيرة العربية والعراق.

كذلك توجد فى الشام السهول والمنخفضات التى كانت فاصلا مابين مناطق الشام المتعددة وحتى المنطقة الساحلية، فهو ينقسم قسمين، أوسط وجنوبى، وفى الجزء الأوسط من الساحل الشامى سهل ساحلى ضيق حيث توجد الثغور الساحلية للشام، ويتلوه شرقا سهل البقاع، ويعترض هذا السهل الساحلى امتدادات من الجبال تفصل بين أجزائه (٢) والخلاصة أن تضاريس الشام، كانت سببا فى توزيعه بين أقسام مختلفة.

أما اداريا فان الشام، كان يختلف فى تقسيمه الادارى من وقت لآخر، منذ الفتح العربى، ولاشك أن الظروف الجغرافية والتضاريسية السابقة الذكر لبلاد الشام كانت من الأسباب التى جعلت تلك المناطق تشهد لونا من التغيير والتطوير فى التقسيم الادارى.

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٧٥.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٣، حسن أبو العينين، لبنان دراسة فى

الجغرافية الطبيعية، بيروت ١٩٨٠، ص ١٥.

ويؤيد ذلك أن الأقسام الإدارية كانت تجعل من كل قسم منها فى الشام، شاما قائما بذاته بحيث قسمها الجغرافيون الى خمسة شامات. على أساس ان التقسيم الجغرافى يجعل كل تقسيم ادارى كيانا قائما بذاته بدليل انهم يجعلون من بلاد فلسطين والقدس شاما ويسمونه الشام الأعلى أو الشام الأولى(١). ولعل القلقشندى الذى هو صاحب هذه التسمية يقصد الأراضى المرتفعة - ثم الشام الثانية وهى الأردن ومدينتها العظمى طبرية. ثم الشام الثالثة وهى الغوطة ومدينتها العظمى دمشق. ثم الشام الرابعة وهى حمص ومدينتها حمص. وقد وصف القلقشندى حمص بقوله (ويجعلون سوريا - وهى التسمية المتداولة التى تدل على معظم الشام الآن - وهى حمص وبلادها الى رحبة مالك بن طوق، وهو اسم معروف وقت ذلك ولعله أمير عربى(٢). ثم الشام الخامسة وهى قنسرين ومدينتها العظمى حلب(٣).

ولاشك أن تسمية الشام بسوريا، Syria، كانت قبل العصر المملوكى. وربما كان ذلك فى العصر البيزنطى. كما لم يرد ذكر كلمة سوريا فى مصادر لتاريخ الإسلامى، لان كلمة سوريا أصلها بيزنطى، الا أن القلقشندى ذكر تسمية سوريا فى كتابه (صبح الأعشى) وهو يصف التقسيم القديم للشام. الا أنه لم يحدد

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، القاهرة ١٣٠٥، ج ٣، ص ٢٧٨، القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٣.

(٢) الرحبة: محلة لها مناكب يحل عليها الناس، ويقال للصحراء من أفنية القوم: رحبة ويقال رحبة والفتح أفصح. (الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٣٢٨، ك ١٠٨. ط. الشعب).

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٣.



زمننا بعينه، لظهورها ثم أتبع هذا التقسيم للشام، فذكر تقسيم الشام في العصرين الأيوبي ثم العصر المملوكي، ولم يذكر كلمة سوريا. كما ذكر أن كلمة بلاد الشام، ونائب الشام لم يكن يقصد بها في العصر المملوكي الا دمشق ونائبها(١). وفي العصر الأموي بالذات كان التقسيم الإداري مثل التقسيم البيزنطي المبني على أساس وجود العسكر للجيش ولكن أخذت اسم الجند لوجود الأجناد، وهذه الأجناد كانت تتغير من وقت لآخر.

وكان الشام في العصر الأموي مقسما الى خمسة أجناد وهي ما كان يطلق عليه أيضا الشامات كما ذكرنا. فكانت هذه الأجناد الخمسة: جند فلسطين وبها بيت المقدس. جند الأردن ومدينتها العظمى طبرية، جند الخوطة، ومدينتها العظمى دمشق ومن سواحلها طرابلس. جند حمص ومدينتها حمص. جند قنسرين ومدينتها العظمى حلب حيث كان يقيم الخليفة الأموي غالبا وقريب منها قنسرين.

كذلك كان للعصية القبلية منذ ظهور الاسلام وحتى قبله، أثرها في تغيير هذا التقسيم الإداري. حيث وزعت القبائل ما بين اليمينية والقيسية على الأجناد الخمسة.

ولقد لعبت مشايخ القبائل العربية الذين كان لهم السيطرة على هذه القبائل في الشام في العصر الأموي ذاته دورا مصطبغا بصيغة العصية التي ظهرت بين القبائل القيسية واليمينية في ذلك العصر بصفة خاصة.

وقد نتج عن الصراع بين القبائل العربية في الشام، سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية، وانتقال العاصمة من الشام الى العراق، وظهور

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٣.

عناصر غير عربية شغلت المراكز من الشام الى العراق، وظهر عناصر غير عربية شغلت المراكز القيادية في الدولة الجديدة. نتج عن ذلك كله أن حل التفاهم والوثام بين القبائل العربية في الشام ونبذوا التنازع والخصام وشغلوا عن العصبية القبلية، مما مهد الطريق أمام عهد جديد من العلاقات بينهم أدى الى تحالف نتج عنه ظهور دول عربية مستقلة في أطراف الشام الشمالي، مثل الدولة الحمدانية ومن بعدها الدولة المرديسية. وكان التطور الطبيعي نحو الاستقرار ونبذ الخلافات.

أما في العصر العباسي فان الشام لم يحتل مكانته الأولى لانتقال الحكم من الشام الى العراق، من الأمويين الى العباسيين. فمناطق الثغور (١) بالذات، كان الخلفاء العباسيون يهتمون بأمرها، لا يولونها الا شجعان القواد الراغبين منهم الجهاد والحروب من بين أهلها، والروم مستقرة في بعضها، ويقومون بالهجوم على الثغور التي كانت بأيدي المسلمين. حتى كان عهد الرشيد، الذي فصل الثغور ومنها المصيصة وعين زربة وأذنة وطرسوس وأنطاكية التي تطل على البحر الأبيض وسماها العواصم (٢). اذ هذه التسمية لم تظهر الا في العصر العباسي، في عهد الرشيد، لان الثغور التي كانت بأيدي المسلمين أصبحت عاصمة لهم من الثغور التي بأيدي البيزنطيين.

---

(١) الثغر: كل موضع قريب من أرض العدو، يسمى ثغر، كأنه مأخوذ من الثغرة وهي الفرجة في الحائط، وهو مواضع كثيرة منها ثغر الشام، وجمعه ثغور. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد ٢، ص ٧٩، بيروت ١٩٥٦).

(٢) ياقوت، معجم، ج٢، ص ٨٠، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٣٠.

كذلك كان حدث تغيير فى التقسيم تبعاً للظروف السياسية التى واجهتها بلاد الشام، بعد الحكم العباسى المباشر، تحت حكم الطولونيين، ثم الأخشيديين، ثم الفاطميين فى مصر، وبقي التقسيم الإدارى كولايات كما هو حتى العصر الأيوبي. حيث استمرت تسميتها بالولايات.

فعندما تمكن الطولونيون من إخضاع بعض أقاليم الشام لسلطانهم، مثل دمشق عام ٨٧٧/٢٦٤ وحمص وحماء و حلب. حيث كانت قنشرين إحدى الولايات الخمسة الهامة فى العصر العباسى، ثم ضعفت قنشرين وحلت محلها حلب، التى انتزعها الحمدانيون من الأخشيد عام ٩٤٤/٣٣٣ وأقاموا عليها الدولة الحمدانية، وجعلوا من حلب دار الإمارة، وبها الاسواق ومجمع الناس (١). وبقيت الدولة الحمدانية حتى عام ١٠٠٣/٣٩٤. وضم الحمدانيون الى دولتهم انطاكية واللاذقية وشيزر و حماة وحمص وأجزاء من اقليم قيليقيّة و اقليم الجزيرة (٢).

وكانت دمشق فى ذلك الوقت خاضعة تحت حكم الأخشيديين فى مصر. ثم جاء الفاطميون الذين ورثوا أملاك أسلافهم الأخشيد فى مصر والشام، وامتد سلطان المصريين فى الشام فشمّل طرابلس وغالب مدن الساحل الشامى (٣). وبقي التقسيم الإدارى مثلما كان نظام الولايات الذى وضع من أيام العباسيين كما ذكرنا.

(١) الاصبغرى، مسالك الممالك، ص ٥٥، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج ٧، ص ٣٧، عمر كمال، مقدمات العدوان الصليبي، ص ٥٧، ط. اسكندرية سنة ١٩٦٦.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٧٢، ١٧٧.

وفضلا عن الفاطميين والحمدانيين في الشام، فقد ظهر القرامطة كقوة  
ثالثة أيضا استطاعت أن تؤثر في مجريات الأحداث في الشام. ثم وقع القتال بين  
الفاطميين والقرامطة انتهت بانتصار الفاطميين وانسحاب القرامطة الى الاحساء  
بمنطقة البحرين، موطنها الأصلي الذي اقتصروا عليه (١). مما أعاد النظام  
الإدارى الى ما كان عليه سابقا من أيام العباسيين.

وقد إستعان الفاطميون في حروبهم ضد القرامطة ببنى الجراح أمراء  
الشام من طىء. وعينوا منهم الولاة على دمشق تقديرا لخدماتهم الحربية في  
حروبهم ضد القرامطة (٢).

أما في العهد الأيوبي، فقد قسم الشام بين أبناء صلاح الدين بحيث أطلق  
على كل قسم منها إسم المملكة. ومن يحكمها فهو الملك: مملكة دمشق وحلب،  
ومملكة حماه، ومملكة صرخد، ومملكة الكرك، ومملكة حمص (٣).

كان مملكة حماه، التى بقيت تحت حكم ملوك بنى أيوب، حتى معركة  
عين جالوت، وقيام دولة المماليك فى مصر والشام ولم يشأ سلاطين المماليك أن  
ينتزعوا حماه من ملوك بنى أيوب فأبقوا على الأيوبيين. وأقروهم على حكمهم  
فيها. وظلت مملكة حماة مملكة أيوبية فى ظل دولة المماليك. ثم صارت نيابة  
عام ١٣٤١/٧٤٢ (٤). والأرجح أن تسميه الممالك الإسلامية أو الشامية ترجع

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ١٩٣.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩١، محمد راغب الحلبى، إعلام النبلاء، بتاريخ  
حلب الشهداء، ص ٢٨٣، ٢٩٣، بيروت ١٩٢٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٧٢، فيليب حتى، تاريخ سوريا، ص ٢٦٥،  
ترجمة كمال اليازجى، بيروت ١٩٥٨.

الى عصر خلفاء صلاح الدين الأيوبي من أبنائه واخوته الذين اقتسموا الشام وجعلوا كل قسم مملكة مستقلة بذاتها كما ذكرنا. فهذه التسمية ترجع الى أيام الأيوبيين.

وقد أخذت كلمة مملكة فيما عدا مملكة حماه وأصبح الشام فى تقسيمه الإدارى نيابات. ومع ذلك فإن كلمة نيابة لم تقتصر على أقاليم الشام وحدها. فالإسكندرية التى كانت ولاية من قبل، لما هاجمها، بطرس الأول الملك القبرصى، تحولت الى نيابة. فتسمية نيابة لا تقتصر على الممالك الشامية. إذ أن لها معنى الحراسة مثل الإسكندرية التى أصبح لها معنى حراسة الإقليم المصرى.

وقد قسم الشام فى عهد المماليك الى ست أقاليم أو أقسام إدارية، سميت بالنيابات، وذلك لأن المماليك الذين جعلوا من القاهرة عاصمة لملكهم كانوا يعينون نوابا لهم على تلك الأقاليم، يحكمونها نيابة عن السلطان المملوكى، وأعلما دمشق(١).

على أن نيابات الشام فى عهد المماليك وهى : دمشق وحلب وحماه، وطرابلس صند والكرك . لم تنشأ فى وقت واحد. وإنما انشئت على عدة مراحل، فدمشق وحلب صارتا نيابة عقب انتصار المماليك على التتار فى عين جالوت عام ٦٥٩/١٢٦٠(٢). وصند صارت نيابة فى عهد الظاهر بيبرس، بعد أن استولى عليها من الصليبيين فى عام ٦٦٤/١٢٦٥(٣).

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ١٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦٥.

(٣) نفسه، ج ٤، ص ١٧٦.

أما حماه فانها كانت مملكة، في ظل المماليك حتى آخر حكامها الأفضل محمد عام ١٣٤١/٧٤٢ (١). ثم أصبحت نيابة.

أما الكرك، فترجع الى عهد السلطان صلاح الدين الذي فتحها عام ١١٨٨/٥٨٤. ثم صارت نيابة في عهد الدولة المملوكية عام ١٢٦٦/٦٦٥ في عهد الظاهر بيبرس (٢)، حيث اشتهرت بأنها مركز مواصلات استراتيجي في الشام. وغالبا ما كان يلجأ اليها السلاطين في حالة الاقالة من السلطنة.

وأما طرابلس التي كانت في يد الصليبيين فان، السلطان قلاوون الذي انتزعها من الصليبيين في عام ١٢٨٩/٦٨٨، بعد استيلائه على قلاع القليعات وحلبا وعرقا من حصون طرابلس، فأخرج منها من كان من الفرنج، وأحل محلهم جندا من المسلمين وفرض أرزاقهم في ديوان العطاء (٣).

وأمر السلطان قلاوون باعادة تعمير مدينة طرابلس المملوكية على انقاض المدينة القديمة (٤) وجعلها نيابة.

والخلاصة أن التقسيم الإداري الى نيابات في عهد المماليك، لم يستقر للشام الا بعد عام ١٣٣١/٧٣٢ حينما توفي عماد الدين اسماعيل أبو الفداء، آخر ملوك حماة من البيت الأيوبي ثم وليها بعده ابنه الأفضل محمد حيث صارت

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ١٧٢.

(٢) نفسه، ج ٤، ص ١٧٦.

(٣) ابن خلدون، العبر، المجلد ٥، ص ٨٣٣، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ١٧٦.

(٤) Van Berchem, Fatio: Voyage en Syria Dans memaires de L'instut

Francais d'Archologie orientale de Caire. t. 37Le Caire, 1914 p. 116.

، عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ج ١٢، الاسكندرية ١٩٦٧.

سادس نيابات الشام فى عام ١٣٤١/٧٤٢ ومنذ ذلك استقر نظام النيابات كتنظيم ادارى للشام.

أما عن السكان فى زمن المماليك، فلا شك أن تغلب هؤلاء على التتار فى أول قيام دولتهم فى مصر، ويفضل هذا النجاح، الذى تم فى الشام فى سلسلة من الانتصارات أميزها عين جالوت، مكن المماليك من السيطرة على الشام بحدوده المعروفة التى تمتد شرقا الى نهر الفرات بحكم أنه التوسع المصرى من ناحية الشرق. فتوحدت مصر والشام من جديد على أيديهم. حيث أن حكم المماليك أوجد فترة استقرار للشام، وان كانت استمرت فترة قلقة بسبب تهديد المغول المستمر، فعاد أهل الشام بفضل الاستقرار من أهل الحضرة الى الاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة، وقام البدو بحراسة الطرق والدفاع عن الحدود خاصة فى زمن الحروب.

وقد انتشرت العشائر العربية فى بلاد الشام، واكل منها أفخاذ ويطون، مثلما كان الحال منذ وجد الشام، إذ أن الشام قطر عربى. ومن الأقليات فى الشام، العصبية العنصرية، بالاضافة الى أهلها العرب فى الشام فى عصر المماليك، مثل عناصر من الاكراد والتركمان والارمن وغيرهم. كذلك كان الخصم الصليبي هو الاخر، الذى وجد قبل الحكم المملوكى سببا فى ورود اجناس أخرى لاعلاقة لها بأهل الشام وجيرانها، إذ هى اجناس من الفرنجة (أوربا) متمثلة فى عزواتها الصليبية بحيث كونوا قسما من سكان الشام، دام عدة قرون الى أن قضى عليهم المماليك وان كانت سلالتهم المخلطة قد بقيت، ولاشك أن للحروب ضد التتار والمغول من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى كان لها أثرها على خريطة توزيع السكان فى الشام. فحدثت تحركات قبائلية نحو

المناطق المحررة مثلما حدث في طرابلس التي تحولت بعد ذلك الى نيابة مستقلة.

على أن البدء ببيان توزيع هذه القبائل سيكون من وسط الشام، على أساس أن دمشق التي توجد فيها العاصمة، توجد بوسط الشام، ثم شمالاً، ثم جنوباً، وليس على أساس كثافة القبائل.

وهذا التوزيع سببه أيضاً الدور الحربى الذى تلعبه هذه القبائل، فبعضها كان يشارك الجيش المملوكى فى الدفاع أو الهجوم فى الشام.

ويمكن تلصق توزيع قبائل الشام العربية على حسب أماكن تواجدها الرئيسية، التى أصبحت ذات أهمية فى العصر المملوكى، تآتى فى مقدمتها دمشق، وهى قسبة الشام، حتى أن دمشق بمفردها تسمى الشام، وحتى الآن. لذلك كانت توجد فيها أقوى القبائل الشامية وأغناها وأكثرها عدداً منهم آل فضل الذين هم من ربيعة وترجع أصولهم الى طى وهم جميعاً من عرب الجنوب(١).

وأول ظهور ربيعة كان فى عهد الأتابك زكى صاحب الموصل وولى ربيعة امارة عرب الشام فى عهد طغتكين السلجوقى حاكم دمشق.

ولما ولى نور الدين محمود بن زكى حكم الشام، ووفد عليه ربيعة أكرمه نور الدين وشاد بذكره(٢). وآل ربيعة انقسموا الى ثلاثة أفخاذ منهم : آل فضل.

(١) ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، ص ٩٣٩، ٩٤٠.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٣.



وكان مبدأ رياسة آل فضل هؤلاء من عهد بنى أيوب. وذلك حين نزل العادل أبى بكر بن أيوب بمرج دمشق، ومعه عيسى بن محمد ربيعه(١) أمير آل فضل، فى جموع كثيرة(٢).

ثم ولى بعده حسام الدين بن مانع بن فضل وتوفى عام ١٢٣٢/٦٣٠ وولى بعده ابنه مهنا(٣).

وفى عصر سلاطين المماليك، شارك آل فضل ورئيسهم عيسى بن مهنا بن مانع فى معركة عين جالوت ضد التتار. فكافأه السلطان قطز بأن أقطع له مدينة سلمية من أعمال حماه. وكانت حماه قبل العصر المملوكى تتبع دمشق تارة وتارة مع حلب(٤). ثم قامت دولة المماليك فى مصر والشام حينئذ مقسم بين خلفاء بنى أيوب، وكانت حماة من نصيب الملك المنصور، أحد خلفاء بنى أيوب، فلما اكتسح التتار الشام فى عام ١٢٥٩/٦٥٨ وقاتل المنصور صاحب حماة فى صفوف المماليك قتالا شديدا ضد التتار. وتقديرا لبطولته واستبساله فى القتال أعيدت له حماه، وأضيفت إليها المعرة. وكانت من قبل تابعة لحلب. وأيضا فان الأمير عيسى بن مهنا أمير آل فضل منح مدينة سلمية - وهى من أعمال حماه - اقطاعا له، لبسالته وشجاعته فى قتاله ضد التتار(٥).

(١) القلقشندى، نهاية الأرب، ص ١٠١.

(٢) ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، ص ٩٣٧، القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص ٢٠٦.

(٣) المصدر نفسه، المجلد الخامس، ص ٩٤٢/٩٤٠.

(٤) القلقشندى صبح الاعشى، ج٤، ص ١٧٢.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٢٠، ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، ص ٨٢٠، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٣٠٣، ٣٦٣، محمد راغب بن محمود الحلبي، اعلام النبلاء، ص ٢٩٤.

والأمير ابن مهنا هو أمير آل فضل وكانت ديارهم من حمص - وحماء من أعمالها - إلى شط الفرات وأطراف العراق (١).

وبقيت حماه تحت حكم خلفاء بني أيوب في ظل دولة المماليك، حتى آخر حكمها الأفضل محمد (٧٣٣-٧٤٢/٧٤٢-١٣٣٢-١٣٤٢) ثم صارت نيابة بعد ذلك، وكانت مصيابه وحصن الفداوية وسلمية والمعرة، من أهم مدن حماة (٢). ومن أحلاف آل فضل عرب الشام، بنو خالد بديار حماه، منهم الصيالة، الزمول، البنوة، الشقرة وآل ملح (٣).

ثم نذكر زييد الأحلاف: وهم بطن من طيء من القحطانية سكنوا بالقرب من الرحبة بجوار آل فضل (٤).

ثم نذكر آل بشار: وهم من حلفاء آل فضل، ومواليهم والأحلاف بطن من أفضل هؤلاء، وجميعهم بلادهم الجزيرة والاحصن من ديار حلب. على أن تحالف آل بشار والأحلاف وغيرهم من عرب الشام. الذين دخلوا في طاعة آل فضل سببه قوة آل فضل، وصار آل بشار ومنهم الأحلاف ينسبون إلى آل فضل، وصار آل بشار ومنهم الأحلاف ينسبون إلى آل فضل بالحلف والمواالاة (٥).

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٣، ج ١٢، ص ١١٨.

(٢) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٥٥، باريس ١٨٩٣.

(٣) القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٢٤٤، السيد محمد أبو الهدى الصيادي، الروض البسام في أشهر البطون القرشية بالشام، ط. الاسكندرية ١٨٩٢، ص ٩، عمر كحالة، معجم قبائل العرب، ج ١، ص ٣٢٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١٤.

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٣٢، السويدي، سبائك الذهب، باب ٦، ص ٩١.

ذكر القلقشندي أن آل بشار هؤلاء متفرقون لاتجمعهم قيادة واحدة، لأنهم دأبوا على عدم الخضوع لأمير منهم، وهذا هو سر ضعفهم، وانضوائهم تحت امرة آل فضل(١). وأنهم لو اتحدت كلمتهم، لخشى بأسهم آل فضل. وذكر أيضا أن آل فضل على الرغم من ذلك فهم يخشون بأسهم لشجاعتهم وشدة بأسهم، كما ذكر أن مدينة جعبر كانت تابعة لنيابة دمشق، ثم صارت من أعمال حلب(٢). وحينئذ فان في بلاد حلب بعض عرب آل فضل، كما انهم سكنوا وسط الشام كما ذكرنا وكانوا يعيشون في دمشق.

وفي عهد السلطان الظاهر بيبرس ولي عيسى بن مهنا بن مانع اماره آل فضل.

وفي عهد المنصور قلاوون ولي مهنا بن عيسى اماره آل فضل وهي التي كما ذكرنا كانت تمتد الى شمال الشام وتعتبر من أكبر القبائل الشامية في العصر المملوكي، ثم ولي السلطنة الأشرف خليل الذي عزل مهنا من اماره آل فضل.

وفي عهد السلطان العادل كتبغا أعيد الأمير العربي مهنا لإماره آل فضل.

وفي عهد السلطان محمد بن قلاوون، وكان الأمير مهنا أميرا على آل فضل، نqm السلطان محمد بن قلاوون على هذا الأمير لاتصاله بالنتار وحصوله على اقطاع بالعراق. وأمر بطرد آل فضل عام ١٣٢٠/٧٢٠ من بلاد الشام لينضموا الى عرب في أماكن قاصية بالحجاز والعراق. وجعل اماره عرب

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٣٢.

(٢) المصدر نفسه، خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٥٥، وجعبر، قلعة جعبر تقع على الفرات بين بالس والرقعة غرب صفيين. ( الحموي، معجم البلدان، مجلد٢، ص ١٤١، ط. بيروت ١٩٥٦).

الشام فى آل على أبناء عمومتهم<sup>(١)</sup> الذين ينسبون الى على بن حديثة بن عقبه بن فضل بن ربيعة<sup>(٢)</sup> ومنه تسلسل زعماء آل على حيث أن اسم طى أو ربيعة أو حتى عرب الجنوب اليمنية، لم تعد تذكر فى ذلك الوقت، إنما أصبحت القبائل تنسب إلى زعمائها، مثل آل على هؤلاء.

كان الأمير زامل بن على بن حديثة أمير آل على من سادات العرب ووجهها، ذوى المكانة المرموقة العالية، وذلك منذ عهد المعز أيك<sup>(٣)</sup>.

وفى عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦/١٢٦٠ - ١٢٧٧) عزل الأمير زامل بن على وعين مكانه الأمير عيسى بن مهنا على أحياء جميع العرب بالشام<sup>(٤)</sup>.

وفى عهد الظاهر بيبرس أيضا إنتقل آل على الى مرج دمشق ووطنتها، وذلك حين ولى عيس بن مهنا أمرة آل فضل<sup>(٥)</sup>. وصاروا بين أخوتهم، آل فضل وبني عمهم<sup>(٦)</sup> آل مرء.

(١) ابن خلدون، العبر، المجلد السادس، ص ١٩، ٢٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢١٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٣.

(٤) ابن خلدون، العبر، ج٥، ص ٩٤١، المقرزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٤٦٥.

(٥) ابن خلدون، العبر، ج ٥، ص ٩٣٧، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٠٦.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢١٠.

وذكر ابن خلدون، أن الظاهر بيبرس عزل الأمير زامل من إمارته، وحبسه، وذلك (لاعناته واعراضه)<sup>(١)</sup>.

كما ذكر المقرئى أن زامل قبض عليه بالشام، ثم نقل الى القاهرة وأعتقل بها، ثم أفرج عنه السلطان، (وصار يلعب مع السلطان فى الميدان)<sup>(٢)</sup>. ثم أصلح السلطان بين زامل وبين إخوته وأبناء عمومته أمراء العرب ورد على زامل أقطاعه. إلا أن زامل لم يستجب لهذا التكريم السلطانى. وزاد على ذلك أنه اتصل بالنتار فى بغداد، وحصل منهم على اقطاع له بالعراق. ثم عاد الى الشام وأرسل الى السلطان يلتمس منه العفو، فوافق السلطان وحدد له موعدا يحضر فيه ، فإذا أخلف الموعد المحدد لحضوره عند السلطان فلا عهد ولا إيمان له. وعلى الرغم من ذلك، فإن الأمير زامل حضر الى السلطان بعد الميعاد المحدد له فأمر السلطان بالقبض عليه، وسجنه بالقلعة<sup>(٣)</sup>.

وبمقارنة النهج الذى سار عليه هذا الأمير العربى، مع السلطان بيبرس، بما حدث من بعض أمراء العرب فى مصر المملوكية، أمثال حصن الدين ثعلب، الذين حاربوا المماليك وطالبوا بتحتيتهم عن الحكم بإعتبار أنهم أرقاء، وأن العرب أولى منهم وأحق، بحكم البلاد، لأنهم أحرار. ويتضح الشبه الكبير بين سلوك هؤلاء الأمراء العرب فى الشام ومصر، الذين لم يكتب لسياستهم النجاح فى عصر سلاطين المماليك، وأنضوا تحت لواء دولة المماليك، وصاروا من جنود الدولة وفرسانها الشجعان.

(١) ابن خلدون، العبر، ج٥، ص ٩٤١.

(٢) المقرئى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٥٣٥.

(٣) المقرئى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٥٣٦.

وفى عهد الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣/١٢٩٠ - ١٢٩٣) ولى إمارة آل فضل الأمير محمد بن أبى بكر من آل على، بعد أن عزل بن مهنا عن الإمارة، ثم أعقبه الأمير جمازين محمد بن أبى بكر، بعد وفاة والده (١).  
 وصدر لهذا الأمير "مرسوم شريف" ومضمونه أن الأمير جماز بن محمد هو خير خلف لخير سلف وان قبائل العرب التى عليها الطاعة، هى أكمل وظائفهم، وأن لآل على فيهم أعلى مكانة. وانهم رديف أسوار دمشق وفريد سوارها. وقد رسم بالأمر الشريف بأن يفوض اليه أمرة آل على فى كل أمورهم كبيرها وصغيرها، وأن عليه حفظ الثغور والذب عن الرعايا فى كل الأمور (٢).

تم أعقبه الأمير رمله بن جماز فى عهد السلطان محمد بن قلاوون - فى المدة الثالثة - (٧٠٩ - ٧٤١/١٣١٠ - ١٣٤١) حين أمر بإبعاد مهنا واخوانه من الشام (٣).

(١) القلقشندي، نهاية الأرب، ص ١٠٧.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ١٢٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١٠.

وفى عهد الضاهر برقوق، كان أمير آل على هو عيسى بن زيد بن جماز أمير على آل فضل جميعهم، وكانت ديار آل على مرج دمشق وضواحيها(١).

ومن قبائل الشام التي سكنت بغوطة دمشق ومرجها، نذكر بطن زبيد العربي. ذكر الحموي في معجمه أن الفوطة، هي الكورة التي منعا دمشق كلها أشجار وبساتين وزبيد: وهي بطن من عرب الجنوب، بغوطة دمشق ومرجها، ذكرها العمري، في مسالك الأبصار، وبحوران وصرخد، فرقة أخرى، ولم يتبين من أي زبيدهم(٢). وحوران، مدينة واسعة تابعة لدمشق، وصرخد قلعة حصينة ملاصقة لحوران. ذكرها الحموي في معجمه، وذكر القلقشندي عن زبيد في كتابة صبح الأعشى، أن زبيد التي بالشام، من بطون سعد العشيرة عرب الجنوب.

ثم نذكر زبيد الأحلاف: وهم من بني زبيد، وهم بطن من القحطانية سكنوا الرحبة وإمتدوا الى وسط الشام(٣). فقد تفرعت زبيد الأحلاف عن زبيد عرب الجنوب، وتميزت لإختلاف المكان والذين بصرخد منهم: آل مياس، وآل صيفى وآل برة وآل محسن وآل حش وآل رحا، والذين بالمرج والفوطة آل رجاء وآل بدال والمدوس الحريث(٤).

(١) القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص ١٠٧.

(٢) القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٢٦٩، السويدي، سبائك الذهب، ص ١٠١، عمر كحالة، معجم قبائل، ج ٢، ص ٤٦٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٣٢١.

(٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢١٤.

ثم نذكر بنى نوفل: وهم بطن من زبيد من القحطانية عرب الجنوب مساكنهم بغوطة دمشق، وهم أمراء بنى زبيد وليس لأحد من أمراء العرب أمره عليهم، وإنما أمر الفريقين، إلى نواب الشام(١).

ولقد ذكر القلقشندي، أن تكليفا سلطانيا "مرسوم شريف" صدر لإبن سعيد من البيت النوفلي، بتعيينه أميرا على عرب زبيد(٢). وبنو نوفل والزبيدي، جاءت الصلة بينهما نتيجة لوجودهما في مكان واحد، حيث كانت ديارهم متصلة بين المرج والغوطة.

وقد شاركت زبيد ممثلة في نوفل الزبيدي، وهو الأمير ناصر الدين شيخ عرب زبيد، الملك الناصر الأيوبي في حمايته من الوقوع في أيدي المماليك، في عهد المعز ايك أول سلطان في دولة المماليك وعادوا به سالما إلى الشام(٣). كما قام عرب زبيد وشيخهم هلال بن ساعد الزبيدي بدور الطلائع وكشف الأخبار للسلطان محمد بن قلاوون(٤).

مما سبق فقد عرضنا لعرب دمشق الذين يكونون ركيزة عرب أهل الشام.

أما عن عرب شمال الشام، فكان لها دور يختلف عن دور قبائل عرب دمشق، فعلى عاتقها يقع الدفاع عن منافذ الشام الشمالية. فحلب التي في شمال

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢١٥، القلقشندي، نهاية الأرب، ص٤٣٤، عمر

كحالة، معجم قبائل العرب، ج٣، ص١٢٠٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص١٣٧.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٨.

(٤) يوسف غواتمة، التاريخ السياسي لشرقي الأردن، ص١٧٤.



الشام، تعتبر مفتاح الشام من الشمال بحكم انها منفذاً ثغريا هاما. فإذا كان عرب دمشق يتصلون بحكام السلطنة فإن هؤلاء يعتبرون سدا للثغور إذ مهمتهم أشق. فمن قبائل حلب فى زمن المماليك نذكر:

بنوكلاب: وهم إذا تسلسلوا يكونون بطن من ربيعة بن عامر بن صعصعة أى من قيس من عرب الشمال. وكانت منازل بنى كلاب، فى جهات المدينة المنورة فى فذك والعوالى ثم انتقلوا الى الشام.

ذكر المؤرخ ابن العديم، أن ثمة رحيل جماعى لبنى كلاب(١). حدث فى أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)، فى نهاية عصر الإخشيد، وبداية العصر الحمدانى، فى البلاد الشامية. وذلك أن محمد بن طغج الإخشيد ولى أحمد بن سعيد الكلابى شيخ قبيلة بنى كلاب، مدينة حلب، فشجع هذا الوالى، بنى كلاب، على الهجرة الى الشام، فقدموا إليها فى ولايته فكثرت بذلك عدد بنى كلاب وزاد نفوذهم فى شمال الشام(٢).

وكان بنو كلاب أحد العناصر الرئيسية المؤثرة فى عهد بنى حمدان قبل العصر المملوكى، فقد قامت بدور بطولى فى خلال النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فى الدفاع عن ثغور الشام ضد الصليبيين(٣).

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ١، ص ٣٤٠، نهاية الأرب للقلقشندى، ص ٤٠٧، المقرئى، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، ص ١١٠، تحقيق عبد المجيد عابدين، القاهرة ١٩٦١.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، جـ ١، ص ٩٨، ٩٩، محمد كرد على، خطط الشام، جـ ١، ص ٢١٣

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب، جـ ١، ص ١٤٨، ١٥٠، محمد كرد على، خطط الشام، جـ ١،

وفى بداية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وبفضل إزدياد نفوذ بنى كلاب فى شمال الشام، فى حلب وضعف الولاة من قبل الفاطميين، الذين إستولوا عليها زمن الحمدانيين، استطاعوا تأسيس دولة بنى مرداس العربية، ويرجع ذلك الى صالح بن مرداس وهو أمير من بنى كلاب الذى تمكن من الإستيلاء على حلب عام ١٠٢٤/٤١٥ بمعاونة أهلها ثم تسلم القلعة من ابن ثعبان والى حلب من قبل الفاطميين<sup>(١)</sup>. وبقيت دولة بنى مرداس التى قامت فى حلب فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) أكثر من خمسين عاما تحكم عربيا خالصا مستقلا إحيانا عن الفاطميين، حتى ظهر السلاجقة، الذين إستولوا على المشرق العربى، ودقوا أبواب العراق، وتوسعوا شمالا حتى الشام - وكانوا من السنة - وإستولوا على حلب من المرداسيين وكانت القبائل العربية قد إنتشرت فى أنحاء الشام من جديد. بعد أن كان ضعف النفوذ العربى، ليحل محله نفوذ الأتراك السلاجقة وبدأ إسم بنى كلاب يظهر من جديد فى بلاد الشام فى العهد السلجوقى، لتعاونهم مع السلاجقة فى حروبهم ضد الصليبيين وغيرهم. وفى العهد الأيوبى كان بنو كلاب على علاقة طيبة بملوك بنى أيوب، يقدمون لهم الخدمات، مثل إمداد الجيوش بالجمال لحمل الغلال، إلى مناطق الثغور الشامية، حدث ذلك فى عهد الملك الكامل الأيوبى، أو مصاحبتهم الى حدود الشام المتاخمة للروم، للقيام بدور الطلائع للحملات العسكرية، كما حدث فى عهد الملك الأشرف موسى الأيوبى<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٧، ص ٢٤٩، ابن العديم، زبدة الحلب، ج١،

ص٢٢٣، ٢٣٠، ابن خلدون، العبر، مجلد ٤، ص ٥٨٢.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٣٢.

كذلك ذكر القلقشندي بنى كلاب في كتابه "صبح الأعشى" فوصفهم بأنهم عرب غزو ورجال حروب وأبطال جيوش، وبأنهم من أشد العرب بأسا، حتى أنهم لشدة جرأتهم، فى حروبهم ضد الروم، نسبت إليهم أميرة والمعروفة "بدلهمة والبطال" أو "ذات الهمة" وذات الهمة امرأة عربية والبطال هو ولدها، وهو واحد من أبطال هذه السيرة<sup>(١)</sup>. وذات الهمة فى السيرة الشعبية هى فاطمة بنت مظلوم بن الصحصاح بن جندبة بن الحارث من قبيلة كلاب العربية<sup>(٢)</sup>. وتعرض هذه السيرة لدور المرأة العربية فى المجتمع الإسلامى ودور الحكام المسلمين فى قيادة الجيوش وإدارة الحكم ووحدة الشعب العربى فى الشام ومصر<sup>(٣)</sup>. مما يبين دور جهاد المرأة العربية فى سبيل عروبة الشام.

وفى العصر المملوكى، كان الناصر محمد قلاوون لايزال ملتفتا الى تآلف بنى كلاب هؤلاء بمعنى تشجيعهم على التعاون معه، حيث كان اين قلاوون يميل الى العرب ويتزى بزيتهم. وكان أحمد بن نصير أمير بنى كلاب قد خرج عن الطاعة، حيث يحدث عادة خلاف بين نائب الشام وبعض الأمراء العرب أو مثل ذلك فأمنه السلطان الناصر (وخلع عليه وأقطعه)<sup>(٤)</sup>. ثم رأى السلطان الناصر محمد أن يؤمر عليهم أميرا من آل ربيعة فجعل سليمان بن مهنا أميرا على بنى كلاب. وهم أيضا من عرب الجنوب. وهكذا صار بنو

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢١٥، فاروق خورشيد، أضواء على السير

الشعبية، القاهرة ١٩٦٤ ص ٥٧.

(٢) فاروق خورشيد، أضواء على السير الشعبية، ص ٦٠، ٩٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢١٥.

كلاب فى العصر المملوكى (تحت خفارة الأمراء من آل ربيعة)<sup>(١)</sup>. والمحصل أن عرب شمال الشام قاموا بالدفاع عن الثغور العربية فى العصر المملوكى مثلما كانوا يفعلون فى العصور السابقة عليه، وأن كان دورهم يظهر ضمنا فى ظل الدفاع المملوكى عن شمال الشام.

أما القبائل العربية فى جنوب الشام فنذكر منها: جذام: وهم بنو جذام بن عدى من عرب الجنوب، مع أنها كانت تجاور العرب القيسية، عرب شمال الحجاز وكانت مساكنها بين مدين الى تبوك ومنها فخذ مما يلى طبرية من أرض الأردن الى اللجون واليامون الى ناحية عكا<sup>(٢)</sup>.

ثم نذكر ثعلبة وجرم: بطن من طى من القحطانية عرب الجنوب. ذكر القلقشندى فى كتابه "نهاية الأرب" أن منازل ثعلبة وجرم هؤلاء بمشارق البلاد المصرية ومغارب الديار الشامية<sup>(٣)</sup>. وذكرهم أيضا فى "صبح الأعشى" أنهم ببلاد غزة والداروم مما يلى الساحل- وهى منطقة بجوار غزة<sup>(٤)</sup>. الى الجبل وبلاد النخيل، وأن من أمراتهم فضل بن حجى من آل مرا وكانت فيهم الامرة<sup>(٥)</sup> وفى دولة الظاهر برقوق ، على بن فضل بن حجى من آل مرا.

(١) ابن خلدون، العبر، المجلد ٦، ص ١٨، القلقشندى، صبح الأعشى، ج ١ ص ٢٤٠.

(٢) القلقشندى، نهاية الأرب، ص ١٠٨، عمر كحالة، معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٧٤.

(٣) القلقشندى، نهاية الأرب، ص ١١٨.

(٤) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٩.

(٥) المصدر نفسه ص ٢١١.

ثم نذكر آل مرا: من آل ربيعة عرب الجنوب ومن ديارهم الجولان وهي مرتفعات شرقي صغد وطبرية، لهم نشاط وسعى وراء المرعى، فامتدت ديارهم الى مكة وأبعد منها، ثم يعودون الى الشام (١) وكا لآل مرا دور هام في الدفاع عن الشام ضد التتار في العصر المملوكي (٢).

ثم نذكر آل عمرو: بطن من غزية من عرب الجنوب وهم مع ثعلبة في مغارب البلاد الشامية. آى فى الجنوب، لأن ثعلبة كانت تقيم ببلاد غزة ومعهم آل عمرو (٣).

ثم نذكر بنى بحتر: وهم بطن من طى من القحطانية عرب الجنوب. (٤). ويقال أن أصل بنى بحتر من آل تتوخ (٥). وآل تتوخ حى من اليمن القحطانية، إلا أنها بخلاف بقية القبائل مكونة من عدة بطون (٦). وقد سكنت تتوخ زمن الفتح العربى فى حاضر بظاهر حلب، ثم انتقلوا منها الى قنسرين (٧). وإنضمت تتوخ وأهالى قنسرين الى جيش خالد بن الوليد فانهزم الروم (٨). (ولتتوخ بقايا بأرض المعرة من بلاد الشام) (٩). فكانت ديار بنى بحتر غرب الشام فى المناطق

- 
- (١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠٨، نهاية الأرب للقلقشندي، ص١١١، عمر كحالة، معجم قبائل العرب، ج٣، ص١٠٦٤.
- (٢) المقرئى، السلوك، ج١، ق٣، ص٦٩٠، ٦٩٣.
- (٣) القلقشندي، نهاية الأرب، ص١٠٨، ١٩٧.
- (٤) المصدر نفسه، ص١٧٣، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٦٤، محمد كرد على خطط الشام، ج١، ص٣٤، محمد فريد وجدى، دائرة المعارف القرن العشرين.
- (٥) القلقشندي، نهاية الأرب، ص١٧٣، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٦٥.
- (٦) المصدر نفسه، ص١٨٩، السويدي، سبائك الذهب، ص٨.
- (٧) ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٦، جرجى زيدان، العرب قبل الإسلام، ص١٦٩.
- (٨) ابن العديم، زبدة الحلب، ص٣١.
- (٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٣١٨.

الساحلية عامة، وغربي بيروت خاصة، فهم كانوا فى عهد السلطان فرج يقومون بدور حربى تحت قيادة شيخ المحمودى، فى مناطق البقاع وبعليك وصيدا، كلها فى جنوب الشام. وهى مناطق مجاورة لمنطقة صنفد، وكانت القبائل العربية فى هذه المناطق تشترك معا للدفاع عن السواحل مع بقية القوات المدافعة، ثم استقر أمر بنى بحتر على حراسة بيروت، التى أقاموا بها منذ بداية عام ٦٩٣/١٢٩٤(١).

ثم نذكر بنو عتبة: بطن من جذام من القحطانية عرب الجنوب ومنازلهم الكرك والشوبك، وكان عليهم درك الطريق ما بين مصر والمدينة المنورة الى حدود غزة(٢).

ونذكر بنى مهدي بطن من جذام من القحطانية، منازلهم بالبقاع وحول الكرك وهم بطون كثيرة وأفخاذ متسعة منهم الشاطبية، أولاد بنى عسكر والعناترة وأولاد راشد والبترات واليعاقبة والمطارنة والعفير والرويم والمحارفة والمساهرة والقاطرية والمجابرة والسماعنة والعجرفة(٣).  
وبجانب القبائل العربية فى الشام، الجراجمة ويعرفون أيضا باسم الماردية أو المردة، وهم ينسبون الى بلدة الجرجمة فى ثغور الشام، وهم قبيلة

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٥٧، ٦٣.

(٢) القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٣٦٤، المقرئى، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، ص ١٨، ١٩.

(٣) القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٤٢٧، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١١، ج ١٢، ص ١٣٥، عمر كحالة، معجم قبائل، ج ٣، ص ١١٣٥.

من أعلى جبال أرمينية مما يلي بلاد فارس<sup>(١)</sup>، وان لم يكونوا أرمن وإنما من جنس أسيوى مجهول الأصل. وكانوا يقيمون منذ الفتح العربى فى بلاد الشام نواحي بياس ومرعش، من مناطق الثغور من أعمال حلب. وكان لهم دور هام فى الحروب التى نشبت بين العرب والروم (البيزنطيين فى صدر الإسلام). وفى العصر الأموى، كان للجراجمة (المردة) دور فى خدمة العرب ككشافة وعيون، ولكنهم كانوا تارة مع العرب وتارة مع الروم.

وعلى الرغم من أن دائرة المعارف الإسلامية تذكر أن هذا الإسم، وتعنى الجراجمة أو المردة، قد إختفى من التاريخ<sup>(٢)</sup>. إلا انه ورد ذكر المردة فى الأحداث التى وقعت فى لبنان فى عهد الدولة الطولونية بين الأمير نعمان ابن عامر الإرسلاى - أمير الغرب وتشمل بيروت وصيدا وجبلها<sup>(٣)</sup> (الذى حصن مدينة بيروت وقلعتها وبين المردة فى لبنان من قتال عظيم على نهر بيروت دام أياما حتى إنهزموا وقتل منهم وأسر بعضهم<sup>(٤)</sup>).

كذلك ظهر إسم المردة فى الحملات الصليبية على بلاد الشام عام ١٠٩٩/٤٩٣ وذلك حينما وفد الى الصليبيين أناس من المردة من جبيل فى لبنان وغيرها ورحبوا بهم وقاموا لهم بدور الطلائع لإرشادهم فى الطرق والمسالك الجبلية على أساس أنهم مسيحيون مثلهم، وقدموا لهم الموزن والسلاح<sup>(٥)</sup>. مما

(١) يوسف دربان، نبذة تاريخية فى أصل الطائفة المارونية، ص ٣٢.

(٢) دأشرة المعرفة الإسلامية، إبراهيم خورشيد، مجلد ١١، ص ١٥٠.

(٣) عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، بيروت، ١٩٧٢، ص ٥١

(٤) محمد كرد على، خطط الشام، ج ١، ص ٢٠٣.

(٥) يوسف جوهر، تاريخ لبنان العام، ط. لبنان، ص ٢٠١.

يدل على بقائهم في وسط الشام، منذ أن كانوا يغيرون على الشام بتحريض الروم، حتى أصبحوا جزءاً من أهل الشام.

كذلك إختلفت تسمية الجراجمة وحتى المردة وأصبحوا يعرفون بالموارنة حتى غلب عليهم هذا الإسم، ومع ذلك وجدت تسمية المردة في عصر المماليك، فكان إسم (المردة) يطلق على موارنة جبل لبنان وأحياناً بأشباع رهبان دير مارون. ولكن الموارنة غلبت عليهم وصاروا يعرفون به. والموارنة، نسبة إلى الراهب مارون، الذي كان يقيم في أنطاكية أواخر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي). وكان بطريك الموارنة يقيم عادة في دير القديس مارون على ضفاف نهر العاصي قرب أنطاكية وينشر التعاليم الدينية، وأهل مصر والشام هم الذين أطلقوا على أتباع القديس مارون، أشباع رهبان دير مارون، ثم أطلقوا عليهم (موارنة)<sup>(١)</sup>. في أواخر العصر المملوكي.

ثم انتشر الموارنة في شمال لبنان حتى وصلوا إلى كسروان والمتن والشوف<sup>(٢)</sup> واندمج مع الموارنة آل الخازن وآل ملحمة - وهما من عرب الجنوب - في أيام المماليك<sup>(٣)</sup>. ولم يتمكن المسلمون من سكنى تلك المناطق بصفة دائمة إلا بعد أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)<sup>(٤)</sup>. فقد أقام المماليك العرب من آل تنوخ وأمراء الغرب في عمل الغرب القريب من

(١) يوسف دريان، نبذة تاريخية، ص ٤٣.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ٦٩.

(٣) فليب حتى، تاريخ لبنان، من أقدم العصور التاريخية إلى عصر الحاضر، ط ٢ ثانية بيروت ١٩٧٢، ص ٣٠١.

(٤) صالح بين يحيى، تاريخ بيروت، سنة ١٨٩٨، ص ٤٤، يوسف الدبس، الجامع المفصل، ص ١٨٧.



بيروت، مدة حروبهم مع الفرنج. وبعد طردهم منها أسكنوا القبائل العربية سواحل لبنان ليكونوا حاجزا بين نصارى لبنان أو الموارنة وبين الفرنج إذا ما عادوا الى الشام (١). وسبب إندماج العرب من آل الخازن وآل ملحة مع الموارنة يرجع الى ثورات في عصر المماليك ترتب عليها هذا الإندماج (٢).

ثم نذكر الأرمن، وهم من سكان الشام، وموطنهم الأصلي أرمنية المجاورة للشام، وهي محصورة بين سلسلتين من الجبال. بنطس شمالا بطوروس جنوبا، وتمتد ما بين آسيا الصغرى الى الغرب من نهر الفرات، حيث كان العرب- وقد بدأ بعد غزو الشام وهزيمة فارس- يوالون الغارة على أرمنية وينازعون الروم (البيزنطيين) على إمتلاك أرضها، في عام ٦٥٥/٣٥ مد العرب سلطانهم على جميع أملاك أرمنية.

ولعل الأرمن كثروا في الشام في ظل الإسلام بعد أن أصبحت أرمنية جزءا من بلاد المسلمين في العصر الأموي، والعصر العباسي. وأنهم أصبحوا يشاركون في السياسة بدليل أنهم كونوا جزءا من الجيش الفاطمي. أما مساكنهم في أيام المماليك، فكانوا في حلب وفي جبال لبنان من مقاطعة كسروان (٣).

ثم نذكر التركمان أو الترك وان غلبت عليهم تسمية التركمان، وهم من أوائل الأتراك الذين إعتقوا الإسلام وخدموا في الدولة العباسية، وهم من أعظم الشعوب التركية التي إشتهرت بالشجاعة والفروسية (٤).

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، سنة ١٨٩٨، ص ٤٤، يوسف الدبسي، الجامع المفصل، ص ١٨٧.

(٢) فليب حتى وتاريخ لبنان، ص ٣٠١، يوسف الدبسي، الجامع المفصل، ص ٢٣٢.

(٣) انطون خاتجي، مختصر تواريخ الأرمن، ص ٢٨٩، ط. القدس، سنة ١٨٩٨.

(٤) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ٦٢.

فجن التركمان، فإنهم والاكرد يكونون قسما من أهل الشام، وكانت هجرتهم في الأصل الى آسيا الوسطى من المنطقة التي تقع بين بحر آرال وبحر الخزر الى آسيا الصغرى ولاسيما بعد موقعة ملازكرد والمشهورة عام ٤٦٤/١٠٧١ (١) التي كانت بين الترك السلاجقة والبيزنطيين، بحيث سكنوا شمال حلب، وفي ثغور البحر الأبيض. وكان للتركمان دور في إنهاء السيادة البيزنطية على بلاد الأرمن. ثم استقر التركمان في أرمينية (٢).

والأرجح أن ثمة تسرب تم تدريجيا لجماعات من القبائل التركمانية الى بلاد الشام، منذ استخدم العباسيون العناصر التركية وخاصة في عهد الخليفة المعتصم العباسي (٢١٨ - ٢٢٧/٩٣٠ - ٩٤٨)، وكان لهذه العناصر دورها السياسي في بلاد الشام في مختلف العهود منذ العصر العباسي، وحتى سلاطين المماليك.

وقد كان أول عهد التركمان بالشام، في عصر دولة بني مرداس في أيام الفاطميين، نزلوا في شمال حلب، ومع أن بني مرداس عرب إلا أنهم استعانوا بالتركمان هؤلاء، كما استعان بهم الأتابل زنكي في حروبه ضد الفرنج، وجعلهم يقيمون في حلب وكلفهم بمحاربة الفرنج، على أن كل ما إنتزعه منهم صار ملكا لهم. وبقي التركمان يقيمون في ثغور الشام، حتى كان عصر صلاح الدين، الذي أسكن التركمان والاكرد في لبنان وسواحلهم. ومنهم طائفة سكنت شرقي الأردن وبقلعة جعبر وعجلون. وإشتغلوا بالرعي والزراعة والصناعة وعين منهم في

(١) دائرة المعارف الإسلامية، إبراهيم خورشيد، مجلد ٣، ص ٧٨.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ٢٦٢.

القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) أميرهم مير على نائباً فى قلعة عجلون<sup>(١)</sup> مما جعلهم جزءاً من سكان الشام.

أما فى العصر المملوكى، فقد أصبحوا فى أعداد كبيرة، يسبب أن الحكام فى هذه الفترة أصبح منهم تركمان، مثل المعز أيبك التركمانى أو سلاطين المماليك ٦٤٨-٦٥٥/١٢٥٠-١٢٥٧ وجقمك نائب الشام ت: ١٤٢١/٨٢٤ (وكان من أبناء التركمان القادمين إلى الشام، وكان يتكلم العربية، ولايشك من جالسة أنه من أولاد الأحرار فى الشام)<sup>(٢)</sup>. ومن الطريف أن جقمك هذا، إتفق مع أحد تجار الرقيق على أن يبيعه ويقسم ثمنه بينهما، ثم تدرج إلى الوظائف المملوكية، حتى عين دويدارا ثانياً فى عهد السلطان المؤيد شيخ (٨١٥-١٤١٢/٨٢٤-١٤٢١) ثم دويدارا كبيراً ثم صار نائب الشام عام ١٤١٩/٨٢٢ فبنى السوق الذى عرف باسمه وجعله وقفاً على المدرسة التى بناها قرب المسجد الأموى<sup>(٣)</sup>.

ومن الطريف أن القبائل التركمانية، لم يقتصروا على سكنى الثغور ولكن كانوا ينتشرون فى أنحاء الشام، كما ذكرنا، فقد ذكر خليل بن شاهين فى كتابه "زبدة كشف الممالك، فى جريدة بها أسماء القبائل التركمانية التى كانت تعيش فى المنطقة التى بين غزة وديار بكر أهمها قبيلة دلغادر التى كان لها شأن سياسى بين تلك القبائل التركمانية<sup>(٤)</sup>.

(١) يوسف غواتمة، التاريخ الحضارى لشرقى الأردن فى العصر المملوكى ص ١٣٥، ط. ثانية ١٩٨٢.

(٢) ابن العماد دمشقى، شذرات الذهب، ج ٧، ص ١٦٣.

(٣) المصدر نفسه، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد ١٠ سنة ١٩٦٠، ص ٧٧.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، إبراهيم خورشيد، مجلد ٩، ص ٢٧٧، ط. الشعب.

وقد أصبح التركمان يمثلون جزءا كبيرا فى جيش الدولة المملوكية حتى أن عدد فرسانهم بلغ مائة وثمانون ألف فارس(١). فقد قام التركمان بدور بارز فى محاربة التتار والصليبيين. وشاركوا المماليك والعرب فى أهم المعارك الحربية فى الدفاع عن الشام.

وهم طوائف كثيرة بالإضافة إلى بنى دلغار وجد بنو رمضان، والإينالية(٢). فقد ذكر خليل بن شاهين كثير من أسماء القبائل التركمانية الذين قيدت أسماؤهم فى جرائد الجيش المملوكى فى الشام فى الشام مثل: ابن قطلبك وابن كبك وابن دلغار وابن رمضان والأوزارية وبكدلو والبازتية وبوزجالولا والمرعشكولا والاراكية وأوج أخلو وبوز أخلو والإينالية والخزبنزية والكندولية وغيرهم كثيرون، وأصل عددهم فى جريدة الجيش المملوكى مائة وثمانون ألف فارس(٣).

(١) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

بل أكثر من هذا انه قد قامت لهم دويلات فى آسيا الصغرى وأرمينية وبلاد النهرين على الحدود الشمالية بين العثمانيين والمماليك لكنهم كانوا يتعاطفون مع المماليك ومن المؤكد أن أقوى دول التركمان بين المماليك والعثمانيين كانت فى دولة المماليك، لأنهم حماة الخلافة ويقومون فى مراكز الإسلام الكبرى.

ومن التركمان، القره قيونلى (القطيع الأسود) والاق قيونلى (القطيع الأبيض) وكانوا أقوى جماعتين فى غربى فارس وشماليها الغربى. وفى وسط فارس وجنوبيها فيما بعد. وقبائل القطيع الأبيض والقطيع الأسود هم الذين نجحوا فى توكيد سلطان القبائل التركمانية. (كانوا قبل هذا الوقت قد أنسوا بالإسلام أجيالاً) (١).

وكانوا سندا لتركمان الشام وغيرهم. فقد كانت سياسة التركمان عامة سواء كانوا فى دويلاتهم أو فى الشام، تارة يخضعون للماليك وتارة يعلنون العصيان ويهاجمون الحدود. وهذا كان نادرا. فقد حارب بنو رمضان جيش تيمورلنك عام ١٤٠٣/٨٠٣ وطردهم من حلب ثم بعثوا الى السلطان المملوكى الناصر فرج بذلك (٢). كذلك ذكر ابن اياس بنى الغادر وأميرهم سليمان بن محمد بن قراجا، أنه كان من خيار التراكمة (٣) الذين يتعاطفون مع المماليك.

وعلى العكس فإنه فى عهد الأشرف قايتباى (٨٧٣ - ١٤٦٨/٩٠١ - ١٤٩٦) خرج عليه شاه سوار حاكم الابلسيتين التركمانى (٤)، فى شمال الشام،

(١) دائرة المعارف الإسلامية، ابراهيم خورشيد مجلد ٥، ص ٣٢٧.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ٣، ص ٢٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٩٦.

(٤) ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج ١، لبيزج، سنة ١٨٦٦.

وبلغ مقدار ما أنفقه السلطان على الحملات العسكرية ضد شاه سوار أكثر من ثلاثين ألف دينار<sup>(١)</sup>. للقضاء على ثورته ولكن دون جدوى، ولما قوى أمر سوار، إتجه الى عينتاب إحدى توابع حلب في شمال الشام، وحاصر قلعتها واستولى عليها، إلا أن ابن رمضان أمير التركمان تصدى لأعدوان سوار وحاربهم واستولى منهم على قلعة سيس<sup>(٢)</sup> وهى من أعمال حلب في شمال الشام<sup>(٣)</sup>.

ثم حاول سوار أن يفاوض السلطان قايتباى على أن يجعله أميراً على مدينة الأبلستين في شمال الشام وأن ينعم عليه بتقدمة ألف بحلب وهى رتبة عسكرية كبيرة فى الجيش المملوكى<sup>(٤)</sup>. وذلك مقابل أن يسلم سوار عينتاب للسلطان ولكن السلطان قايتباى رفض ذلك وكلف أحد أمراء المماليك وهو يشبك الدوادر لمحاربتهم فحاربهم واستعاد عينتاب من سوار فى عام ١٤٧١/٨٧٦ واستعاد معها أذنه وطرسوس وهما أيضاً فى شمال الشام، ثم طرد جماعة سوار من تلك البلاد<sup>(٥)</sup>. وعين مكانة شاه بضاع أخى سوار (عوضاً عن أخية فى امرية الأبلستين)<sup>(٦)</sup>. وبذلك تم القضاء على ثورة شاه سوار أمير بنى دلغادر فى عهد السلطان قايتباى.

كذلك كان من سكان الشام، بجوار العرب، الأكراد، منهم طائفة تتميز عنصرياً مثل التركمان فى الشام. وينسب الأكراد الى إقليم كردستان فى شمال

(١) ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج١، بليزج سنة ١٨٦٦، ص ٣٩٨، ٤١٦.

(٢) خليل بن شاهين.

(٣) زبدة كشف الممالك، ص ٥٥.

(٤) زبدة كشف الممالك، ص ٥٥.

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٢٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٣٧.

العراق. والكردي نسبة الى كردستان(١). فقد ظهر الأكراد في الشام في عصر الدولة النورية أيام نور الدين زنكي السلجوقي في الشام(٥٢٢-٥٦٩/١١٢٨ - ١١٧٣)، وفي عصر الأيوبيين من بعدهم، وسكنوا في شمال حلب وفي الجهات الساحلية من لبنان. وكان عدد الأكراد كبيرا في هذين العصرين، وإستخدموا في الجيش الأيوبي ومن بعده المملوكي، (واستعربوا إلا قليلا)(٢). لأنه كان لهم كيانهم اللغوي الجنسي، ويطمحون منذ وجودهم في قيام كيان خاص لهم. وهم كانوا طوائف منهم، الأكراد المهرانية الذين إشتراكوا في الصراعات الداخلية بين الأمراء الأيوبيين في عصر خلفاء صلاح الدين(٣). وفي عصر سلاطين المماليك، كان عدد الأكراد في الجيش المملوكي، يزيد عن عشرين ألف جندي(٤). وقد ورد ذكر عددهم بمناسبة ظهور تهديدات من بعض الدول المجاورة فأوعز بعض أمراء المماليك الى السلطان بكتابة جريدة بها أعداد فرق الجيش من العناصر المختلفة ومنهم الأكراد. وفي عهد المنصور قلاوون شاركوا في الدفاع عن الشام، في معركة حمص عام ١٢٨١/٦٨٠ ضد التتار، وفي هذه المعركة إنهزم المغول وانتصر المسلمون(٥).

وكان للأكراد دور في ثورة جان بردي الغزالي نائب الشام على العثمانيين في ١٥٢٠/٩٢٦ حين أعلن نفسه سلطانا على الشام، وخطب بأسمه

(١) السيوطي لب اللباب، ص ١١، ط.بريل، سنة ١٨٥١.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٦، ص٥٨٧، محمد كرد علي، خطط الشام، ج٩، ص٦٩

(٣) المقرئزي، السلوك، ج١ ق١، ص١٢٥.

(٤) خليل بن شاهين، زبدة كشف المماليك، ص ١٠٥.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج١ ق٣، ص ٦٩٣.

على منابر دمشق، وضربت السكة بإسمه على الذهب والفضة وتلقب بالملك الأشرف صاحب الفتوحات. ثم إجتمع الكثير من الأكراد والعرب، مما يبين أنهم أصبحوا جزءاً أساسياً من أهل الشام فى عصر المماليك، مع جان بردى نائب الشام للتوجه الى مصر وتولى عرش السلطنة بها، إلا أن العثمانيين لم يمهلوه، ونجحوا فى احباط محاولته فى عام ١٥٢١/٩٢٧(١).

وربما كادت تظهر دولة للأكراد فى الشام من جديد نتيجة لثورة جان بردى الغزالى نائب الشام، إذ كانوا أكبر المؤيدين له، ومع ذلك فلا يبدو أن الأكراد يجبون ترك أوطانهم بدليل أنهم فى عهد صلاح الدين لم يهاجروا من بلادهم كردستان فى نواحى شمال العراق بجماعات كبيرة وإنما كانوا يهاجرون بجماعات قليلة الى الشام، للعمل بالجندية فيها فى أيام المماليك.

والخلاصة أن سكان الشام يتكونون من عرب الجنوب أساساً ومن نسل عرب الشمال، ومن أفراد القبائل العربية التى هاجرت الى الشام طلباً للرزق، ومن العصبيات العنصرية من مارون وتركمان وأكراد وأرمن.

أما إذا تناولنا أحوال الشام الدينية والمذهبية فإن أغلبيتها كان من المسلمين، ولكن طوال الحكم الإسلامى كان يوجد أهل الذمة، وهم أهل الكتاب وهم الأقلية. فإذا كانت القبائل العربية قبل الفتح أغلبها من النصارى حتى سموا بالعرب المنتصرة فإن أغلب مذهب المسلمين كان السنة.

وأهل السنة هم المتمسكون بسنة النبى، ذلك لأن أغلب القبائل وعامة أهل الشام، كانوا على المذهب السنى. وكان علماء السنة يرون أن الذى يحدد سلوك المسلمين اثنان لاتالث لهما، هما الكتاب والسنة، وذلك أن الله أنزل الآية

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص٢٠٨، ١٢١٣، ١٢١٧.



التي تدل على تمام نعمة الله على المسلمين، وإنه تعالى رضى بالإسلام للمسلمين ديناً<sup>(١)</sup>. فقد كان أحوال نقلة الحديث من عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفين عادة عند عامة المسلمين فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام ومصر فالجميع معروفون في كل عصر تواجدوا هم فيه<sup>(٢)</sup>. فأخذ مالك والشافعي بالحديث والسنة، وانتشر في الحجاز ومصر والمغرب وأبو حنيفة بالرأى والقياس وهو الفقه وانتشر بالعراق وابن حنبل أخذ السنة أو الحديث، وأكثره بالشام والعراق<sup>(٣)</sup>.

فأول مظهر لمذهب مالك السني بالشام كان عن طريق محدث إسمه مكحول الشامي الذي كان من أهل الشام وأخذ عنه وعرف بمكحول الشامي. فهو مكحول بن عبد الله الشامي (ت ١١٨/٧٣١)، وهو من الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام، وأصل مكحول أفغانى من كابل ولدبها. (وكان في لسانه عجمة ظاهرة، ويبدل بعض الحروف بغيره، سنل مرة عن القدر فقال أساهر أنا يقصد أساحر أنا، لأنه كان ينطبق الحاء هاء)<sup>(٤)</sup>. وكان مقيم بمصر، فالتقى بعلمائها وأخذ من علمهم ما استطاع الى ذلك سبيلا، قال، (فما خرجت من مصر حتى ظننت أنه ليس بها علم إلا سمعته)<sup>(٥)</sup>. ثم سافر الى المدينة وأخذ من علمائها مثل أنس بن مالك، ثم من الشعبي وكلاهما من التابعين، وقد ذكر ابن خلكان مكحول هذا فقال عنه (كان مقامه بدمشق، ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا)<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ٢٦٢.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٤١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٨.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص ١٨٠.

(٥) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١، ص ٢٧٢، دار الكتب، سنة ١٩٢٩.

(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص ١٨٠.

وكان مكحول الشامي يدعو الناس الى الطهارة والتطبيب فمن أقواله، أن من نظف ثوبه قل همه ومن طاب ريحه، زيد في عقله(١).

وبعد مكحول نذكر الأوزاعي، الذي تتلمذ عليه، وأخذ عنه، وظهر له مذهب خاص عرف بالأوزاعية، الذي أصبح من أوائل مذاهب الشام كقطر مستقل. فهو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي نسبة الى الأوزاع، بطن من همدان عرب الجنوب، ولد في بعلبك عام ٧٥٧/٨٨ ونشأ بالبقيع، ثم إنتقل الى دمشق وبيروت وعاش فيهما. ورحل في طلب العلم الى بلاد الحجاز والعراق وعاد الى الشام ودخل دمشق، ثم رحل عنها الى بيروت وتوفى بها(ت١٥٧/٧٧٤)(٢).

أما مذهب الأوزاعي، فهو يميل الى مدرسة الحديث، مذهب الامام مالك، وقد روى الأوزاعي عن التابعين مثل نمير بن قيس (ت ١٢٨/٧٤٥) الذي ولى قضاء دمشق في عهد هشام بن عبدالملك ومثل قتادة بن دعامة السدوسي، وهو أحد علماء التابعين، الذي روى عن الامام مالك(٣).

ونذكر الأوزاعي أن أحد الولاة باليمامة بأرض الحجاز كان يمتحن أصحاب رسول الله، ويفرض عليهم أن يسموا المسمى مناقفا وليس بمؤمن، فوافقوه، فذكر الأوزاعي ذلك لعطاء - أحد علماء الصوفية - فقال عطاء، ما أرى في ذلك بأسا، وتلى قوله تعالى (الا أن نتقوا منهم تقاة)(٤).

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ٣٠٥.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص ١٨٠.

Encyclopadia of Islam, V.I, A.B., P. 772

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ٣٢٩.

(٤) المصدر نفسه، (آل عمران، آية ٢٨).

والأوزاعي (هو الامام الاكبر للمدرسة الشامية القديمة فى الشريعة)(١).  
وساد ببلاد الشام، ثم امتد الى بلاد المغرب وحتى الاندلس، وسبق فيهما مذهب  
مالك، الذى بدأ ظهوره فى المغرب حوال منتصف القرن الثالث للهجرة (التاسع  
الميلادى). وفى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) انتشر  
مذهب مالك فى بلاد الشام أيضا.

ثم نذكر من بعدهما، سفيان الثورى، (ت ٧٧٧/١٦١) وهو سفيان بن  
سعيد الثورى من العدنانية عرب الشمال. (كان فى زمانه رأس الناس)(٢). ومن  
أقوال سفيان الثورى أن (الغنى والعز يجولان فى قلب المؤمن، فاذا وصلا على  
مكان فيه التوكل أو طناه)(٣). وكان سفيان اماما فى علم الحديث، وغيره من  
العلوم الدينية، وكان ثقة وشهد له أهل الشام على ورعه وزهده(٤). وللثورى  
مذاهب فى الفقه أخذ بها أهل الشام فترة، الا أن مذهب الاوزاعي والثورى،  
وان كانا قد ذاعا منذ أيام العباسيين الا أنه قد شاركهما مذاهب أهل السنة  
المشهوره التى ذاعت فى الشام وغطت عليها بحيث انقرضتا ولم يصمدا،  
أمامهما نذكر منها مذهب مالك امام أهل الحجاز (ت ٧٩٥/١٧٩)، وله كتاب  
(الموطأ) فى أصول الأحكام والفقه والأحاديث وأسانيدها.

وأبوحنيفة النعمان (ت ٧٦٧/١٥٠). امام أهل العراق والشافعى (ت  
٨٢٠/٢٠٤) الذى انتشر مذهبه بمصر أولا ثم بالشام، وكثر تابعوه فيها،  
وللشافعى كتاب (الام) دون فيه أصول الفقه، والأوامر والنواهى، والخبر  
والنسخ، وحكم العلة المنصوصة من القياس(٥).

(١) دائرة المعارف الاسلامية، ابراهيم خورشيد، مجلد ٥، ص ٢٠٦.  
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٩٦.  
(٣) ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٣١١.  
(٤) المصدر نفسه  
(٥) ابن خلدون، المقدمة، الفصل السابع من الباب السادس فى علم الفقه، ص ٤٤٨،  
سيدة اسماعيل الكاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ١٨٠. ط. القاهرة ١٩٤٧.

والامام بن حنبل (ت ٢٤١/٨٥٥)، وهو أحمد بن محمد بن حنبل من ربيعة عرب الشمال. ولد فى بغداد عام ١٦٤/٧٨٠، ومات أبوه وهو ابن ثلاث سنين وقد انتشر مذهبه بالشام. وكان أكثر انتشاره بالعراق والشام منذ العصر العباسى. وأسباب ظهور مذهب ابن حنبل عند أهل الشام أكثر من غيره لانتشار تلاميذه فى الشام أكثر من أى مذهب آخر ولأنهم فى مواقفهم فى الأحكام لصالح جمهور أهل الشام فى مواجهة الحكام، وأشهرهم بالشام محبى الدين النووى وعز الدين بن عبدالسلام (١).

وأخذ ابن حنبل عن الشافعى (جملة من كلامه فى أنساب قريش (٢)، أخذ عنه من الفقه ما هو مشهور) (٣).

- 
- (١) ابن خلدون، المقدمة، الفصل السابع من الباب السادس، ص ٤٤٩.
- (٢) علم الأنساب من الأمور المطلوبة للأحكام الشرعية، مثل العلم بنسب النبى وهو النبى القرشى الهاشمى، ولا بد لكل مسلم من معرفة نسب النبى. ومثل التعارف بين الناس فلا ينسب أحد الى غير آباءه وأجداده، ويترتب على النسب أحكام الورثة، ومنها اعتبار النسب فى الخلافة على كون الخليفة أو الامام قرشياً. (القلقشندي، نهاية الارب، ص ٦).
- وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته ان المسلمين عدول بعضهم على بعض الاقلنا فى نسب فسوى بذلك بين المسلمين المشهود لهم بصحة نسبهم دون المشكوك فى نسبهم فاتهم ليسوا بعدول لهم، كذلك كان الخلفاء لا يولون منصب القضاء الا من كان من اهل عصبتهم بالنسب. (ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٢١) ط. المكتبة التجارية، وكان للمسلمين اهتمام بأل البيت النبوى خاصة، فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) اختص أهل بيت النبى من العلويين والجعفرين والعباسيين من دون سائر المسلمين بلقب "الشريف" (البلانرى، انساب الاشراف، ص ١٨ تحقيق محمد حميد الدين، ط. القاهرة ١٩٠٠، وفى عهد السلطان المملوكى الاشراف شعبان (٧٦٤-٧٧٨/١٣٦٢-١٣٧٦) اختص الاشراف قاطبة بعلامات مميزة بأن جعلوا فى عمامهم شظفات خضر تميزا لهم عن غيرهم وتعظيما لقرهم (ابن اياس، بدائع، ج ٢، ص ٢٠٢).
- (٣) ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٣٢٦.

وكان أهل الشام هم أكثر الآخذين من مذهب ابن حنبل، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث لتقاليد مذهبية سابقة في التمسك بهما. ومذهب ابن حنبل هو الذى صار أكثر انتشاراً بين أهل الشام من السنة.

ولكن منذ الأيوبيين، بدأ مذهب الشافعى ينتشر فى الشام. والسبب أن الشام كانت خاضعة للأيوبيين وسلطانهم فى مصر، حيث كان الشافعى ورد مصر وخص أهل مصر بمذهبه وأخذ به الأيوبيون.

وكان الوضع فى مصر الأيوبية أن يكون قاضى القضاة شافعياً. وصار فقه الشافعى فى الشام الى أحسن ما كان والعمل به مثلما فى مصر<sup>(١)</sup>. وكان ذلك تمثياً مع مذهب المصريين بعد القضاء على الخلافة الشيعية فى مصر فأصبح الأيوبيون يروجون للمذهب الشافعى وهو مذهب الحكم فى مصر.

وفى بداية العصر المملوكى فان المذهب الشافعى استمر فى الشام. ولاتنسى أن العز بن عبدالسلام، شيخ الشافعية بمصر، وهو الذى أقتى السلطان قطز، بجباية الأموال من أهل مصر لصد عدوان التتار على بلاد الشام<sup>(٢)</sup>.

ولكن فى عهد السلطان الظاهر بيبرس الذى أتى بعد المظفر قطز، كان بدء الأخذ بأحكام الأئمة الأربعة، وسبب ذلك أن الظاهر بيبرس اختلف مع قاضى القضاة الشافعى عبدالوهاب بن بنت الأعز، لتوقفه فى تنفيذ الأحكام، وكثرة الشكاوى منه بسبب ذلك. فأصدر السلطان أمراً بتعيين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، وصرح لهم أن يعينوا نواباً عنهم فى أنحاء البلاد<sup>(٣)</sup>. لأن

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٤٨ ، ط. التجارية، طبعة القاهرة، ١٩٦٠.

(٢) محمد أبو زهرة، ابن تيمية حياته وعصره، القاهرة ١٣٠٥، ص ١٧.

(٣) محمد أبو زهرة، ابن تيمية حياته وعصره، دار الفكر العربى ، ص ١٣٧.

المذهب كان كل شئ فى الدولة فى العصور الوسطى فانه أراد أن يوزع سلطة الحل والعقد بين عدة مذاهب ولاسيما أن المذهب الشافعى كان يمثل القومية المصرية فأراد أن يجعل سلطانه عليها. ومع وجود المذاهب الأربعة فى مصر والشام فان مذهب الحنابلة تميز بدور نشط فى بلاد الشام، بسبب فقائه المشهورين، مثل ابن تيمية المتشددين فى الدين.

وقد رتب المؤرخ خليل بن شاهين القضاة فى ذلك العصر المملوكى. حسب منزلتهم، فوضع الشافعى فى المقدمة، يليه الحنفى ثم المالكى فالحنبلية (١). وكان للحنابلة دور نشط فى بلاد الشام، وكان على رأسهم أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية (٢). (ت ١٣٢٧/٧٢٨) شيخ الحنابلة فى نصره المماليك، حماة الدولة الإسلامية، القائمى على نصره الإسلام، والدفاع عن المسلمين، فكان ابن تيمية مع المقاتلين ويحمل معهم السلاح.

---

(١) خليل بن شاهين، زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك، ص ٩٢، عبد الوهاب الشعراوى، الطبقات الكبرى، ص ١٧، القاهرة ١٣٠٥، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٦٤ ص ٨٨.

(٢) ابن تيمية: هو أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام شيخ الإسلام، ولد بحران شمال الشام عام ١٢٦٢/٦٦١، وابتقل الى دمشق وتعلم الفقه ووقاعه، وكان من أمة الفقه، اشتهر بقول الحق والنهى عن المنكر، وبلغت مؤلفاته فى مختلف الفنون والفتاوى الدينية ٣٣٠ مجلدا (ابن شاکر الكئبى، فوات الوفيات، ت. ١، ص ١١٠) منها كتاب (السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية)، وكتاب (مجموعة الرسائل الكبرى).

وكان يرى الأغضاء عن هتات المماليك ومعاضدتهم إستنادا على رأى الإمام أحمد بن حنبل، عندما سئل عن قائدين، أحدهما صالح ضعيف، الآخر فاسد قوى، مع أى القائدين يقاتل المؤمن المقاتل؟ فقال مع القوى دون الضعيف، لأن القوى قوته للمؤمنين، وفسقه على نفسه والصالح ضعفه على المؤمنين وصلاحه لنفسه. وقد توارث الحنابلة فى بلاد الشام، جواب الإمام أحمد هذا وكانوا عونا للماليك ونصرتهم ضد التتار. فكان ذلك يؤيد نفوذ المماليك فى الشام(١).

وقد سجل مؤرخو المسلمين من أهل السنة حوليات دونوا بها أسماء لعلماء السنة بما فيهم الشام، مثل ابن كثير (ت ٧٧٢/١٣٧٠) فى كتابه (البداية والنهاية) الذى دون فيه الآراء الفقهية لعلماء السنة فى الشام ومصر، فدون لعلماء الشام أمثال مكحول والأوزاعى والثورى وغيرهم من فقهاء الشام وأئمته(٢). وفى مختلف الأقطار العربية والإسلامية. مثل كتاب (طبقات الشافعية) الذى ألفه عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي والسبكي وهو وان كان مصريا إلا أنه تكلم عن طبقاتهم، وأثر شافعى الشام فى نشر هذا المذهب مثل شافعى مصر، وذلك عن طريق الرحلة، بصفة خاصة فذكر جماعة من علماء الشام الذين هاجروا الى بلاد الإسلام الأخرى مثل على بن محمد الإنطاكى، الذى ولد بأنطاكية عام ٢٩٩/٩١١ ودرس الفقه والقراءات والحساب. ثم رحل الى بلاد الأندلس ينشر العلم بين أهله وعشيرته من أهل الإسلام هناك.

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٢٦.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٣، ٣٢٩.

والخلاصة أن المذاهب السنية هي التي إنتشرت بأغلبية في الشام، لا يستطيع أن نقول أن واحد منها بد عن الآخر وأن كان الشافعي وابن حنبل خاصة تبادلوا الإنتشار فالشافعي في الأيوبيين وبداية المماليك وابن حنبل بعد ذلك في عهد المماليك.

كذلك وجدت أقليات اعتقدت مذاهب أخرى كانت تمثل تجمعات بشرية لا تتميز بصفة قبلية وإنما بصفة طائفية ومن هؤلاء.

الشيعة بمعنى الذين شايعوا عليا بن أبي طالب، أمير المؤمنين، وقالوا بامامته وخلافته، وأن الأمامة لا تخرج عنه وعن بنية، إلا بظلم، وأن عليا وذريته أحق الناس بالخلافة ويجمعهم القول بوجود التعيين للأمام بالنص عليه ممن قبله، وثبوت العصمة للأئمة عن الكبائر والصغائر، ويجمع الشيعة حب علي، ويختلفون فيمن سواه(١).

ومن الشيعة من يرى أن الإمام في الكمالات، وهي الصفات الروحانية، دون النبي وفوق البشر(٢). وهم يعتبرون "الأمامة" ركنا من أركان الإيمان. ومن

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٢٦.

(٢) محمد الحسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، صيدا سنة ١٩٣٦، ص٩٣، ٩٧.



الملاحظ أن الباطنية<sup>(١)</sup> التي هي أساس الدعوة لطوائف الشيعة، وقد لزمهم هذا اللقب "الباطنية" لقولهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا<sup>(٢)</sup> والمقصود بكل هذا هو القرآن الكريم والحديث فهو أشبه بالتفسير عند السنة وبالفتنة. وقد دعوا الناس الى امام فى كل زمان يعرف موازنات العلوم الدينية والمذهبية الشيعية، يهتدى الى مدارجها<sup>(٣)</sup>.

وهم فرق متعددة منها فرقة أولاد الحسن لأنه أكبر أولاد على وفرقة سلسلتها فى أولاد الحسين لأن الحسن قد سلم الخلافة لمعاوية فأضاع حق أولاده.

(١) قام بالدعوة القريظية، دعاة للمهدى من أهل البيت بدون تحديد لشخصية هذا المهدي، وقام بهذه الدعوة رجلين زكرويه بن مهروية، وهو الذى إنتهى اليه دعواتهم بسواد الكوفة عام ٢٧٨/٨٩١ ثم العراق والشام، ولقب الداعي للمهدى بقرمط (وشغل الناس به شؤونهم وحبسه عامل الناحية ففر من حبسه ولم يوقف له على خير) ولم يتم لهم دولة (ابن خلدون، العبر، ج٤، ص ١٨١) والحسن بن بهرام القرمطى المعروف بالأعصم (الأعظم) كانت دعوته بالبحرين وقامت لهم دولة بها وإستقروا هناك وكانت تربطهم بالفاطمية بالمغرب علاقات. ولما سار الفاطميون الى القاهرة وبعثوا بجيوشهم الى الشام، وإستولوا عليه وقطعوا ما كان يؤديه الإخشيديون للقرامطة فنهض القرامطة لمحاربة الفاطميين وتغلبوا عليهم وطردهم من الشام وتبعوهم الى مصر، ثم إنتهى الأمر بهزيمة القرامطة وإسحابهم الى الشام. وفيما مات القرامطة الى الأحساء بالبحرين ثم تلاشت دعوتهم وتفرقوا. (ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٥٤، ابن خلدون العبر، ج٤، ص ١٨١، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٤، ص ٧٤، عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٠٩،

Ency, Ist art Hilal, t. 2. P. 325 savlain t 4, P. 542

(٢) الشهر ستانى، الملل والنحل، ص ١٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

وفرقة جعلتها في محمد بن علي من غير فاطمة (محمد بن الحنفية) الابن الثالث لان الحق آل اليه بعد وفاة أبيه وأخويه (١). ففي مقدمتهم في الشام الشيعة الاسماعيلية (٢)، وهم غالبية الشيعة في الشام. وهم القائلون بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق، وأن الامامة انتقلت اليه بعد أبيه، وهو التسلسل الذي نشأ منه الخلفاء الفاطميون في المغرب ومصر الى الخليفة المستنصر بالله. ثم انتقلت الامامة الى المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧/١٠٣٦/١٠٩٤) وهو الخامس من خلفاء الفاطميين في مصر وهو الثامن من أول نشأة الخلافة الفاطمية.

كذلك نذكر أن أصل هذه الفرقة من أصل قرامطة البحرين ومنهم القرامطة الذين كانوا والفاطميون فرقة واحدة أول الامر قبل الانشقاق في عهد المعز، فأرادوا أن يستأثروا بالشام من دون الفاطميين فهاجروا فيه وانتقلوا بقبائلهم اليهم وزعيمهم الحسن بن بهرام القرمطي (٣).

وبعد موت الخليفة المستنصر بالله الفاطمي عام ١٠٩٤/٤٨٧ انقسم الفاطميون على أنفسهم لتسمين، هما النزارية أنصار نزار بن المستنصر الاكبر، والمستعلوية أنصار المستعلي بن المستنصر الأصغر، وقيل أن الزعيم الفارسي الحسن بن الصباح (ت ١١٢٤/١٨٥) طلب من المستنصر

(١) احمد أمين، ضحى الاسلام، ج٣، ص ٢٠٨، القاهرة ١٩٤٩.

(٢) الشيعة الاسماعيلية فرقة من الشيعة، وقد عرفوا بهذا الاسم لأنهم اعتبروا الامامة منتهية عند اسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى ١٤٣/٧٦٠). المقرئزي، السلوك، ج١، ق ٢، ص ٢٢٧.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٥٤.

أن ينص على خلافة الامامه فأفهمه الخليفة بأن نزار سيكون ولي عهده ولكن بعد موت المستنصر تولى الخلافة ابنه المستعلى ولقب أبو القاسم أحمد (٤٨٧-٤٩٥/١٠٩٤-١١٠٢) وتمسك الحسن بن الصباح وأتباعه بامامة نزار- الذى لقب بالمصطفى لدين الله - وفاء لعهد المستنصر. فصارت الاسماعيلية الفارسية التى ببلاد المشرق (بأصبهان) تأخذ بمذهب النزارية، ونزار هو الأكبر وهو جد أصحاب الدعوة بقلعة الموت<sup>(١)</sup>، دعوة ابن الصباح الذى مالبت أن انفصل عن الخلافة الفاطمية وأصبح له مذهب جديد (الدعوة الجديدة) وهو الذى أطلق مذهب الاسماعيلية رجوعا للأساس لمذهب الشيعة وكون ابن الصباح فرعا بالشام ضد المستعلوية.

وعلى العكس فان غالبية الشيعة الذين هم بالشام فى أيام الفاطميين فانهم أخذوا بمذهب المستعلوية، ومما يؤيد صحة ذلك ما ذكره المؤرخون المعاصرون من أن الخليفة الفاطمى المستعلى بحث بكتاب الى رضوان بن تتش السلجوقى فى عام ١٠٩٥/٤٨٩ بالدخول فى الطاعة، فاستجاب رضوان وأعلن الخطبة لنفسه وللمستعلى فى حلب ودمشق<sup>(٢)</sup>، وقد ذكر القلقشندى فى كتابه (صبح الاعشى) أن المستعلوية أنكروا امامة نزار بن المستنصر وقالوا بأن الحق فى الامامة والخلافة للمستعلى بالله، وأن من الضلال اتباع الحسن بن الصباح

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان ، ج١، ص ٨٠،

Ency Isl, V. 3 L.R. p. 941

(٢) أبو الفداء اسماعيل، تاريخ أبو الفداء، ج٢، ص ٢٢٠، ابن خلدون، العبر، ج٤، ص

١٤٠، ابن تفرى بردى، النجوم الزاهرة ، ج٥، ص ١٥٨.

داعية نزار. وأخذت الشيعة الذين هم بالشام بقلاص الاسماعيلية بمذهب المستعلوية (وصاروا شيعة لمن بعد المستعلى من خلفاء الفاطميين واشتهروا باسم الفداوية)<sup>(١)</sup>، لأنهم منذ الحسن بن الصباح وهذا أصبح اسما لهم. وهذا أمر طبيعي يبين وحدة القطرين، مصر والشام فظهر حتى في المذهب الشيعي لأن المستعلوية هي التي سادت مصر<sup>(٢)</sup>.

وماورد هنا من أن إسماعيلية الشام هم الإسماعيلية المستعلوية منقول عن كتاب (صبح الأعشى) للقلقشندی، وهذا بخلاف ما ذكرته بعض المراجع الحديثة التي تقول بأن إسماعيلية الشام هم (الإسماعيلية النزارية)<sup>(٣)</sup>.

وهكذا كانت امامة المستعلى معترفا بها من الاسماعيلية في مصر والشام، باستثناء الاسماعيلية الفارسية التي لم تعترف بالا بامامة نزار<sup>(٤)</sup>.  
ويبدو أن التشيع في الشام قد أصبح من الضرورة أن يتميزا ويعادى التشيع الذي كان في مصر، فالقراطة كانوا يخالفون الفاطميين في الشام وهذا هو السبب في انقسام التشيع دلالة على أن للشام رغبة في أن يكون له ذاتيته. فلعل التشيع وضع بذوره منذ ذلك الوقت.

(١) القلقشندی، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٤٥.

(٢) ابن خلدون، العبر، المجلد ٤، ص ١٣٩، ط. بيروت ١٩٦٨.

(٣) انظر (العدوان الصليبي على بلاد اشام)، لمؤلفه جوزيف نسيم يوسف، ط. ثالثة الإسكندرية ١٩٧١، ص ٢٢٦.

Encyclopadia of Islam, t. 3, L-R, P. 767

(٤)

وبعد موت رضوان حاكم حلب السلجوقي عام ١١١٣/٥٠٧ تعرض الاسماعيلية لسوء المعاملة لمنعهم من نشر دعوتهم في حلب، ولكن لم يلبث أن ظهر داعية فارسي آخر قدم من بغداد يدعى بهرام (١) استطاع أن يستميل أنصارا كثيرين خلال عدة أعوام قليلة. واستطاع أن يحتل بانياس عام ١١٢٦/٥٢٠ ثم انتشرت الدعوة في دمشق وملكوا عدة حصون في الجبال عرفت بقلاع الدعوة. منها القدموس في عام ١١٣٠/٥٢٥ (٢)، والخوابي والكهف عام ١١٣٧/٥٢٣ ومصياف عام ١١٤٠/٥٣٥ والمنيقة عام ١١٥١/٥٤٦ (٣). وصار مقرهم في نواحي طرابلس التي أهم مدنها، صهيون والمرقب، وحصن الأكراد وقدموس حتى عصر صلاح الدين.

وقد حاصر صلاح الدين الاسماعيلية في مصياف (٤) عام ١١٧٦/٥٧٢ (ليقاتهم بما فعلوه من الوثوب عليه واردة قتله) (٥) لاختلاف المذهب والمنافسة

---

(١) وهو داعية فارسي غير بهرام القرمطي الذي ظهر في بدء الدعوة القرمطية في أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).

(٢) ابن خلدون، العبر، المجلد ٤، ص ٢٠٦، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٤٥، عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، ص ٢٣٧، ط. اسكندرية ١٩٦٧، ص ٢٣٧.

(٣) ابن خلدون، العبر، المجلد ٥، ص ٨٤٥، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٤٥، محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٢، ص ٣، ١٣.

(٤) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٢٠٧، ومصياف، هي احدى حصون الاسماعيلية بالشام، وتقع على الساحل قرب طرابلس (المقریزی، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٢).

(٥) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ١٣٩، أبو شامة، الروضتين، ص ٢٥٨ وما بعدها.

فى الحكم، وهذا يعنى أن الشام يريد ذاتيته، ثم عاد وانصرف عنهم بعد تدخل شهاب الدين خال صلاح الدين فى الصلح بينهم، وظلوا بقلاعهم بأعمال طرابلس(١).

وقد أورد لنا ابن بطوطة - ت ١٣٧٧/٧٧٩ كثيرا من المعلومات عن حصون الفداوية فى الشام وأحوالها فى أيام المماليك - الذى رحل إلى الشام ومر بحصون الفداوية وهى : القصر، واشغر بكاس، وصهيون والقدموس والمنيقة والعليقة ومصيف والكهف. وذكر أن هذه الحصون لطائفة الاسماعيلية. وهم أيضا الفداوية. وذكر أنه لا يدخل حصونهم غيرهم وأنهم فى عهد الملك الناصر الايوبى ٦٤٨-٦٥٩ (١٢٥٠-١٢٦٠) كانوا يحصلون على مرتبات نظير قيامهم باغتيال أعدائه، فضلا عن أن من يقوم بمهمة فداوية يكلفه بها السلطان يحصل على دية مقدما، فان سلم فاليه له، وأن أصيب فهى لولده. وأنهم كانوا يحملون سكاكين مسمومة لقتل من كلفوا بقتله(٢).

ومتلما فعل صلاح الدين فى أيام الأيوبيين بتأديب الفداوية، فعل الظاهر بيبرس فى أيام المماليك نفس الشئ وهو تأديب الفداوية ولكن المماليك تمكنوا أكثر من الأيوبيين من بسط سلطانهم على الفداوية وإخضاعهم للسلطة المركزية فى مصر، مما يدل على بقائهم الى زمن المماليك، فقد ذكر ابن بطوطة حصون بإسمها بعضها قد إختفى. الآن من خريطة الشام الحالية فى عصرنا وهى حصون مصيف والكهف والقدموس والعليقة والمنيقة وغيرها.

وفرض المماليك جزية عليهم يدفعونها بلغت مائة ألف درهم وقد سميت فى عهد المماليك جزية، مع أن الجزية خاصة بأهل الذمة، يدفعونها لحمايتهم(٣).

(١) المصدر نفسه، القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٣، ص ٢٤٥.

(٢) ابن بطوطة، تحفة النظر فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار، ص ٥٦.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، إبراهيم خورشيد، مجلد ٦، ص ٤٥٤.

وبقى إسمها كما هي بسبب أنهم كانوا ملتزمين بها لدى الصليبيين، وتحولت هذه القلاع الفداوية الى قلاع تخدم نيابات الشام التي ورد ذكرها في التقسيم الإداري أيام المماليك. ومنذ ذلك الحين، صارت الإسماعيلية في الشام شعبة لمصر المملوكية(١).

وهم أيضا الحشيشية، وهم فرعا من الإسماعيلية النزارية الشرقية ويسمون أيضا الفداوية، اللذين لعبوا دورا مهما في الحروب الصليبية، حيث كانوا يحتلون الحصون الجبلية في الشام. وقد عرفت هذه الجماعة بإسم الحشاشين. والأرجح أن هذا الإسم أطلقه عليهم الأعداء لأن مؤسس هذه الفرقة (الجمن ابن الصباح كان رجلا شهما كافيا عالما بالهندسة والحساب والنجوم)(٢). وكان أيضا متشددا في تحريم الخمر وغيرها من المفاسد فكيف يسمح لأعضاء فرقة بتعاطي الحشيش(٣). وقد سماهم ابن خلكان بإسم الفداوية(٤). وأهم ما يميزهم أنهم (جماعة سرية يطيع أفرادها أئمتهم طاعة عمياء)(٥).

(١) ابن خلدون، العبر، مجلد ٤، ص ٢٠٩، بيروت ١٩٦٨، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٧٩، ج ١٣، ص ٢٤٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٤٩٢.

(٣) ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، ص ٤٢٠.

(٤) الفدائي في نظام جماعة الحشاشين هو الشخص الذي يناط به إغتيال من تقرر الجماعة قتله من أعدائها، ويكون هذا القتل مقابل مبلغ من المال أحيانا، (المقريزي

السوك، ج ١، ق ٣، ص ٢٧٧، Ency., Isl., Art, Fidai

(٥) المقريزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٧٧، دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٧، ص ٤٣٤.

وقد تمكن الحشيشية في عهد الأمير السلجوقي، رضوان بن تنش الذي اعتنق مذهبهم من تثبيت أقدامهم في حلب لفترة، ثم تمكنوا بقيادة بهرام (١) وهو داعية فارسي حضر من بغداد الى الشام أوائل القرن السادس الهجري (العاشر الميلادي) ليحمل على نشر الدعوة ببلاد الشام، وقد استطاع بهرام وأعوانه من أن يحتلوا بانياس، عام ١١٢٦/٥٢٠. ثم فتحوا بعض الحصون في شمال الشام نواحي طرابلس مثل كهف وقداموس وعليقة والخوابي، وكان على رأسهم شيخ الجبل، ومن أشهر حكامهم، راشد الدين سنان. وكان بقلاع الدعوة في عهد صلاح الدين (٢).

ولما سقطت قلاع الدعوة في يد سلاطين المماليك، صارت الحشيشية (شعبة لمصر وملوكها) (٣) الموحدون (الدروز).

وهم فرقة من الشيعة وهم الدروز، يسمون أنفسهم أصلا الموحدين، وهم مبعثرون في أماكن مختلفة في بلاد الشام وخاصة جبال لبنان وحواران في جنوب دمشق، وعلمهم الأصلي الزراعة واقتناء الأراضي.

وقد كان بدء ظهور الدروز في الشام، في عهد الحاكم الخليفة الفاطمي في مصر (٣٨٦ - ٤١١/٩٩٦ - ١٠٢١) وحسب المذهب الفاطمي الذي ظهر رسميا في مصر فإن الحاكم هو خليفة فاطمي، وفي أوائل القرن الخامس الهجري

(١) وهو غير بهرام القرمطي، الذي ظهر في بدء الدعوة القرمطية في أواخر القرن ٣ هـ (٣٩٩).

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٤٣، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٢، ص١٩٠.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٧٩.



(الحادى عشر الميلادى) وبالذات فى عام ١٠٢١/٤١١ (١) قامت طائفة الدرور وهم من الإسماعيلية.

ومن أشهر دعواتهم محمد بن إسماعيل أنوشتكين الدرزى الذى فسر طبائع وخصال حاشية الحاكم بأوصاف بأنها الإسماعيلية الحقّة التى ذكرت فى التأويل، وإنها هى نفس الامامة التى أوردتها التتزيل، وأن ممثها هو النبى الذى خلع الإمامة على الحاكم بدستور غير طبيعى متلبسا فى العقل الكلى.

ونتيجة لحدوث عدة اضطرابات فى عهد الحاكم، قام الحاكم بتكليف زعيم آخر هو حمزة بن على، ويعتبر حمزة المؤسس الحقيقى لمذهب الدرزية، وإن كان اسمه الذى أطلقه حمزة نفسه مذهب التوحيد. وقد بدأ حمزة رسالته أو ولايته عام ١٠١٧/٤٠٨ فى محيط الدرور، وبعد موت الدرزى فى عام ١٠١٩/٤١٠ حاول حمزة إحتواء جميع الحركة تحت رايته، وكان مذهبه واضحا كالأصل عند مذهب الدرزى، وهو الذى سمي أتباعه من الدرزية "الموحدين". وقد ألف حمزة أنظمة جديدة.

وربما كانت القواعد التى فسرها حمزة من المذهب الشيعى الفاطمى الذى دعى الى تنظيمه قد تطورت فى الشام بظهور أحوال شخصية يتعامل بها أتباعه إذ أنه طالب باستقلال دينى متأسيا بالسنة وبالتأويل الإسماعيلى. وبالرغم من ذلك فإن الدورز قبلوا من المذهب السنى للإمام أبى حنيفة، فى حدود ما سمح به الحاكم مع بعض التعديلات.

---

(١) Sauvaget, Memento chronologique d'his toirs musulmane paris, 195

وقد شارك الدروز في الدفاع عن بلاد الشام. ومن أمثلة ذلك مشاركتهم المماليك في معركة مرج دابق شمال الشام ضد العثمانيين عام ١٥١٦/٩٢٦ (١). وقد أظهروا من الشجاعة والنجدة ما تقر به العيون (٢). وينسب فليب حتى، الدروز الى جماعات عرقية مختلفة من فرس وعرب (٣).

أما شكيب أرسلان فإنه ينسب الدروز الى قبائل بنى معروف من القحطانية عرب الجنوب، وينفى عن الدروز أنهم من أجناس مختلفة، ويرى أنهم من عرب الجنوب لأن في لغتهم إصطلاحات تدل على ذلك (٤). بينما ذكر القلقشندی بنى معروف عند ذكره لبنى المنتفق أنهم من العدنانية (٥). وهذا يعنى أهم عرب خلص وليسوا عناصر وافدة على الشام غريبة عن جنس العرب. ويتصف الدروز بصفات تميزوا بها هي الولاء للجماعة وحب الحرية والإستقلال والصبر على تحمل المكاره والشدائد.

---

Encyclopaedia of Islam, B. Luis and J, Scheht. V.T. C-G. (1)  
London, 1956, p. 630

والمصادر هي : أبو المحاسين بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ابن الجوزى، مرآة الزمان، ابن العديم، تاريخ حلب، التويرى، نهاية الأرب، محمد كامل حسيهن، طائفة الدروز، تاريخها وعقائدها، القاهرة ١٩٦٢، ص ١٦٢.

(٢) محمد كرد على ، خطط الشام/ ج٢، ص ١٤.

(٣) فليب حتى، تاريخ لبنان، ص ٣١٤.

(٤) أحمد الشرباصى، شكيب أرسلان، داعية العروبة والإسلام، ص ٧٩.

(٥) ذكر القلقشندی، أن منازل بنى المنتفق بين البصرة والكوفة والإمارة فى بنى معروف (نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، ص ٢٧٥).

على أن قبائل عربية مثل التتوخيين إنضموا الى الدروز<sup>(١)</sup> وكانت هذه القبائل العربية المقيمة فى جبال لبنان الساحلية حاجزا بين الصليبيين والمسلمين فى دمشق وحلفاء للمسلمين<sup>(٢)</sup>

النصيرية (العلوية) :

وهم من الشيعة الاسماعيلية، سكنت فى شمال لبنان، فى جبل النصيرية، يسمى أيضا الإتصارية، وهو جزء من جبل لنان وتمتد بلاد النصيرية شرقا حتى سهل حماة وحمص وحلب وشمالا حتى أنطاكية. ثم تمتد حتى حدود الأناضول. ويعرف النصيرية (بالعلوية) بينما أسمهم الأصلى (النصيرية)، نسبة الى مؤسس الطائفة النصيرية وهو الفقيه الشيعى محمد بن نصير الذى توفى عام ٨٧٣/٢٦٠<sup>(٣)</sup>.

والنصيرية التى كانت تقيم فى وادى التيم من أعمال بعلبك هى التى قتلت بهرام الداعية الإسماعيلية الذى خرج من بانياس فى عام ١١٢٨/٥٢٢ واتجه بأتباعه الى وادى التيم من أعمال بعلبك وهضبة النصيرية وحاصروهم وقتلهم ولكنهم هزموه وقتل بهرام فى المعركة عام ١١٢٨/٥٢٢ وانسحب أتباعه بعد هزيمتهم الى بانياس<sup>(٤)</sup>.

أما عن أهل الذمة، وهم كانوا قبل الإسلام معظمهم من العرب المنتصرة على عقيدة مذهب مصر اليعقوبى، وهو الذى يؤمن بالطبيعة الواحدة وأقليتهم من الموارنة<sup>(٥)</sup>.

(١) فليب حتى، تاريخ لبنان، ص ٣٢٠.

(٢) محمد كرد على، خطط الشام، ج٢، ص ١٤.

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٢٤٨، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى ج٤، ص ٢٦٥، ط. أولى القاهرة ١٩٦٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٧٩، ابن خلدون، العبر، ج٤، ص ٢٠٦.

(٥) ابن خلدون، العبر، مجلد ٢، ص ٣٠٥.

وكان على أهل الذمة أن يودوا الجزية فيؤمنون على أنفسهم وأسرهم وما لهم، ولكن بعض عرب الشام مثل تغلب (١)، وهم من ربيعة من العدنانية عرب الشمال. (كانت النصرانية غالبية عليهم لمجاورة الروم على حدود الشام) (٢) على المجرى الأدنى لنهر الفرات (٣). كانوا يعقون من الجزية، وأن النبي صلعم نفسه، وضع القواعد لعرب الشام حين توجه الى المدينة وفد من تغلب، وبعضهم مسلمون وبعضهم نصارى، وعقد الرسول للنصارى تغلب صلحا (أبقوا فيه على دينهم على ألا ينصروا أولادهم) (٤) وفي عهد الخليفة عمر، ذهب إليه في المدينة وفد من تغلب عرب الشام، ليضع عنهم إسم الجزية، أنفه منهم، فقبل منهم، وجعل الصدقة مضاعفة (٥).

وقد عاش أهل الذمة في بلاد الشام ومصر في ظل الإسلام عيشة طيبة حتى عصر سلاطين المماليك، فكانوا يلبسون أفخر الثياب ويركبون البغال والخيال المسمومة، ويستخدمون في المناصب السلطانية ولدى الأمراء المماليك. ثم تغيرت أحوالهم، وصدرت الأوامر السلطانية في عهد السلطان محمد بن قلاوون بمنعهم من العمل في الدواوين أو لدى الأمراء المماليك، وألا يركبوا

(١) وتغلب هذه هي تغلب وائل من العدنانية عرب الشمال وهي غير تغلب حلوان اليمنية التي تسمى تغلب العليا تميزا لها عن القبيلة الأولى. (القلقشندي، نهاية الأرب، ص ١٨٧، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٥، ص ٣٢٥ مادة تغلب

(٢) القلقشندي، نهاية الأرب، ص ١٨٧.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، إبراهيم خورشيد، مجلد ٥، مادة تغلب، ص ٣٢٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢٩.

(٥) ابن خلدون، العبر، مجلد ٥، ص ٩٤٥، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٥، مادة

خيلا ولا بغالا. ولبس النصارى عمائم رزقا ولبس اليهود عمائم صغرا، ونشر ذلك الأمر من دنقلة الى الفرات. وطبق في الآفاق، وخاصة أهل دمشق فإنهم تقفوا هذا الأمر السلطاني على أهل الذمة بمنتهى الدقة (١).

وقد كان صدور هذا الأمر السلطاني في عام ١٣٠٠/٧٠٠ وذلك عندما شاهد أحد الوزراء المغاربة - وكان في زيارة للقاهرة - أحد النصارى ممطيا قرسا في ميدان القلعة وجماعة من الناس يمشون حوله، يلتمسون منه قضاء مصالحهم في ذل وتضرع وهو لا يلتفت إليهم ولا يكلمهم، ولكن ينهرهم ويحرض حراسه لإبعادهم عنه. فأنزعج الوزير المغربي من هذا المنظر وطلب لقاء السلطان فاجتمع معه السلطان، ثم طلب السلطان الأمراء، وجمع مجلس حضره رجال الدين من المسلمين وأهل الذمة. ثم أصدر ذلك القرار وكلفهم بتنفيذه.

أما الموارنة، فكان هواهم لمكان الدين، مع الصليبيين (٢). حتى ان فرنسا هي التي عملت على قيام إمارة لبنانية مستقلة عن سوريا عام ١٢٧٨/١١٨٦١ (٣). والموازنة هم الكسروانيون وهم تركمان غير كسروان الذين سكنوا في جبل كسروان، وكان للكسروانيين دور في ثورة منطاش التي قام بها الأتابكي منطاش نائب الشام ضد السلطان برقوق، فقد خرج بدلا من الناصري والى طرابلس على السلطان برقوق وتمكن من ضم جماعة من الأمراء المماليك بطرابلس وحلب وحمص، وانضم إليه منطاش، وجماعة من التركمان والعرب. واستولى الناصري على دمشق وأفرجوا عن المسجونين بها. ثم إتجه الناصري

(١) المقرئ، السلوك، ج١، ق ٣، ص ٩٠٩، إبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ١٣٣.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص ١٤.

(٣) يوسف دريان، نبذة تاريخية، ص ١١.

الى القاهرة، وتمكن من السيطرة على القلعة، ونصبوا أمير حاج بن الأشرف شعبان ولقبوه المنصور، وإعتقل السلطان برقوق بالكرك (١).

ثم إختلف منطاش مع الناصري فقبض منطاش على الناصري وأستولى هو على السلطنة، وجدد البيعة لأمير حاج المنصور. وأثناء ذلك تمكن الظاهر برقوق من الهرب من الكرك وإتجه الى الشام ودخل دمشق وإتضم الى برقوق جماعة من بنى عقبة وغيرهم (٢).

فقد إستعان منطاش فى حربته ضد برقوق بأهل كسروان وغيرهم من قبائل الشام، وإبتصر منطاش. ثم تغلب عليه برقوق وهزم منطاش وإعتقل. وبعد أن عاد الظاهر برقوق الى السلطنة وجه عساكر الى تركمان كسروان، وقاموا بطردهم من أماكنهم فى جبال لبنان.

وقد ذكر يوسف الديس رئيس اساقفة بيروت المارونى الكسروانيين الموارنة بجبال لبنان أنهم غير تركمان كسروان الذين طردهم المصريون من جبل لبنان بعد إشتراكهم فى ثورة منطاش التى إنتهت بهزيمته وعودة الشام الى مصر عام ١٣٨٨/٧٩١ (٣).

أما عن السريان، الذين كانوا يسكنون فى جبل لبنان، فقد ذكرهم ابن خلدون فى العبر فقال أنهم (قد اندرسوا وإنتقطع أثرهم) ثم إستدرك فذكر أنه يقال أن السريانيين من أهل تلك الأجيال (٤).

(١) ابن خلدون، العبر، ج٥، ص ١٠٣٩.

(٢) المصدر نفسه

(٣) يوسف الديس، الجامع المفصل، ص ٢٣٦.

(٤) ابن خلدون، العبر، مجلد ٢، ص ٨٢.

إلا أن القلقشندى ذكر أن السريان من بنى سوريان ولم ينسبهم إلى قبيلة (١).

وقد ذكر يوسف دربان، الذى كان نائب البطريرك المارونى فى مصر، السريان فقال أن السريان هم الموارنة الذين كانوا يسكنون جبل لبنان، وهم الذين وصفهم أسقف صور بأنهم المؤمنين السريان الذين قدموا خدماتهم للفرنج عندما زحفوا على القدس بعد فتح أنطاكية. وذكر أن شهادة أسقف صور تثبت أن هؤلاء المؤمنين السريان أما هم الموارنة، لأن النواحي التى عددها هذا الأسقف والمؤرخ الجليل لم يكن يسكنها تلك الأيام غيرهم ممن يمكن دعوتهم بهذا الاسم (٢).

ونحن إذا تتبعنا تدخلهم فى سياسة المماليك فإننا نجدها غير ثابتة فى إتجاه واحد، فقد كانوا منقسمين فى سياستهم مع المماليك فبعضهم كان يحكم سكانهم فى الشام يقبل المودعة والتعاون وبعضهم بحكم عداوته وبغضه، كان يقف دائما موقفا معاديا للمماليك.

وإزاء ماقلناه فإن الموارنة كانوا جزءا من أهل الشام، ومعادين للمماليك فى معظم الأحوال، لأنهم كانوا دائما فى نصره الصليبيين بحكم الدين.

وكان ثمة أرمن فى أملاك المسلمين يخدمون الخلفاء. ولكنهم أسلموا، مثل الأمير على الأرمنى الذى توفى عام ٨٦٣/٢٥٠ بعد توليته على أرمنية وأذربيجان بوقت قصير. وكان الأرمن يوجدون فى مصر بجيش الطولونيين.

وفى منتصف القرن العاشر الميلادى، قام الأرمن الذين هاجروا إلى الأراضى البيزنطية بتعمير قبليقية وشمالى الشام بعد غزو الروم لها، وهاجر منها الأهالى من المسلمين.

(١) القلقشندى، نهائية الأرب، ص ٢٦.

(٢) يوسف دربان، نبذة تاريخية، ص ٤٠.

وقد تمكن أساقفة الأرمن في أنطاكية وطروس في عهد خاجيك الأول (٣٦٢-٩٧٢/٣٨٢-٩٩٢) من تحسين أوضاع الأرمن بتلك الأراضي، ثم عمد بعض ولاة هذه المدن من الضباط الأرمن (١) إلى تكوين إمارات أرمنية خلال الغزو السلجوقي لآسيا الصغرى.

وقد تعاون الأرمن مع الفاطميين في مصر وكان بدر الجمالى الأرمنى الأصل قائدا للجيش المصرى فى الشام، ثم صار وزير للفاطميين (٤٦٦-٤٨٧/١٠٧٣-١٠٩٤). ثم كثر عدد الأرمن فى مصر بتشجيع من بدر الجمالى، ومثل بهرام الأرمنى الذى ولى منصب الوزارة الفاطمية وظل نصرانيا، وقد لقى هؤلاء الأرمن رعاية من بعض الخلفاء الفاطميين (٢).

وكان بعض وزراء التفويض من الأرمن. وقد لعب هؤلاء الوزراء الأرمن دورا أساسيا كبيرا فى عصر الدولة الفاطمية (٣).

وقد تمكن الأتراك السلاجقة بعد معركة ملاذكرد عام ١٠٧١/٤٦٤ من إنهاء سيطرة البيزنطيين على أرمنية واحلال التركمان، وإستقرارهم فى أرمنية وكبادوكيا، ومعظم مناطق آسيا الصغرى.

(١) وردت كلمة (الضباط الأرمن) الذين قاموا بتكوين إمارات أرمنية مستغلين الإضطرابات التى حدثت فى بلادهم فى عصر بنى سلجوق فى دائرة المعارف الإسلامية (مجلد ١٧، ص ٧٧). ومن مصادرهم M canard, Aleo, n visir chetien a l' epoque Fatimitde.

(٢) ابن خلدون، العبر، المجلد ٤، ص ١٥٤، ط. بيروت سنة ١٩٦٨، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٣، مادة أرمنية.

(٣) محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ج ١، ص ٧٠.



ثم ظهر الصليبيون وفي عهدهم تمكن الأرمن بزعامة ليو الكبير ملك الأرمن من اجتذاب عددا عظيما من الأرمن وظهرت قبليقية عام ١١٩٨/٥٩٥ حتى أطلق عليها أرمينية الصغرى. وفي عهد أحد الحكام الأرمن هو الأمير مله الذي دخل الإسلام مضطرا بسبب صراع الأحزاب المناوئة له، وتحول عدد كبير من الأرمن إلى الإسلام.

وقد بسط نور الدين حمايته على هؤلاء الأرمن(١).

ثم ضعف الأرمن وانتقل ملكهم الى سيس الأرمينية المجاورة لحلب في شمال الشام. وظلوا يؤدون الجزية للمسلمين حتى العصر الأيوبي.

وكان مع الأرمن من الثغور المصبصة وأردن، وطرسوس، أستولوا عليها من الروم وأبقاهم عليها صلاح الدين.

ثم شقوا عصا الطاعة وقطعوا ماكانوا يؤدونه من المال، وغدروا بالتركمان المجاورة لهم(٢). فحاربهم صلاح الدين، وأخضعهم، ورجعوا الى ماكانوا عليه من أداء الجزية، وحسن الطاعة.

وكان الأرمن في شمال الشام حتى عصر سلاطين المماليك، تارة يشقون عصا الطاعة، وينضمون الى الأعداء وتارة يصيرون على الطاعة وحسن الجوار.

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٣، مادة أرمينية.

(٢) كان التركمان يقيمون في شمال حلب، منذ عهد المرادسية، ثم انتشروا في لبنان وساحله، وكثر عددهم في عهد الدولتين النورية والصلاحية واستعربوا وصاروا جنودا في جيش الدولة منذ ذلك الحين. (محمد كرد على، خطط الشام، ج ١، ص ٦٩).

وكان مع الأرمن من البلاد قبل عام ١٠٠٩/٤٠٠ من الثغور والعواصم، إياس وأدنه والمصيصة، وطرسوس وبغزاس وبهسنى والدريساك، وسيس وقلعة الروم وغيرها. ومنعوا ما كانوا يؤدونه من الجزية.

وفى العصر المملوكى فى عام ١٢٦٩/٦٦٨ حارب الظاهر بيبرس الأرمن وانتزع منهم بغراس وبهسنى والدريساك وغيرها. وفى عهد الأشرف خليل فى عام ١٢٧٢/٦٧١ فتح الأشرف خليل قلعة الروم، وكانت من أهل قلاعهم. وكان يقيم بها خليفة الأرمن، وسماها قلعة المسلمين<sup>(١)</sup>.

وفتح محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ١٣٣٧/٧٣٨ قلعة إياس فى شمال الشام وكانت تابعة لنائب الشام المملوكى، ثم صارت الى نائب حلب المملوكى وفتح طرسوس<sup>(٢)</sup>. على ساحل البحر الأبيض وهى من أملاك الأرمن. وفى عهد الأشرف شعبان قامت حملة عسكرية بقيادة قشتمر المنصورى نائب حلب، بفتح سيس، وجميع بلاد الأرمن. وصارت بلاد الأرمن من يومئذ من البلاد الخاضعة لسلطان دولة المماليك<sup>(٣)</sup>.

أما مساكن الأرمن فى الشام نفسه، فى أيام المماليك، فكانوا فى حلب وفى جبال لبنان من مقاطعة كسروان. وإشتغلوا بالتجارة والصناعة والزراعة والرعى<sup>(٤)</sup>.

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١٩، ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه، خليل بن شاهين، زبدة كشف المماليك، الباب الثامى، فى وصف السلطنة، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ١٠٤.

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٣٤، ابن إياس، ج ٧، ص ١٩٨.

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ط. القاهرة ١٣١٢، ص ٥٥، أنطون خاتجى، مختصر تواريخ الأرمن، ص ٢٨٩، ط. القدس، ١٨٦٨.

وممن تولى من الأرمن مناصب دينية فى مدينة أنطاكية، ابن العبرى  
(ت ١٢٨٦/٦٨٥) وكان له مكانة عالية عند السلطان الناصر بن قلاوون(١).

والخلاصة أن الأرمن سواء كانوا فى شمال الشام، أو فى داخل الشام  
نفسه، فإن موقفهم فى أيام المماليك اختلف عن موقفهم قبلهم وذلك لوجود أخطار  
على الشام، لم تكن قبل المماليك، ولاسيما أن الشام كان دائما فى ثورة على  
سلطة المماليك.

ثم الأقليات المسيحية، وهم يقايا الصليبيين منهم الروم الأرثوذكس،  
والروم والكاثوليك والبروسانتات وكانوا موزعين فى أنحاء لبنان(٢).

وأما اليهود. وكانوا يعيشون فى الشام فى مدن القدس وحلب وبيروت  
ودمشق فهم فرق ثلاثة، هم: الربانيون والقراعون والمسامرة. ولهم رئيس يقوم  
على أمور الدين، لطائفته، وهى تماثل وظيفة البطريرك فى النصارى.

وبليه الخزان ومهمته الخطابة والوعظ، والإرشاد، والشليحصبور، ويؤم  
اليهود فى الصلاة.

ولكل من الربانيين والقرائين تورا خاصة بهم. وينفرد الربانيون بشروح  
موضوعة لفرائض التوراة. وتفرجات على التوراة نقلوها عن النبى موسى،  
ويصفون ما وقع من صفة الله فى التوراة، ويذكرون لهم تأولا فى الصفات  
الربانية.

أما القراون فإنهم يقفون مع ظواهر نصوص التوراة ولايزيدون عليها  
فيذكرون أفعال الله على ظواهرها.

(١) ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول.

(٢) نعم شقير، تاريخ سيناء، ج ٣، ص ٦٧٥، القاهرة ١٩١٦.

وهؤلاء الربانيون والقراؤون ينكرون أن طائفة السامرة التي لها توراة تختلف عن توراة الطائفتين السابقتين في كثير من الأحوال ينكرون أن هؤلاء السامرة من اليهود.

ومن رؤساء اليهود في مصر والشام في العصر المملوكي، ابن الموفق بن شمويل الطيب، الذي صدر له في عهد المنصور قلاوون في عام ١٢٨٥/٦٨٤ توقيع برئاسة سائر الطوائف اليهودية بمصر والشام<sup>(١)</sup>.

---

(١) المقرئزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٧٢٧.

## الفصل الثاني

### العصبية العربية فى الشام

- العصبية عند العرب.
- موقف الاسلام من العصبية.
- أثر الاسلام فى تكوين أمة عربية واحدة محورها الدين، تسمو على مبدأ العصبية القبلية العربية.
- ضياع مبدأ الامة منذ الحكم الأموى فى الشام.
- موقف عرب الشام من العباسيين، فى زمن قوتهم.
- موقف عرب الشام من العباسيين، فى زمن ضعفهم.
- موقف عرب الشام من البويهيين والفرس فى العراق.
- موقف عرب الشام، فى وقت الفاطميين الذين اعتمدوا على المغاربة.
- موقف عرب الشام فى زمن الصليبيين.
- موقف عرب الشام فى عصر الأيوبيين.
- موقف عرب الشام فى عصر المماليك.

وقد لعبت هذه العصبية<sup>(١)</sup> العربية القبلية ، دورا فى انقسام العرب قبل الاسلام. وقامت بينهم الحروب فى الجاهلية، ومن أشهرها حرب البسوس (يوم البسوس)<sup>(٢)</sup> وهى أعظم حروبهم لأنها دامت أربعين سنة، وقامت بين بكر وتغلب<sup>(٣)</sup>. التى كانت تقيم فى

(١) يعرف ابن خلدون العصبية بأنها شهور التماسك والتضامن والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم، وهى على مثل هذا النحو مصدر التكامل التى تربط أفراد القبيلة الواحدة (ابن خلدون، المقدمة، الباب الثامن، فصل ٨)، الزمخشري أساس البلاغة، مادة عصبية، ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين، ص ٤٩، القاهرة ١٩٥٦، عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الاسلام حتى سقوط الدولة الأموية، ص ١٧، اسكندرية ١٩٧٤، وأنظر على مظهر فى العصبية عند العربية.

(٢) سميت الحروب بين قبائل العرب بأيام العرب لان العرب كانوا يتحاربون فى النهار فقط.

(٣) وكان سبب حرب البسوس أن ناقه كانت للبسوس - خالة جساس - قد كسرت بيضة حمام فى حمى كان قد أجاره كليب بن وائل فأصاب كليب ضرع الناقة بسهم فقتل جساس كليب. فقامت الحرب بين القبيلتين بكر وتغلب ودامت أربعين سنة (القلقشندي، نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، ص ٤٥٧). وأما كليب فهو الذى تقول فيه العرب " أعز من كليب بن وائل " ويمقتله حاجت بكر وتغلب (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج ١، ص ٦٢، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة ١٣٦٤ هـ ) وقامت بين بكر وتغلب أيضا حروب ثلاثة عرفت باسم (يوم الحنو) و(يوم واردات) و(يوم التحالق) وقد عرف يوم التحالق بهذا الاسم لأن أحد الفريقين المتحاربين حلقوا رؤوسهم لتكون علامة لهم. ومثل الحروب التى قامت بين الأوس والخزرج منها حرب عرفت بيوم بعثت وحرب عرفت باسم (يوم قباء).

ديار ربيعة من بلاد الجزيرة المجاورة للشام وكانت على علاقة بقبائل الشام(١). وقد ظل هذا الانقسام العربي -المظهر للعصبية- بعد ذلك مصطبغا بصفات عديدة وأسماء مترادفة مثل القيسية واليمنية ، نسبة الى أشهر قبائل العرب حيث الأولى مركزها الحجاز وهم العرب المنتعريه. والثانية جنوب الحجاز وهم العرب العاربة.

وأما أسباب هذا الانقسام بين القيسية واليمنية، فان أهل اليمن كانوا يدعون أنهم أشرف وأفضل من سكان الحجاز. والحجازيون ينكرون ذلك، ويدلون بأفضليتهم عليهم مما يبين التعصب الأعمى للجماعة، بحيث ظهر من مقاصد شعرهم ما يعرف بالمفاخرة والمناظرة. فتمادوا في المناظرة والمفاخرة حتى أدى ذلك الي المشاحنة والاشتباك. فوشجت النعرة العصبية وتحزب كل قبيل الى أهله، فاشتعلت الحرب الأهلية وتبتهت قرائح الشعراء، ففتحوا بابا خاصا لمديح قومهم وذم خصومهم(٢).

ثم جاء الاسلام وهم أحزاب متطاحنة، فحاول أن ينسيهم هذا التطاحن. اذ الاسلام جاء يدعو لنبذ العصبية القبلية وتكوين أمة عربية واحدة محورها الدين لا تحفل بالمآرب الفردية أو العصبية القبلية وانما يوجد ترابط بين أفراد الأمة، ولذلك فقد آخى الرسول في المدينة بين المهاجرين والأنصار، فقال (تآخوا في الله أخوين أخوين) (٣). وهكذا جمع الاسلام بين العرب وجعل منهم أمة واحدة.

(١) دائرة المعارف الاسلامية، ابراهيم خورشيد، مجلد ٥، ص ٣٢٦.

(٢) المسعودي ، مروج الذهب، ج-٣، ص ١٥٩.

(٣) ابراهيم الابيارى، المختار من سيرة ابن هشام، ط. الشعب ثالثة، ص ٥٥، وأنظر:

Encyclopedie de L'Islam. A-D M th. Houstma. R.Basset. t.W. Arnold et R Hartman 1913. Paris. Ansap.

وبالرغم من جهود الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى الربط بين العنصرين من المهاجرين والأنصار بالتآخى فيما بينهم، فقد كادت تظهر العصبية من جديد بخطرها الشديد فى مجتمع المدينة فى عام ٦٢٧/٦<sup>(١)</sup> وبلغ الرسول الخبر، فترفق وأخذ يسوس الأمر حتى استقامت الأحوال وهدأت النفوس من جديد.

ولما تمكن مبدأ الأمة من نفوس العرب حينما عاد إليها رشدها بعد القضاء على حركة الارتداد وسيرهم وراء زعيم واحد وهو أبو بكر، الذى تمكن بهذا المبدأ من تخلص العرب الذين كانوا تحت الاحتلال الرومى، والعرب الذين كانوا تحت الاحتلال الفارسى.

---

(١) وذلك عندما تزاحم اثنان احدهما من المهاجرين من قبيلة بني غفار والآخر حليف بني عوف من قبيلة الخزرج على بئر ماء يريد كل واحد منهما أن يسبق أحدهما الآخر فى الحصول على الماء، فافقتلا، فصرخ الجهنى : يامعشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يامعشر المهاجرين (ابراهيم الابيارى، المختار من سيرة ابن هشام، ص١٧). وحاول عبد الله بن أبى وكان رئيس قبائل الأوس والخزرج ودخل الاسلام كارها لأنه كان سيتوج ملكا على المدينة قبل قدوم المسلمين إليها (وكان رأس المنافقين واليه يجتمعون) حاول ابن أبى استغلال هذه الحادثة ونادى فى قومه بطرد المسلمين من المدينة وأشعل نار العصبية بين المسلمين، ولكنه فشل فى محاولته (المختار من سيرة ابن هشام، ص ٦٠، ١٧).



ثم كانت الفتوحات الكبرى، ولكن بدأت النكسة بعد ذلك بفتنة عثمان مما أعاد العصية التي تزعمها الأمويون في الشام، لأن معاوية كان واليا من قبل الخلافة على الشام، فأراد أن يأخذ بثأر عثمان، فحرض قبيلة كلب ضد معارضيه ممن اتهمهم بدم عثمان. وان كان بسبب دهائه تمكن من أن يستميل غيرها من القبائل غير اليمنية في حربه ضد أعدائه ممن اتهمهم بمقتل عثمان فمن ذلك قبيلة تغلب فقد مالأت عليا أول الأمر، ثم ما لبثت أن انضمت للأمويين وحاربت في صف معاوية(١). فكانت الفتنة الكبرى هي عودة مبكرة للعصية والقضاء على مبدأ الأمة الواحدة الذي سعى الاسلام الى قيامه. ومن هنا بقيت العصية أمدا طويلا. ولم يكن عجيبا أن تعود الى الاشتعال بين الحين والحين.

وقد اتخذ المسلمون من عرب الشام موقفا مميزا من غيرهم من الشاميين غير العرب بالنسبة لدفع الجزية وهي ضريبة تفرض على أهل الذمة(٢). فمثلا قبيلة تغلب(٣). من عرب الشام من العدنانية عرب الشمال، عقد لهم الرسول صلحا (أبقوا فيه على دينهم على ألا ينصروا أولادهم(٤).

- 
- (١) دائرة المعارف الاسلامية، ابراهيم خورشيد وآخرين، مجلد ٥، ص ٣٣١، مادة تغلب.  
 (٢) ابن خلدون، العبر، مجلد ٢، ص ٩٥٤، دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٥، ص ٣٢٩.  
 (٣) وتغلب هذه هي تغلب وائل من العدنانية، عرب الشمال وهي غير تغلب حلوان اليمنية، تغلب التي تسمى تغلب العليا تميزا لها عن القبيلة لأولى (القلقشندى نهاية الارب، ص ١٨٧، دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ٥، ص ٣٢٥، مادة تغلب.  
 (٤) ابن خلدون، العبر، مجلد ٢، ص ٩٥٤، دائرة المعارف الاسلامية، ابراهيم خورشيد، مجلد ٥٤، ص ٣٢٩.

وفى عهد الخليفة عمر رفع عنهم إسم الجزية أنفة مهم، وصارت عليهم الصدقة مضاعفة(١).

وكان من أعظم أسباب نجاح العرب فى فتح الشام، أنهم نبذوا العصبية القبلية فيما بينهم، فالخليفة ابو بكر الصديق، كان يعين بعض فرسان العرب الشجعان من قبيلة ما ويجعلهم تحت راية قائد من قبيلة أخرى حسبما تقتضيه ضرورة تنظيم الجيوش العربية الفاتحة(٢).

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الواقدي فى كتابه (فتوح الشام) من أن الخليفة أبو بكر دعا ربيعة بن عامر وجعله جنديا فى سرية يزيد بن أبى سفيان، وقال ليزيد (هذا ربيعة بن عامر من ذوى العلا والمفاخر، وقد علمت صولته، وقد ضمته إليك وأمرتك عليه، فأجعله فى مقدمتك، شاوره فى أمرك، ولا تخالفه فقال يزيد، حبا وكرامة(٣). وقد كتب لهذه السرية النصر على الروم فى معاركهم بأرض الشام فى عهد أبى بكر(٤).

كذلك كان بعض فرسان جيش المسلمين من أهل الشام أنفسهم وانضموا الى المسلمين وحاربوا فى صفوفهم ضد قومهم وضد الروم. وذلك مثل، مصعب بن محارب اليشكري، وكان قائدا فى جيش المسلمين فى فتوح الشام، فى عهد أبى بكر (حارب على رأس ٥٠٠ فارس من قومه ومن أهل اليمن، وهو الذى أحرز النصر على بلاده العواصم وعلى قنسرين)(٥).

(١) ابن خلدون، العبر، مجلد ٢، ص ٩٥٤.

(٢) الواقدي، فتوح الشام، ص ٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤.

(٤) نفسه، ص ٦٥.

(٥) نفسه.

ومثل عبد الله ابن المعتم الذى نجح بمساعدة العرب النصارى فى تدبير مكيدة استولى بها على معسكر الروم وحصنين من حصونهم فى عام ٦٣٧/١٦ فى شمال الشام. حدث ذلك بعد اعتناقهم الاسلام ودخولهم فيه بجهود عبد الله بن المعتم الذى دخل معهم فى مفاوضة للدخول فى الاسلام خلال القتال ونجح فى ذلك (١).

ومن هنا يتبين أثر الاسلام فى تكوين أمة عربية واحدة محورها الدين، ولا تحفل بالمآرب الفردية أو العصبية القبلية.

وبالإضافة الى ذلك، فقد كانت القبائل العربية والعشائر فى ظل الحكم الأموي فى الشام بما فيها اليمنية والقيسية تكون جيش الشام (٢). ولذلك فإن التنافس على المراكز القيادية فى الدولة الأموية بين القبائل العربية فى الشام كان له أكبر الأثر والخطورة على الدولة الأموية.

وقد زاد الخلفاء الأمويون من حدة هذا التنافس، إذ أن سياستهم اعتمدت فى غالب الأحيان على ضرب القبائل بعضها ببعض فى الشام (٣). ليجعلوا أنفسهم فوقها. وحتى ولاتهم كانوا يجعلون مصالح الدولة فوق كل شئ، حتى

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ٥، مادة تغلب، ص ٣٣٠، ومن مصادرهم: (الطبرى،

ج ١، ص ٢٤٧٤-٢٤٧٧).

(٢) الواقدي، فتوح الشام، ص ٥، ط. المطبعة العثمانية ١٣٠٤.

(٣) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص ٣٤٥، ط. القاهرة ١٩٥٨، ترجمة عبد الهادى

ولو كان ذلك لا يتوافق على مبدأ الأمة ويتعارض مع تعاليم الدين<sup>(١)</sup>. فلم يكن الحكام الأمويون وولاتهم يهتمون بالحياة الدينية أو الاجتماعية التى تتناسب مع السنة. ومن أمثلة ذلك أن معاوية مؤسس الدولة الأموية هو أول من (جعل هذا الأمر ملكاً)<sup>(٢)</sup>. وورثة لأبنائه من بعده.

وكانت تقوم بإدارة الدولة كل قبيلة تأتي مع كل خليفة قادم لتولى الخلافة، ويقع العداء المرير بين القبيلة المخلوعة والقبيلة الحاكمة. ونتيجة لهذه السياسة عادت العصبية وقويت بشدة فى الشام. ومن أمثلة ذلك، معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية، ومن قبل والى الشام فى أيام الراشدين.

فقد كان الخلاف فى بلاد الشام بين قبائل قيس عرب الشمال وقبائل كلب عرب الجنوب، وكان سببه النزاع حول الخلافة. وكان وسط الشام لقبيلة كلب وكان معاوية يقم فى دمشق المنطقة الكلبية، وتزوج معاوية امرأة هى ميسون بنت بحدل وهى من أشرف كلب، وجعل ابنها يزيد بن معاوية ولياً للعهد<sup>(٣)</sup>. وقد زادت حدة الخصومة بين القيسية والكلبية بعد مصاهرة معاوية لقبيلة كلب. وكان أن أخذت قيس جانب أعداء الدولة الأموية، والخارجين عليها. بينما حافظت كلب على وولاتها للأمويين. فكان عداء قيس لبني أمية بسبب ما كان لكلب من شأن بسبب يزيد وابنه معاوية لأن أم كل منهما كانت من قبيلة كلب<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٣٠٨، وأنظر:

Goldziher Études sur la tradition Islamique Extraites du tome II des.P. 35-377-39.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٣٠٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٤، ص٥٣، فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص١٦٧.

(٤) المصدر نفسه.

وأيضاً اعتماد الخليفة يزيد بن الوليد على اليمنية لأنهم كانوا أحواله وخصوصاً كلب، ولم يكن أحد من قيس يغشاه، أو يقف ببابه<sup>(١)</sup>. فظهرت الخلاقات القبلية.

ومن أمثلة أيضاً ما ذكره الأوزاعي (ت ١٥٧/٧٧٣) امام أهل الشام عن صحابة النبي الذين انتشروا في أنحاء الدولة الإسلامية يعملون على نشر حقيقة جوهر الدين ويعطون تأثيرهم الحسن والقُدوة في المجتمعات الإسلامية التي كانت حديثة عهد بالإسلام. وكانوا على عكس الولاة الأمويين الذين كانوا يتدخلون ليفرضوا آراءهم على هؤلاء الصحابة ويمنعوهم من حرية الكلام أحياناً<sup>(٢)</sup>، فحين كان الأوزاعي باليمامة بشرق مكة لقي أحد ولاة بني أمية وكان يلزم أصحاب رسول الله عليه السلام والسلام هؤلاء أن يسموا المسئ مناقفاً، وقد وافقوه على قوله اضطراراً، مما يبين النقيضين بين هؤلاء الصحابة وبين الولاة الأمويين<sup>(٣)</sup>.

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ج ٧، ص ٢٧١.

(٢) Goldziher. Etudes sur la tradition Islamique Extraires du tome II des P.35-37-39.

(٣) قابل الأوزاعي، بعد ذلك عطاء بن أبي رباح - وهو تابعي جليل - (ت ١١٤/٧٣٢) وناقشه في ذلك، فقال له عطاء (ما أرى بذلك بأساً، يقول الله تعالى الا أن تتقوا منهم تقاه). (ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٣٠٨) والآية نصها: (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء، الا أن تتقوا منهم تقاه، ويحذركم الله نفسه والى الله المصير). (٣-٢٨).

ولعل المظهر القوي لعودة العصبية بشدة الى الشام فى أيام حكم الخلافة الأموية، موقعة مرج راهط، بنواحي دمشق(١). اجتمعت غسان والسكاسك والسكون وتتوخ وكلب وهم من قضاة اليمانية عرب الجنوب لتمثل حزب الحكومة. بينما أخذت سليم وعامر وذيبيان، وهم عرب القيسية عرب الشمال جانب المعارضة. وبدأ القتال بين الفريقين فى المحرم عام ٦٨٤/٦٥ واستمر فى مرج راهط عشرين يوماً. ثم هزمت قيس(٢). وعلى الرغم من انتصار الأمويين فى مرج راهط، الا أنها أوجدت للأمويين من المشاكل الداخلية التى اشتدت بين القبائل مما أعاقها عن مواجهة الروم عدو العرب الأول آنذاك الذين انتهزوا فترات الصراع الداخلى فى الدولة الأموية.

وحتى فى عداوتهم للروم ظهرت العصبية العربية فى الشام لتشتت قواهم أمام عدوهم، فقد لعبت العصبية القبلية فى الشام دورا بلغ تأثيره عليهم وهم فى مهمة أنهم كانوا من القيسية عرب الشمال، واليمانية عرب الجنوب، وكانوا يشكلون الميمنة والميسرة لجيش الشام، وكانوا فى مهمة حربية الى ثغور الشام لتأديب الروم. فقام ثابت بن نعيم زعيم اليمانية بتحريض اليمانية عن الانفصال عن القيسية والعودة الى أهلهم. الا أن مروان آخر خلفائهم تغلب عليهم وفرض عليهم طاعته(٣).

(١) ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج٥، ص ١٠٥.

(٢) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٥، ص ٥٣٣، ٥٣٧، ٥٣٨.

(٣) الطبرى، تاريخ الرسل، ج٧، ص ٢٥٦.

وعلى الرغم من أن الشام كله كان قد بايع لمروان بن محمد بالخلافة إلا أن اليمينية بزعامة ثابت بن نعيم الجذامي ثاروا عليه فحارب مروان اليمينية (حتى استقامت له الشام كلها)(١).

وقد استمرت العصبية القبلية التي كانت سائدة في العصر الأموي، في العصر العباسي أيضا متمثلة في نزاعات مستمرة. ولم تكن الدولة العباسية في أول أمرها تعتمد على الفرس كلية، وإنما تعتمد على العرب، فقد ذكر الشاعر مروان بن أبي حفصة في قصيدة له أن جيش بني العباس كان يجمع في صفوفه عربا وعجم، فمن ذلك قوله:

كتائب لبني العباس قد عرفت ما ألف الفضل منها العجم والعرب(٢)  
وفي عهد الدولة العباسية بلغ سلطان الفرس الغاية، ولم يعد نفوذ لقيس أو ليمن. بحيث تلاشى نهائيا. وكان لذلك رد فعل لدى العرب، سيظهر أثره واضحا في الشام، حيث لم يعد يعتمد العباسيون على قبائل الشام العربية، ولم يمثلوا في الجيش العباسي.

فأهل الشام وخاصة كلب وقيس الذين ساءهم ما حدث لأسرة بني أمية في الشام، اجتمعت كلمتهم على الثورة ضد نظام الحكم العباسي، في عهد الخليفة العباسي السفاح(١٣٢-١٣٦/٧٥٠-٧٥٣) دفاعا عن مصالحهم التي كانت مع الأمويين حيث كانوا جعلوهم مركز خلافتهم ورجال دولتهم.

كذلك كانت تتدخل أحوال شخصية لعرب الشام في مصادمات مع الولاة العباسيين، فقد اعتدى أحد قادة جيش العباسيين الذي قدم الى بالس من

(١) نفسه، ص ٣١٤، ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص ٢٨٦.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ج٨، ص ٢٥٧.

نواحي حلب على بعض أفراد البيت الحاكم من أسرة مسلمة بن عبد الملك، وكانت تقيم في بالس، فشكوا الى أبي الورد مجزأة الذي قتل القائد وأعلن الثورة على العباسيين<sup>(١)</sup>، فثارت كلب في تدمر، وقيس في قنسرين وأهل الجولان والبلقاء وحمص وفي دمشق.

ثم ظهرت العصبية مرة أخرى في جيش الشام أثناء الحرب بين مروان بن محمد وبنى العباس في معركة الزاب الأعلى<sup>(٢)</sup>. وكانت كفة مروان راجحة في البداية، ولكن الهزيمة لحقته عندما رفضت قيس عرب الشمال أن تقاتل دون قضاء عرب الجنوب<sup>(٣)</sup>.

ولعل من أسباب هزيمة مروان في هذه الواقعة حيث انسحب قيس لتغلب العصبية وإهتمام كل قبيلة بمنافسيها، بحيث أن الدولة لم تعد تهمهم. وقد إنتهى الأمر بخذلان قبائل الشام لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ولم ينفذ مروان تعصبه للقيسية عرب الشمال فغدروا به وخذلوه<sup>(٤)</sup>. وهكذا انتهى الصراع بين كلب وقيس بسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية عام ٧٤٩/١٣٢.

(١) إبن خلدون ، العبر، مجلد ٣، ص ٣٧١.

(٢) الزاب الأعلى : بين الموصل واربل وجمع زاب زوابي (ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد ٣، ط. بيروت، ١٩٥٧، ص ١٢٣.

(٣) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص ٥١٨.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ص ١٧٩.



ويابعوا جميعهم - الكلبيين والقيسية، لأبي محمد عبد الله، (وقالوا هو السفيناني المنتظر)<sup>(١)</sup>. إلا أن جهودهم ذهبت سدى. وقتل قائدهم السفيناني فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور (١٣٦-١٥٥/٧٥٣-٧٧١). ثم لم يلبث أن تفرقت كلمتهم مرة أخرى وظهر الإنقسام بينهم لأول حادث وقع بينهم. ومع وجود الحكم العباسى الذى لم يرفعهم مثلما كانوا فى ظل الحكم الأموى، فإن العصبيتين لم تتحدا وإستمرتا فى تصادلهما، وكانت أيضا على أساس حادث فردى، وتناسوا أنهم ينتسبون الى أمة واحدة.

فى عام ٧٩١/١٧٥، هاجت الفتنة بالشام، بين اليمانية والقيسية، وذلك عندما قتل رجل من اليمانية رجلا من القيسية، فاجتمعوا لثأره، فقام والى دمشق بجمع كبار العشائر، ليصلحوا بينهم، ولكن استمرت الحزازات، ولم يتم الصلح إلا بعد سنين<sup>(٢)</sup>.

وفى عام ٧٩٦/١٨٠ عادت العصبية بين القبائل، وتجددت الحزازات والأحقاد، واهتم الخليفة الرشيد بهذا النزاع لأنه كان لا يريد للعرب أن تتمزق، وهو الخليفة العربى، ذلك ولاسيما أنه كان قد وقف موقفا خاصا من القومية الفارسية بنكبته للبرامكة. وارسل الخليفة الرشيد الى جعفر بين يحيى، وقال له (أما تخرج أنت أو أخرج أنا، فقال له جعفر، بل أفيك بنفسى<sup>(٣)</sup>). ثم توجه جعفر الى الشام، وتمكن من إصلاح الأحوال وصالح بين القبائل.

(١) ابن خلدون، العبر، مجلد ٣، ص ٣٧١.

(٢) المصدر نفسه

(٣) الطبرى، تاريخ الرسل، ج ٨، ص ٢٦٢.

وهكذا أصبح الشام بؤرة للثورات ضد الدولة العباسية. وتكرر ظهور السفينائي مرة أخرى في محاولة بانسة لإحياء مجد الشام القديم، مما أضعف ثقة الخلفاء بالعرب. وصاروا يعتمدون على العنصر الفارسي، الذي إتخذوه جندا بخرسان وبغداد، أكثر من إعتمادهم على العنصر العربي(١) في القضاء على الفن والثورات التي كانت تهيجه العصبية العربية في الشام وفي غيرها. ثم ضعف أمر العرب وأصبحوا لايتحمسون للقتال تحمس الفرس، فبلغ سلطان الفرس غايته وقويت شوكتهم(٢). فأوقع بهم الخلفاء وصادروا أموالهم(٣).

ثم حاول العباسيون في بغداد التخلص من نفوذ الفرس بآخرين غيرهم، فأدخلوا الأتراك، والبربر والصقالبة. فإستبد هؤلاء بالسلطة وخاصة الأتراك حتى صاروا هم أصحاب النفوذ في الدولة العباسية(٤).

ومنذ أن بدأ يضعف الحكم العباسي، فإنه حدث شبه تقارب وإندماج ما بين العصبيتين ظهر على الخصوص في العصر العباسي الثاني (٢٣٢-١٢٥٨-٨٤٧/٦٥٦) وذلك إنه مع هذا النفوذ التركي، النفوذ الفارسي كان للنفوذ العربي، وخاصة في الشام قوة لايستهان بها فالعرب وكانت لهم المناصب العليا في العصر الأموي، وتقلصت في العباس الى حد ما.

(١) الطبري ، تاريخ الرسل، ج٨، ص ٢٦٢.

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه ج١٠، ص ٢٠٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص ٢٩٣، ٣٠٢، ٣١٢.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص ٢٩٢، ٢٩٩، محمد كرد علي خطط الشام، ج١، ص ١٩٧.

ومن قبل تمكن الفرس في عهد الدولة العباسية من الخلفاء العباسيين، وبسطوا نفوذهم في كل ناحية وصقع، وبلغ سلطانهم الغاية. عندئذ أحس العرب بضعف سلطانهم، فظهر شبه تقارب وإندماج بين العصبيتين في بلاد الشام. الأولى، الحمدانية<sup>(١)</sup>. وكان الحمدانيون في حلب (يرون رأى الشيعة ولذلك كثر التشيع في شمال الشام على عهدهم)<sup>(٢)</sup>. وذكر ياقوت حمص في شمال الشام، فقال أن أكثر أهلها شيعة<sup>(٣)</sup>. وذكر المقدسي أن عمان أيضا أكثر أهلها شيعة<sup>(٤)</sup>. فالعرب، الذين هاجروا الى الشام والعراق في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) من الجزيرة العربية، من الخليج، شكلوا في العصر العباسي قوة سياسة، كان لها عند الخلفاء شأن كبير، فقد صاروا قوة لا يستهان بها في فترة ضعف الخلافة العباسية في بغداد. فأقام بنو حمدان - من بني تغلب - الدولة الحمدانية في الموصل. (٣١٧ - ٣٩٤/٩٢٩ - ١٠٠٣) ثم في حلب (٣٣ - ٣٩٤/٩٤٤ - ١٠٠٣). وأقام بنو كلاب الدولة المرادسية في حلب (٤١٤ - ٤٧٢/١٠٢٣ - ١٠٧٩) وأقام بنو عقيل دولتهم في ديار بكر والجزيرة بالعراق (٣٨٦ - ٤٨٩/٩٩٦ - ١٠٩٥)<sup>(٥)</sup>.

(١) (بنو حمدان) بطن من بني تغلب بن وائل من العدنانية عرب الشمال ومنهم سيف

الدولة بن حمدان مؤسس الدولة الحمدانية في شمال الشام في حلب عام ٩٤٤/٣٣٣.

(ابن خلدون، العبر، ج٤، ص ٥٠٣، القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٢٣٧.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ج١، ص ٢١٨.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد ٢، ص ٣٠٤.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٧٩، ط. ثانية، لين ١٩٠٦.

(٥) القلقشندي، صبح العشي، ج٤، ص ١٦٨، ١٦٩.

وتعد الدولة الحمدانية أهم هذه الدول. فقد جمعت شمل العرب فى بلاد الشام، وقاومت بهم العصبيات التركية والفارسية، واشتبكت مع هذه العصبيات وعملت على طرد النفوذ التركى والفارسى من بغداد والشام. وحاربت فى سبيل إستعادة النفوذ العربى فى الشام، وبغداد(١)، حتى أن الخليفة المتقى بالله (٣٢٩-٣٣٣/٩٤٠-٩٤٤) قلد ناصر الدولة بن حمدان عام ٣٣٠/٩٤١ مرة الأمراء وخلع عليه هو وأخيه سيف الدولة بن حمدان، وتمكن ناصر الدولة بن حمدان من دخول بغداد فى عام ٣٣٠/٩٤١ فى إحتفال مهيب. إلا أن ثورة الأتراك بزعامة توزون(٢). تغلبت على ابن حمدان. واستمر الصراع بين العرب والترك، بينما عقد صلح بين الفرس والعرب وذلك بعد تدخل سيف الدولة فى الصلح بين أخيه ناصر الدولة ومعز الدولة البويهى(٣). وهم من عنصر فارسى التى كانت سيطرت فى إيران ودقت أبواب - الحجاز وسيطرت على الخلافة العباسية وأعدت هيمنة الفرس من جديد عليها.

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص١٦٣.

(٢) تزعم توزون وكان رئيساً للشرطة فى بغداد، ثورة الأتراك ضد العرب وعلى رأسهم إبن حمدان، الذى تمكن من قتل ابن رائق زعيم الأتراك، فقلده الخليفة المتقى بالله امرة الأمراء، محاربة توزون فى عام ٣٣١/٩٤٢ وطارد العرب الى الموصل وتقلد توزون امرة الأمراء (أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج١، ص٥٧، القاهرة ط. ثالثة ١٩٥٢، على إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام العام، القاهرة ١٩٥٠، ص ٤٩٠.

(٣) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٥١٠، والبويهيون/ امرة فارسية قوية اتخذوا لقب الملوك بدلا من أمير الأمراء السابقة وكانوا شيعية. (ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٠١.

ولما تمكن البويهيون من بغداد، وقاومهم العرب فى بلاد الجزيرة والعراق وحاربوهم ولكن تغلب البويهيون على العرب وإمتدت سيطرتهم على دمشق عندما إستولى عليها أفنكين مولى معز الدولة ابن بويه. وأفنكين ولو أنه لم يكن فارسيا ولكنه تركى إلا أنه كان عونا للفرس فى الشام. وقطع منها الخطبة للمعز الفاطمى حيث كانت الشام مسرحا للتنافس بين الفاطميين الذين نشأوا فى المغرب ونقلوا خلافتهم الى مصر وبين الخلافة العباسية التى سيطر عليها البويهيون، وخطب لخليفة بغداد عام ٩٧٤/٣٦٤. ثم إستردها الفاطميون من البويهيين، وقبض على أفنكين وأرسل الى مصر(١).

ولعل عرب الشام بالنسبة لأفنكين كانوا عنصر تأييد بإعتبار أن أهل الشام سنة فى غالبيتهم وأن الفاطميين الذين وجدوا فى مصر كانوا يطمعون فيها فوجدوا فى أفنكين من يحميهم(٢).

ولقد إمتاز عنصر بنى حمدان بعصبيته العربية ضد الفرس والترك وضد الروم. فقد قاتل سيف الدولة بن حمدان الروم وصددهم عن بلاد الشام، وحمل الثغور حتى بلغت غزواته للروم أربعين غزوة. (ولولاه لأستولى الروم على الشام فى غفلة العباسيين)(٣). مما يدل على أن العصبية قلت بين عرب الشام وأصبحوا يتميزون ضد أعدائهم بما فيهم العدو الأكبر وهو الروم. على أن نجاح هذه القبائل العربية فى تأسيس دولة فى شمال الشام. كان نقلة كبيرة فى حياة تلك القبائل وتجربة رائدة فى تاريخها.

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص١٦٣.

(٢) ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، القاخرة ١٩٦٨، ص١٢٤.

(٣) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج١، ص٥٧، ط٦٠، الثالثة، القاخرة ١٩٥٢.

كما كانت تحركات تلك القبائل العربية في الشام بقيادة ناصر الدولة بن حمدان وأخيه سيف الدولة تتم بتأييد من الخليفة العباسي المتقي بالله الذي أعجب بشجاعتهما وتمكنهما من القضاء على معارضييه مثل ابن رائق زعيم الأتراك<sup>(١)</sup>، الذي بعثه الخليفة العباسي المتقي بالله لينقذ الشام ومصر من الأخشيدي محمد بن طنج، فعصا ابن رائق الشام. وحاول أن يقيم لنفسه دولة بها. فحاربه الحمدانيون وقتلوه عام ٩٤١/٣٣٠. واستولى سيف الدولة على حلب عام ٩٤٤/٣٣٣<sup>(٢)</sup>.

وأقام الخطبة للخليفة العباسي المستكفي بالله (٣٣٣ - ٩٤/٣٣٤ - ٩٤٩)، ولأخيه ناصر الدولة أمير الموصل ولنفسه. (فخلع المستكفي على سيف الدولة)<sup>(٣)</sup>.

وكانت تحركات تلك القبائل العربية في أنحاء الشام، واصطدامها بالسلطات المحلية، مثل ابن رائق والأخشيدي، سببا في انزعاج هؤلاء الحكام، ولكن لم يكن في إمكانهم، وقف هذا التحرك القبلي، الذي يتجه الى التجمع الوحدوي، منذ بدأ سيف الدولة يعمل على ضم القبائل العربية في الشام الى

---

(١) كان ابن رائق زعيم الأتراك يشغل منصب إمبر الجيوش وأمير الأمراء. كانت بيده جميع أمور الدولة وذلك في عهد الخليفة العباسي الراضي (٣٢٢-٩٣٣/٣٢٩-٩٤٠). (Canard, Sayf Aldaula, Alger, 1934, p.9. أحمد إبراهيم الشريف، العالم

الإسلامي في العصر العباسي، ط. القاهرة ١٩٦٦، ص ٣٨١.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ٢١٦.

(٣) المصدر نفسه.

صفه، واستطاع جذب كثير من بطون القبائل العربية وعشائرها من بنى عقيل(١).

وبني نمير(٢)، وبني كلب(٣)، وبني كلاب(٤). وكانوا جميعهم كالرعايا لبني حمدان وجنودا لهم في الحروب(٥). حتى صار للعرب كيانهم السياسى وطابعهم العربى المتميز ازاء العناصر التركية الأخرى مثل الأخشيديين. وواصل سيف الدولة حروبه ضد الأخشيديين حتى انتهى الى صلح معهم تقرر فيه لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية، وكان من نتائج هذا الصلح أن ساد الصفاء بين الحمدانيين والأخشيديين، وهدأت الفتنة واستقامت الطرق(٦).

(١) بنى عقيل: وهم من قبائل قيس عرب الشمال، وأصلهم من البحرين، خرجوا منها الى العراق وملكوا الكوفة والجزيرة والموصل بالعراق وحلب فى شمال الشام. ثم انتزعا منهم السلاجقة عام ١٠٨٤/٤٧٧. (القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦٩، ج ١، ص ٣٤١).

(٢) فى حلب، (بنى نمير: وهم من قبائل قيس عرب الشمال، وكانت منازلهم بنجد، ثم رحلوا الى الجزيرة القراتية ثم رحلوا منها الى الشام واتضموا الى الحمدانيين يحاربون فى صفوفهم. (عمر كحالة، معجم قبائل العرب، ج ٣، ص ١١٩٥).

(٣) بنى كلب: وهم بنو كلب بن وبرة وهم بطن من قضاة عرب الجنوب، وكانوا ينزلون فى الجاهلية دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام، وشيرز وحلب. (القلقشندي صبح الأعشى، ج ١، ص ٣١٦، كحالة، معجم قبائل العرب، ج ٣، ص ٩٩١).

(٤) بنى كلاب: وقد كان بنو كلاب فى جهات المدينة وفدك والحوالى ثم انتقلوا الى الشام، أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وملكوا حلب ونواحيها، وكثير من مدن الشام، منهم صالح بن مرداس مؤسس الدولة المرداسية القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٤٠٧).

(٥) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٥٤٥، ابن العديم، زبدة الحلب،

Canard, Sayf Aldaula, Alger, 1934, P.30, ١١٨، ٩٩ ص

(٦) محمد كرد على، خطط الشام، ج ١، ص ٢١٨.

وهذا الاندماج، الذى حدث بين القبائل العربية فى الشام حتى صارت لهم دولة بفضل اتحاد العصابات العربية تحت راية بنى حمدان ابان ضعف العباسيين وحتى العصر الفاطمى. فظهر الحلف العربى بين قبائل بنى طى وبنى كلاب، وبنى كلب، عام ١٠٢٣/٤١٤. وقد تحالف أمراء هذه القبائل العربية على اقتسام البلاد الشامية فيما بينهم(١).

ولما أدرك الفاطميون خطورة هذا الحلف على ممتلكاتهم فى الشام، أعدوا جيشا كبيرا بقيادة أنوشتكين الذيرى، عام ١٠٣٨/٤٢٠، للقضاء على هذا التحالف العربى الشامى. وكان الفاطميون يعتمدون على المغاربة فى مواجهتهم لمنافسيهم بالشام(٢). وتمكنوا فعلا من الحاق الهزيمة بقبائل الشام المتحالفة.

لكن نصر بن صالح بن مرداس الذى قتل أبوه صالح بن مرداس فى المعركة عام ١٠٢٤/٤١٥ سار الى حلب وتمكن من الاستيلاء عليها واقامة الدولة المرדاسية(١). وهذه هى المحاولة الثانية - بعد المحاولة الحمدانية - للقبائل الشامية ونفوذها الذى تغلغل فى بلاد الشام لعودة الحكم العربى الخالص والاستقلال الذاتى لها.

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٢٤٩، ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٢٢٣، ٢٣٠، ابن خلدون، العبر، مجلد ٤، ص ٥٨٢، ابن القلاسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٧٤، ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، ص ١٣٥، القاهرة ١٩٦٨،

(٢) ابن القلاسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٥، بيروت ١٩٠٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٤، ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٢٤٩، ابن العديم زبدة الحلب، ص ٢٢٣، ٢٣٠، ابن خلدون، العبر، مجلد ٤/، ص ٥٨٢، ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٣٥.



ولبنى مرداس دور طليعى شجاع فى الحروب التى شهدها الشام ضد الصليبيين. ففى عام ١٠٢٩/٤٢٠ خرج الروم من أنطاكية لمهاجمة حلب، وكان عليها نصر بن صالح وكان يشاركه فى الحكم أخيه ثمال بن صالح، ونزل الروم على هضبة قرب عزاز من أعمال حلب، ثم أرسلوا سرية من كبار قادة جيش الروم الى عزاز فأسرع الأميران المرداسيان للدفاع عن البلاد، واستطاعا أن ينزلا بالمهاجمين هزيمة ساحقة، وأرغما حاكم أنطاكية على عقد صلح فى نهاية عام ١٠٢٩/٤٢٠ (١).

ثم ظهر إلتراك السلاجقة الذين حاولوا فرض نفوذهم على بلاد الشام، ومن بينها حلب المرداسية، وعلى الرغم من مساندة بنى مرداس للسلاجقة، وذلك عندما قام جماعة منهم الى عطية بن صالح أمير بنى مرداس فى حلب عام ١٠٦٢/٤٥٤ وعرضوا عليه خدماتهم، فاستقبلهم وضمهم الى قواته وقوى بهم . ولم يلبث أن وقع الخلاف بين عطية بن صالح والسلاجقة، فلجأ السلاجقة الى أمير آخر من بنى مرداس هو محمود بن نصر الذي قام بمحاصرة حلب وملكها فى عام ١٠٦٢/٤٥٤ وبقيت حلب فى أيدي المرداسيين حتى ظهر تاج الدين تنش السلجوقى وحاول الاستيلاء على حلب عام ١٠٧٩/٤٧٢، فعاونته أهالى حلب ويعث الى مسلم بن قریش أمير الموصل ليملكوه حلب فتمكن مسلم من تملكها فى عام ١٠٨٠/٤٧٣ وبقيت حلب فى أيدي المرداسيين حتى سقطت فى أيدي السلاجقة عام ١٠٨٠/٤٧٣ (٢).

(١) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ص ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٤٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ق ٢٦٢، ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٢٩٤، ٢٩٧، ابن

خلدون، العبر، ج ٤، ص ٥٨٦.

وفي عهد الأتابك زنكى صاحب الموصل، كان ظهور قبائل ربيعة، وهم بنو ربيعة بن حازم من بنى الجراح، وترجع أصولهم الى طئ عرب الجنوب(١). وولى ربيعة اماره عرب الشام فى عهد طغتكين السلجوقى حاكم دمشق. ولما تولى نور الدين محمود بن زنكى حكم الشام عام ١١٥٤/٥٤٩. ووفد عليه ربيعة أكرمه نور الدين وشاد بذكره(١).

أما فى عهد السلطان صلاح الدين، فقد كان لأبناء ربيعة دور طليعى فى حروب صلاح الدين ضد صليبي الساحل فى عام ١١٩٢/٥٨٢، وقد استشهد من أمراء ربيعة فى حروب صلاح الدين ضد صليبي الساحل فى عام ١١٩٢/٥٨٥ الأمير زامل بن ربيعة والأمير حجي بن منصور بن ربيعة والأمير مطرف بن رفيع بن ربيعة. وكان إستشهادهم فى فتوح مرج عيون نواحي صيدا(٢).

ولكن الدور الحربى الكبير لقبائل العرب فى الشام، بدأ يظهر فى العصر المملوكى، الذى يعد بحق أهم الفترات الحاسمة فى تاريخ الشام لارتباطها بالأحداث العالمية التى من أهمها وأخطرها صد الزحف المغولى القادم من الشرق منذ أول معركة وأشهرها (عين جالوت ٦٤٨/١٢٥٠). ثم

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٣، بحالة، معجم قبائل العرب، ج ٢، ص ٤٢١.

(٢) محمد بن محمد (عماد الدين الكاتب الأصفهاني) الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص ١٣٥، ط. القاهرة.

دور الهجوم، وتحقيق الإنتصارات ضد العدوان الصليبي القادم من الغرب، فى عصر الدولة المملوكية.

دور الهجوم، وتحقيق الانتصارات ضد العدوان الصليبي القادم من الغرب، في عصر الدولة المملوكية.

وللقبائل العربية في الشام دور طليعي شجاع في الحروب التي شهدتها الشام ضد الصليبيين.

لقد تعرض الساحل الشامي خلال تحريزه من الصليبيين، للهجوم على يد العرب في مختلف عهود سلاطين المماليك، ونجحوا في إنزال الهزيمة الساحقة بالصليبيين في حصار عكا، في عهد خليل بن قلاوون في عام ١٢٩١/٦٩٠. وفي معركة طرابلس في عام ١٣٦٧/٧٩٦ وفي غيرها من المعارك الحربية ضد الصليبيين حتى تم إخراج الصليبيين من جميع الساحل الشامي<sup>(١)</sup>، وقد تناولنا هذا بالتفصيل في الثالث من هذا البحث.

والخلاصة أن العصبية القبلية عند مجئ المماليك، كانت نموذجاً رائعاً لاتحاد قبائل عرب الشام ونجاحها في الإطلاع بدورها الحربي والحضاري في بلاد الشام.

ودليلاً على ما أصاب تلك القبائل العربية من تغيير، وما شهدته من الأخذ بأسباب التحول والاستجابة، لعناصر التغيير المستحدثة في بلاد الشام. في عصر سلاطين المماليك.

---

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٧٨، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٩٢.

## الفصل الثالث

### دور القبائل العربية السياسية والحربية فى الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك

- موقف عرب الشام من الحكم المملوكى.
- اعتراف الحكم المملوكى بزعماء قبائل عرب الشام.
- اقطاعاتهم واستحواذهم على مناطق فى بلاد الشام.
- اشتراكهم فى الجيش المملوكى، كجند وأسلحة، فى حروبهم وجراساتهم للطرق وغيرها.
- أمثلة على دورهم الحربى فى أيام المماليك.
- موقف عرب الشام من منازعات المماليك.
- دور عرب الشام، فى نهاية الحكم المملوكى.

لعب الزعماء العرب لقبائل الشام، فى عصر سلاطين المماليك دورا بارزا فى النواحي الحربية المتعلقة بغزو الشام أو الفتن، القائمة فى الشام نفسه من أهله، او نتيجة للمنازعات المملوكية. وهو دور بارز تجده بتفصيل أو باقتضاب فى كتب المؤرخين الاسلاميين، وان كان غالبا غير مسهب حتى نستطيع أن نتلمس حقائقه. وبسبب هذا الدور فقد توطدت علاقات عرب الشام بحكام الدولة المملوكية فى مصر كسلاطين. وفى الشام كنواب لهم. ونتيجة لدور امرائهم البارزين فان سلاطين المماليك كانوا يقدمون أمراء عرب الشام على غيرهم من رجالات العرب أجمعهم، فمنحوم المراكز القيادية. فكان السلطان المملوكى يكافئ الامير العربى الشجاع المخلص له، الذى يثبت ولاءه للدولة المملوكية بأن يصدر له "تقليدا سلطانيا مثلما صدر لفضل بن عيسى بتوليته أميراً على آل فضل عام ١٣١٢/٧١٢ أو "مرسوما شريفا" مثلما صدر لجمال بن محمد بن أبى بكر بتوليته أميراً على آل على فى عهد محمد بن قلاوون فى أول ولايته لعرش السلطنة. فكانت المكاتب السلطانية لهم هى بمثابة اعتراف من السلطان المملوكى الحاكم، بأمره هذا الأمير العربى على قبيلته. وبذلك تصير طاعة قبيلته واجبه له، وأن يفوضوا له أمرهم، كبر أو صغر، وان كان من واجب الامير مراعاة الامن والامان لمن هم فى طاعته.

كذلك صارت لهؤلاء الامراء العرب فى ديوان الانشاء ألقابا محددة يخاطبون بها تعظيما لقدرهم، وتقديرا لأدوارهم ومساهماتهم الفعالة فى الدفاع عن البلاد ضد الغزاة والمعتدين وما يؤدونه من ادوار سياسية. فكانت ألقاب الامراء العرب تصدر من الأبواب السلطانية على طبقتين متميزتين. الأولى تلقب بـ "المجلس العالى" مثلما لقب مهنا بن عيسى أميراً على آل فضل فى عهد السلطان لاجين. أما الطبقة الثانية من أمراء العرب فهم على مرتبتين. الأولى

"المجلس السامى" مثلما لقب الأمير شطى بن عمر بامرة آل مرا(١) مع اضافة الياء الى لقب الأمير. والمرتبة الثانية " المجلس السامى" بغير اضافة ياء الى لقب الامير مثلما الامير نوفل بن سعيد أميرا على عرب زبيد(٢). وجميعها تصدر بمرسوم من السلطان المملوكى. وكان للامراء العرب حق مكانية السلطان والاتصال الشخصى به بغير قيود.

فقد كان بعض الامراء العرب يقومون بمهام سياسية اما من تلقاء انفسهم او بتكليف من السلطان المملوكى، فمن امثلة دورهم السياسى مشاركة الامير عيسى بن مهنا فى احياء الخلافة واصلاح ما بين الامراء والسلطان وأيضا الوساطة لدى سلاطين المماليك للافراج عن معتقل منهم أو رد بعض ممتلكات مصادرة للبعض الاخر. أو للصلح بين بعض أمراء المماليك وبين السلطان والحصول على العفو السلطانى للبعض الآخر من امراء المماليك، الذين صدرت ضددهم احكام سلطانية لسبب أو لآخر وغير ذلك.

كذلك كان بعض هؤلاء الزعماء العرب يكفون من قبل السلطان فى بعض الاحيان، بالقبض على نائب الشام المملوكى الخارج عن طاعة السلطان فى مصر، وذلك مثل الامير موسى بن مهنا، الذى كلفه السلطان محمد بن قلاوون بالقبض على تتكز نائب الشام المملوكى فى عام ١٣٤٠/٧٤٠. كما شاركوا فى القضاء على الفتن، السياسية التى كانت تقع من قبل بعض نواب الشام من أمراء المماليك.

(١) القلقشندى، صبح الاعشى، ج ١٢، ص ١٣٠.

(٢) القلقشندى، صبح الاعشى، ص ١٢٤، ١٣٧.

وفى ظروف الحرب، كان للعرب وأمرائهم دور عسكري. فكانوا يشاركون فى المعارك الكبرى ضد الغزاة والمعتدين، ويشكلون ميمنة الجيش المملوكى أحيانا وأحيانا الميسرة بل كانوا فى بعض المعارك يشكلون قوة الدفاع الرئيسية كما حدث فى المعارك الحربية ضد العثمانيين فى شمال الشام، فى نهاية العصر المملوكى، مما دعا السلطان المملوكى لان يصدر مرسوما بنبياة حمص للقائد العربى ناصر الدين بن الحنش، الذى تصدى للعثمانيين وحاربهم بتشكيل من جيش مكون من الفرسان العرب ومن أهل الشام<sup>(١)</sup>.

وعلى النقيض مما تقدم عن العلاقات السياسية الطيبة التى ربطت بين الامراء العرب فى الشام وسلطين المماليك، الا انه كان يحدث احيانا مايعكر صفو تلك العلاقات لسبب أو لآخر، فنذكر مثلا، ماحدث بين الامير زامل أمير آل على -وهى احدى قبائل الشام- والسلطان الظاهر بيبرس، من جفوة واعراض من جانب الامير زامل بن على، فعزله السلطان من الامارة وصادر اقطاعه وأصدر أمره بالقبض عليه وهو فى حلب، وبعثوا به الى القاهرة، معتقلا، وذلك بسبب اعنائه واعراضه، وخروجه عن الطاعة وخلافاته مع أبناء عمومته من أمراء العرب فى الشام. الا ان السلطان سرعان ماأفرج عن الامير زامل، فأخرجه من معتقله، وأصلح مابينه وبين أبناء عمومته، ونال الحظوة لديه،حتى أنه لعب مع السلطان فى الميدان، واعاده الى امارته، ورد عليه اقطاعه. وعلى الرغم من عفو السلطان عن الامير زامل وحسن معاملته له فان هذا الامير العربى لم يلبث ان خرج عن الطاعة، من جديد، واشاع عدم الاستقرار فى البلاد وهاجم ممتلكات احد ابناء عمومته فى الشام، واعترض

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص ١٠٥٢.

طريقَ بعض سفراء السلطان المكلفين بمهمة رسمية خارج البلاد الشامية، واستولى على ما معهم من مستندات واتجه بها الى التتار - حكام العراق في ذلك الحين - وحصل منهم على اقطاع له بالعراق (١). فلما علم بذلك السلطان، أخذ منه اقطاعه، ومنحه لاحد اخوة زامل. ولما أراد زامل العودة الى طاعة السلطان، بعث يلتمس العفو من السلطان فحدد له السلطان، موعدا يحضر فيه فاذا تخلف عنه، فلا عهد ولا ايمان للامير، فحضر الامير زامل الى القاهرة، وكان الميعاد المحدد له، من قبل السلطان قد انتهت مدته فقبض عليه وأعتقل بقلعة الجبل. ونحن نرجح ان من أهم أسباب افراج السلطان عن الامير زامل واعادته الى مكانته واللعب معه في الميدان، هو الادوار البطولية التي قام بها هذا الامير في دفاعه عن بلاد الشام ضد التتار.

مثل آخر لهذه العلاقات مع الامير زامل هذا، هو ما حدث في معركة الرستن التي تقع بين حماة وحمص والتي وقعت في عام ١٢٦٠/٦٥٩ حينما عاود التتار الهجوم على بلاد الشام، للانتقام من هزيمتهم في، معركة عين جالوت فبرز اليهم الامير زامل يقود جماعة من فرسان العرب دفعهم صاحب حماة وحمص، وواقعا التتار على الرستن، فأفنواهم قتلا وأسرا (٢).

(١) ابن خلدون، العبر، المجلد ٥، ص ٩٤١، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٥، ص ٥٣٥.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ١ ق ٢، ص ٤٤٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٠٩، ١٠٤.



أما أسباب جفوة الامير للسلطان فنرجح انها تعود الى مقتل السلطان قطز بتدبير من بيبرس<sup>(١)</sup>. وقد خرج على بيبرس أيضا عقب توليه عرش السلطنة نائب الشام سنجر الحلبي الذي كان ولاء قطز نيابة الشام. وتلقب بالملك المجاهد، واجتمع معه نواب دمشق واخرين غيرهم، ولم يشأ السلطان بيبرس ان يترك عرب الشام بغير أمير يسوسهم بعد عزل الامير زامل عن الامارة، فعين مكانه الامير عيسى بن مهنا ابن عمه على احياء جميع العرب بالشام وكلفه بالعمل على استتباب الامن في البلاد. وقد لعب الامير عيسى بن مهنا دورا سياسيا هاما في إحياء الخلافة العباسية في مصر وذلك عندما حضر الى مصر مع جماعة من أمراء العرب وبصحبتهم أبو القاسم أحمد بن علي الخليفة المستنصر بالله العباسي، الذي كان معتقلا في بغداد بأمر من الخليفة المستنصر بالله العباسي، ثم تمكن من الفرار من المعتقل، وقدم الى مصر مع وفد الأمراء، العرب يتقدمهم الامير عيسى بن مهنا وقابلهم السلطان الظاهر بيبرس في ٨ رجب من عام ٦٥٩/١٢٦١. واحتفلت مصر بقدوم الخليفة العباسي ثم بويع بالخلافة<sup>(٢)</sup>. ثم قام الخليفة بكتابة تقليد بالسلطنة للظاهر بيبرس على مصر

(١) ذكر ابن اياس في كتابه، بدائع الزهور، أن الناس حزنوا على قطز، لانه قتل من غير موجب، وكان له فضل تعرض صفوف المسلمين ورفع همهم لمواجهة التتار، ومحاربتهم وردهم عن البلاد بعد ان اجتاحوا الشام وأشرفوا على الدخول الى مصر.

(ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٨١).

(٢) المقرئى، السلوك ج ١ ق ٢، ص ٤٤٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧،

والشام وديار بكر والحجاز واليمن والعراق، في ١٧ رجب من نفس عام  
١٢٦١/٦٥٦ (١).

\* \* \*

وبادىء ذي بدء، نذكر زعماء قبائل عربية في العصر المملوكي، استمر  
الحكم المملوكي معترفا بزعامتهم، ويعتبرون امتدادا لزعامتهم التي امتدت الى  
ما قبل هذا العصر، فنذكر زعماء، من قبيلة آل ربيعة، وهم بطن من طيء عرب  
الجنوب القحطانية، وينسبون الى جد لهم اسمه ربيعة (٢)، وكان يعيش ابناؤه في  
أيام صلاح الدين، شاركوا في حروبه ضد الصليبيين في بلاد الشام، وقد  
استشهدوا في تلك الحروب (٣).

فقد أنجب ربيعة أربعة أبناء هم : فضل الذي كان له فرعان هما آل  
مهنا، وآل علي ومرا وثابت ودغفل. ومن هؤلاء تفرعت فروع من آل  
ربيعة (٤). وهم الذين أصبح لهم دور سياسي في العصر المملوكي معترف به.  
وبالإضافة الى ذلك فإنه كان من هؤلاء الذين ذكرناهم، يوجد أعيان ذوو  
مكانة مرموقة، وأول من ظهر في عهد المعز أيك أول سلطان في دولة  
المماليك البحرية في مصر، والى عهد المنصور قلاوون، زامل بن علي بن

(١) ابن تفرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١١١، ١٢٣.

(٢) القلقشندي، نهاية الارب، ص ١٠٠، عمر كحالة، معجم القبائل، ج ٢، ص ٤٢١،  
بيروت سنة ١٩٦٨.

(٣) عماد الدين الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ١٥٣ ط. القاهرة.

(٤) ابن خلدون، العبر، مجلد ٢، ص ٥٣٢، ط. لبنان ١٩٧٧.

حديثه أمير آل علي (١). وأخوه أبو بكر بن علي من أمراء آل علي أيضا (٢).  
وأحمد بن حجي، أمير عريان آل مرا بالبلاد القبلية في جنوب الشام (٣). وعيسى  
بن مهنا، أمير عريان آل فضل بالبلاد الشرقية والشمالية (٤). وجميعهم تولوا  
مناصب قيادية بين عرب الشام مثل رئيس قبيلة، أو أميرا لها. فهم سادات  
العرب ووجهها. نالوا المكانة العالية عند سلاطين المماليك. فمن مظاهر  
التكريم المملوكي لهم أنهم (طلبوا من السلطان الناصر في المدة الثالثة من أيام  
حكمه في السلطنة، بلاد أمراء حلب وحماة ودمشق، فأنعم عليهم، وعوض  
الأمراء عنها حتى صاروا من الكثرة بحيث يخافهم، من عداهم من سائر العرب.  
فكانوا إذا رحلوا إلى مشاتهم أو مصائفهم تكون أموالهم من الذهب والفضة ملء  
رقاب الجمال (٥).

وبسبب تعاون هؤلاء الزعماء العرب مع الحكام المماليك في بلاد الشام،  
نالوا الكثير من التقدير والاجلال، وكثيرا ما قدم لهم السلاطين من الهدايا  
والضيافة حين توجههم إلى القاهرة، في مقر السلطنة مايفوق الحصر (٦).

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٢٠٣.

(٢) نفسه، ج ٤، ص ٢٠٣.

(٣) القلقشندي، ج ٤، المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٩٠، ص ٧٨٥.

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٢٠٥.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٢٧.

(٦) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٢٠٥.

وذكر القلقشندي، انه كانت توجد ميزانية ثابتة للامراء العرب للانفاق عليهم فى مناسبات ضيافتهم فى مصر(١).

وذكر القلقشندي أيضا أن احد الوفود العربية الشامية التى نزلت دار الضيافة بمصر فى عهد المعز أيبك بلغ ماأنفق عليها ستة وثلاثون ألف دينار(٢). وفى عهد الظاهر بيبرس وفد عليه جماعة من آل ربيعه وغيرهم من عرب الشام (فحصل لهم من الضيافة فى المدة اليسيرة اكثر من هذا المقدار)(٣). ولاشك أن نظرة الحكام المماليك الى عرب الشام قد اختلفت عن نظرتهم الى عرب مصر اختلافا كبيرا(٤). لان عرب الشام اتخذت موقفا ايجابيا تجاه دولة سلاطين المماليك منذ أول لحظة اظهروهم فى بلاد الشام وتعاونوا معهم، وذلك لضعف القوى الأيوبية، امام التهديد الخارجى لبلاد الشام، ومواجهة قوى الجيش المملوكى، للعدوان الخارجى ودحره. ولم يتردد، زعماء قبائل العرب فى الشام فى تشكيل قوة عربية ضاربة اتضمت الى صفوف الجيش المملوكى للدفاع عن بلاد الشام.

واما عرب مصر فكانوا يرون أنهم أحق بالحكم من المماليك، لان المماليك أرقاء مجلوبين خرجوا على الدولة الايوبية، وهم عرب احرار حاربوا

(١) القلقشندي، نهاية الارب للقلقشندي، ص٢٠٧.

(٢) نهاية الارب للقلقشندي، ص١٠٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) راجع ماورد فى هذا الشأن فى الرسالة المقدمه من محمود محمد السيد للحصول على درجة الماجستير، وعنوانها (تاريخ القبائل العربية فى مصر فى عهد الدولتين الايوبية والمملوكية) جامعة الاسكندرية، ص٢١٠٠.

فى صفوف الايوبيين. ولذلك تعددت ثورات العرب فى مصر ضد الحكم المملوكى، فيما عدا الفترات الحرجة من تاريخ مصر والشام. فقد كان العرب فى مصر يتقدمون فرسانا ورجالة ويشكلون قوة دفاعية مع الجيش المملوكى متناسين خلافاتهم فى سبيل صد الخطر الخارجى ومواجهة العدو صفا واحدا(١).

\* \* \*

كذلك من مظاهر الاجلال لزعماء عرب الشام، اقطاعهم، فقد كان سلاطين الممالك يقطعون بعض زعمائهم، مدنا بأكملها، مثلما اقطعت سلمية بشمال الشام، للأمير عيسى بن مهنا، من قبيلة آل فضل، من قبائل الشام(٢)، بل انه فى أواخر الدولة المملوكية حظى بعض الأمراء العرب بوظيفة نائب للسلطان فى المدينة مثلما حدث للسلطان طومان باى عندما أصدر مرسوما للأمير ناصر الدين بن الحنش أمير عرب الشام. بنابة حمص فى رمضان عام ٩٢٢/اكتوبر ١٥١٦(٣).

وعلى العكس مما كان يوجد فى الشام من اقطاع كبير للعرب وولايتهم للمناصب السياسية الكبرى حتى صاروا نوابا للسلطان، فى بلاد الشام. فان مصر لم يكن يوجد بها اقطاع بالصورة التى كان عليها للعرب فى بلاد الشام،

(١) راجع ماورد فى هذا الشأن فى الرسالة المقدمة من محمود محمد السيد للحصول على درجة الماجستير، وعنوانها (تاريخ القبائل العربية فى مصر فى عهد الدولتين الايوبية والمملوكية) جامعة الاسكندرية، س ٢١٠٠.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٢٠، ابن خلدون، العبر، ج ٥، ص ٨٢٠، ابن تعزى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٣٠٣، ٣٦٣، الحلبي، أعلاه النبلاء، ص ٢٩٤.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٩، ص ١٠٥٢.

وانما هي غالباً الاراضى (السباخ) الغير صالحة للزراعة وتمنح اقطاعاً للعرب، ثم يقومون باستصلاحها حتى تصير صالحة للزراعة، أو يجعلوها لرعى مواشيهم وابلهم، وعادة ماتكون فى حدود بضع مئات من الافدنة، وهى غالباً فى اقليم الصعيد من جنوب مصر أو اقليم الشرقية(١).

وفى عهد الظاهر بيبرس، حظى عرب الشام من آل ربيعة أكثر مما حظى أسلافهم من قبل(٢). وازدادت علاقة عرب الشام بالسلطين توتقا حتى أن العطايا- وهما غير الاقطاع- (كانت تفيض عليهم فيضا من الذهب العين، والدرهم مئات الألوف، والخلع الأطلسى والذهب وأنواع المزركش لنسائهم، السكر المكرر والاشربة المختلفة بالقناطير المقنطرة...." ومع ما يطلق لهم من الاموال الجمة فى الشام، ويقطع باسمائهم من المدن والبلاد، ويملك لهم من القرى والضياح، ويعطى علماءهم، ويجرى عليهم من الاقطاعات لهم واللائذين بهم مع مؤاكلة السلطان، لهم مدة اقامتهم بحضرته غداء وعشاء والدخول عليه فى المحافل والخلوات وملازمته فى اكثر الاوقات(٣).

\* \* \*

أما عن اشتراكهم فى جيش المماليك، فان جيش الشام، كان منذ الفتح العربى يتكون من جنود ينسبون الى قبائل مختلفة، وكان منظماً على اساس انضمام الجنود من قبيلة واحدة معاً، بحيث يكونون ككتيبة(٤) واحدة احياناً مثل آل

(١) ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الامصار، مجلد ٤، ص ٥، ص ٤٥، القاهرة ١٣١٠ هـ.

(٢) القلقشندي، نهاية العرب، ص ١٠٢، صبح الاعشى للقلقشندي ج ٤، ص ٢٠٣.

(٣) القلقشندي، نهاية العرب، ص ١٠٣.

(٤) الكتيبة: ما جمع فلم ينتشر، وعددها من مائة الى الف (النويرى، نهاية، ج ٦، ص ١٨٩).

مرا وكان عددهم فى جرائد الدولة المملوكية ١٠٠٠ افارس (١). وأحيانا يكونون جيشا (٢) قوامه ٤٠٠٠ فارس وهم آل مرا ايضا وهم وان لم يرد فى القوائم السلوكية غير ألف من آل مرا، الا أن المؤرخ المقرئى ذكر أن عددهم بلغ فى احدى المعارك الحربية ضد التتار أربعة آلاف فارس (٣).

وكان هذا التنظيم يتمشى مع الاوضاع الاصلية للاجتماع العربى، يضمن الاتسجام والتكاتف بين افراد الكتيبة الواحدة. وظل تنظيم العرب فى الجيش المملوكى بنفس النظام القديم، أساسه القبيلة، ليقطع الطريق على أى فرصة للخلاف داخل الكتيبة الواحدة.

وقد أورد المؤرخ غرس الدين خليل بن شاهين فى كتابه، "زبدة كشف الممالك" وصف الجيش المملوكى فذكر انه ينقسم الى قسمين، احدهما ديوان الجيش الشامى والآخر، ديوان الجيش المصرى. على أن هذين الديوانين يشتملان على الجنود المماليك والعرب ومن التركمان والاكراد وغيرهم، ثم ذكر ابن شاهين قبائل العرب المقيدة فى جرائد الجيش المملوكى - وهى القوائم - وبدأ بآل فضل يليهم آل مرا ثم آل على وبنى عقبه وبنى مهدى والعائذ. وبلغ عددهم جميعا تسعة وعشرون الفا مابين فارس وراجل (٤).

أما عن أسلحة العرب فى الشام : السيف والرمح والقوس والترس، وكانت لهم عناية كبرى فى استخدامها.

(١) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٥.

(٢) الجيش : ماكان عدده من الف الى أربع، الاف (النويرى، نهاية الارب، ج ٦، ص ١٨٩.

(٣) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٩٠.

(٤) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٥.

وفى العصر المملوكى، كانت قبائل العرب تلبى نداء الحرب شاكين السلاح، على متن الخيول المسومة، لابسين الدروع الحديد وفوقها معطف(١) قصير مصنوع من القطن او الحرير المبطن وعلى رؤسهم الخوذ الحديد لوقاية الرأس، مقلدين سيوفهم وبأيديهم الرماح وخلفهم (الظعائن والحمول)(٢).  
 وأما الخيول فكان للعرب عناية فائقة بها، لان العرب أهل فروسية، وخيول العرب مشهورة بخفتها وسرعتها وسهولة قيادتها، وكان الفرس، الوسيلة الرئيسية فى قتال العدو والنيل منه(٣). وكان القواد، يوصون رجالهم أن يعتنوا بأفراسهم مثل عنايتهم بنسائهم، بل وأكثر(٤).  
 وظل العرب يهتمون بخيلهم حتى العصر المملوكى ونتج عن هذا الاهتمام باقتناء الخيول وتربيتها ان حظى العرب بهبات السلاطين، وعطاياهم أمثال الظاهر بيبرس ومحمد بن قلاوون.

(١) المعطف : يسمى الكزغند وهو المعطف القصير يلبس فوق الزردية، ويصنع من القطن المبطن المنجد والجمع كزاغنديات، وهو لفظ فارسى. (المقريزى، السلوك، ج ١ ق ١، ص ٢٥٣هـ).

(٢) المقريزى، السلوك، ج ١ ق ٣، ص ٦٩٠، كان العرب فى حروبهم يضربون المصاف وراءهم، أى انهم كانوا يتركون ابلهم ومواشيهم، وعيالهم وأثقالهم من خلفهم دفعا لهم المقاتلين وثباتهم فى قتال عدوهم (المختار من سيرة بن هشام، ابراهيم الابيارى، ص ١٠١، محمود شيت خطاب، عقبه بن نافع الفهرى، ص ٦٧ القاهرة ٧١٠).

(٣) ابن خلدون، المقدمة ص ٢٧٢، ٢٧٣.

(٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٤٣.



ومارس فرسان عرب الشام أسلوب الكر والفر فى حروبهم مع أعدائهم واشتهروا بالشجاعة والاقدام والضرب بالسيف والرشق بالسهام، واستخدموا الترس(١). والمقلاع والنشاب والحجارة(٢).

وكذلك كان للعرب وحدهم فى الشام، المقدرة الفائقة على استخدام الموانع المائية، مثل الاتهار كسلاح للحصار ضد المهاجمين، مثلما حدث فى معارك أمير عربان حماه، ناصر الدين بن الحنش، وذلك عندما أطلق على الجنود العثمانيين الماء من أنهار دمشق، ليعوق حركتهم. وقد تمكن بذلك من هزيمتهم، حتى أن السلطان طومان باى، أصدر أمرا بنباية حمص، لابين الحنش(٣). تقديرا لشجاعته فى الدفاع عن بلاد الشام ضد العثمانيين، ولم يحدث مثل ذلك فى معارك الشام من قبل فى العصر المملوكى.

واستخدم العرب طريقة جديدة أخرى ضد العثمانيين فى الشام، حين منعوا عنهم الشعير والقمح والتين، وحاصروا الجنود العثمانيين ( وكل من خرج الى الضياع قتله العرب)(٤). وصارت خيول العثمانيين، (سائبة تأكل من ورق الاشجار وهى فى غاية الحصر)(٥).

لقد كان للعرب كيانهم البارز فى بلاد الشام وكان لهم بالتالى، دورهم الواضح فى شؤونه المختلفة فى ظروف الحرب والسلام على السواء.

(١) المقرئزى، السلوك، ج ٢ ق ٣، ص ٩١٣، ابن اياس، بدائع، ج ٣، ص ٢٨٦، ج ٩،

ص ١٠٧٠.

(٢) المقرئزى، السلوك، ج ١ ق ٢، ابن اياس، بدائع، ج ٩، ص ١٠٨١.

(٣) ابن اياس، بدائع، ج ٩، ص ١٠٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٥٥.

(٥) نفسه.

واشتغل العرب من البدو مثل قبائل جذام، وكان لهم بطون كثيرة بالاردن، والجولان فى بلاد الشام، بأعمال الحراسة، فقاموا، بحراسة الطرق وحماية القوافل التى تمر بأراضيهم من اللصوص وقطاع الطرق، مقابل مبلغ من المال يدفع لهم<sup>(١)</sup>. وكان بنو عقبة<sup>(٢)</sup> يتولون الحراسة فى المنطقة التى تقع بين مصر، والحجاز الى حدود غزة<sup>(٣)</sup>، ثم زييد مساكنهم بالمرج والغوطة، من ضواحي دمشق. وكانوا يقومون أيضا بأعمال الحراسة وحفظ الأطراف<sup>(٤)</sup>.

ومن الجدير بالذكر ان شيخ الاسلام أحمد بن تيمية شهد للعرب، عامة وبنى عدى خاصة وهم من عرب الشام، بالصلاح والتقوى، وبأنهم أهل قتال مجاهدون<sup>(٥)</sup>. وأجاز للعرب قيامهم بتحصيل مبلغ من المال، من القوافل المارة عبر الصحراء، نظير حمايتهم لتلك القوافل ومن فيها<sup>(٦)</sup>.

\* \* \*

(١) المقرئى، البيان والاعراب، ص ١٨، القلقشندى، نهاية الارب، ص ٣٦٤، قلائد الجمان للقلقشندى، ميكروفيلم رقم ٣٨١ معهد المخطوطات.

(٢) بنو عقبة : هم بنو عقبة من مخزومة، بطن من جذام من القحطانية، وكانت ديارهم من الكرك الى الازلم من بريا الحجاز، وعليهم درك الطريق ما بين مصر والمدينة المنورة الى حدود غزة (كحالة، ج ٢، ص ٧٩٧).

(٣) القلقشندى، نهاية الارب، ص ٣٦٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

(٥) ابن تيمية، مجموعة الرسائل الكبرى، ص ٢٧٢، القاهرة ١٣٣٢ هـ.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٦.

لم تلبث الجهة الاسلامية التي أقامها في مصر والشام السلطان الناصر صلاح الدين، أن تفككت بعد وفاته، وتمزقت الوحدة التي قضى معظم حكمه يرعاها ويتعهدهما، ووجد الخلف بين حكامها من ابناء وأخوة صلاح الدين(١). فضعفت شوكة الاسلام في عهد خلفائه.

ومن هنا قوى عزم الامراء المماليك في مصر على التصدى لمواجهة الاخطار التي تعرضت لها البلاد واستطاعوا ان يوحدوا الجبهة الداخلية في كل من مصر والشام، وقد اتضمت قبائل العرب في الشام ومصر الى جيش المماليك وكونوا جبهة متحدة تمكنت من مواجهة الاعداء ودحرهم. وأعاد المماليك وحدة مصر والشام في ظل دولة سلاطين المماليك. وظل المماليك يسيطرون على بلاد الشام، بعد أن استمالوا اليهم أمراء قبائل عرب الشام. وظلت قبائل الشام، خلال عصر سلاطين المماليك، جنودا مدافعين عن بلاد الشام منذ معركة عين جالوت، حتى معركة قابون في عهد طومان باي.

وتفصيل ذلك ان أبناء البيت الأيوبي قسموا الشام فيما بينهم وجعلوا منه ممالك مستقلة، فلما بلغهم استيلاء الاثراك المماليك على مصر وولاية عز الدين أيبك عرش السلطنة، أجمع حكام الشام أمرهم على استدعاء الملك الناصر يوسف حاكم دمشق وحلب الى دمشق، ويبيعوا له بدمشق، وكلفوه باسترداد مصر لبني أيوب.

وفي عام ١٢٥٠/٦٤٨ خرجت جيوش الشام لملاقاة جيش المماليك في مصر والتقى الجمعان في العباسية، ودار القتال بين الفريقين، وانتهى القتال لصالح المماليك.

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٣، ص٥٨، ٤١٢.

وفى عام ١٢٥٣/٦٥١ بعث الخليفة المستعصم العباسى برسول استطاع أن يصلح بين الطرفين. وتم الصلح ورسمت الحدود لمصر والشام. ثم تجدد الصراع واستمر عدة سنوات. وأخيرا انتهى بينهما على ان يكون الشام للأيوبيين، ومصر للمالكيك<sup>(١)</sup>.

وفى عام ١٢٥٨/٦٥٦ كانت بغداد وبها الخليفة المستعصم بالله العباسى. وكان التتار يسيطرون على خراسان وماوراء النهر، وخوارزم وخراسان وفارس ومعظم بلاد الشرق<sup>(٢)</sup>.

وفى ربيع الثانى من عام ٦٥٥ ابريل ١٢٥٧ بعث هولوكو الى الخليفة المستعصم برسالة يدعو فيه الى تسليم نفسه وعاصمته بغداد الى التتار، والا فان الحكم للسيف. ولم يعط الخليفة العباسى الاهتمام الواجب لمواجهة خطر التتار. وفى عام ١٢٥٨/٦٥٦ هاجم التتار بغداد بقيادة قائدهم هولوكو، وملكوها وقتل الخليفة المستعصم بالله شهيدا<sup>(٣)</sup>.

ثم اتجه نظر هولوكو بعد ذلك الى الشام ومصر وبدأ هذه الخطوة بارسال خطابات تهديد الى حكام الشام ومصر. وفى عام ١٢٥٨/٦٥٨ وصل الى حلب

(١) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص ٥٨، وط.الهند ١٩٥٤، اسماعيل أبى الفداء، تاريخ أبوالفداء، ج ٣ ص ١٩٥، ١٩٩، ابن خلدون، العبر المجلد الخامس، ص ٨٠٩، ٨١٠، المقرئى، ج ١، ق ٢، ص ٣٥٨، ٣٧٢.

(٢) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص ٤.

(٣) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص ٨٤، اسماعيل ابو الفداء، تاريخ المؤيد اسماعيل، ج ٣، ص ٢٠٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢١٨، ابن خلدون العبر، المجلد ٥، ص ٨١٨، ٨١٩.

-وهى مفتاح الشام- ثم اضطرته الظروف للعودة الى بلاده تاركا لقائده كتبغا(١) اتمام مهمته الحربية فى الشام ومصر واتجه كتبغا نحو مصر وأرسل خطاب تهديد للمصريين لتسليم بلادهم(٢). وكان سلطان مصر فى ذلك الحين هو السلطان المظفر قطز الذى ولى السلطنة فى عام ٦٥٧/٣٥٩.

وعندما تقدم التتار ودنوا من حلب قوى عزم الملك الناصر على لقاء التتار، فجمع قواده واجتمع بهم فى برزه(٣). وكان معه الامير بيبرس. ثم بعث الناصر بأهله الى الكرك. وبعث الى قطز سلطان مصر طلبا للنجدة. ثم بعث قطز بخطاب الى الملك الناصر أطمأنت به نفس الملك الناصر. واجتمع مع الملك الناصر نحو مائة ألف مابين عرب وعجم(٤). ولكن لاختلاف الكلمة بين الجيوش، انسحب الملك الناصر صاحب دمشق الى الكرك واستعان ببعض العرب، فتعقبه التتار وأرادوا الانتقام من العرب، الا أن العرب قاموا بالهجوم على خيل جشارهم فى نبل راهط فى نصف شعبان من عام ٦٥٨/١٢٦٠ فأطلقوها بأسرها، فأسرع اليهم التتار فلم يدركوهم(٥).

(١) كان كتبغا عظيما عند التتار، يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره، وكان بطلا شجاعا مقداما خبيرا بالحروب وافتتاح الحصون والاستيلاء على الممالك وهو الذى فتح معظم بلاد العجم والعراق. ( ابن تغرى بردى، النجوم، ج ٧ ص ٩٠).

(٢) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص ٣٤٩، أبو الفداء، تاريخ ابى الفداء، ج ٣، ص ٢٠٩، المقرئى، ج ١ ق ٢، ص ٤٢٢، ٤٢٦، ٤٢٧.

(٣) برزة : قرية بالفوطة شمالي دمشق.(المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢١٩.

(٤) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٣.

(٥) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص ٣٥٠، ابن كثير، البداية ج ١٣، ص ٢١٩.

واما الامير بيبرس فانه انسحب من عند الناصر واتجه الى القاهرة وانضم الى قطز لقتال التتار فرحب قطز بالامير واستعدوا لقتال التتار. وانضم اليه ايضا الملك المنصور صاحب حماة(١).

وفى ١٥ شعبان خرج السلطان قطز بجيش للقاء التتار فى الشام ومعه الامير ركن الدين بيبرس(٢). والمنصور صاحب حماة، ومن انضم اليهم من عساكر الشام ومن العرب والتركمان(٣). واستدعى السلطان عرب مصر من البلاد الشرقية والغربية وأنفق على الجيوش من المماليك والعرب، بعد أن اجتمع بهم فى الريدانية شمال القاهرة(٤). وذلك أن العرب يعدون من جيش الدولة المملوكية(٥). وكذلك فان القبائل العربية فى الشام عنصر هام ومؤثر فى البلاد(٦). منهم بنو نعير وهم من آل فضل عرب الشام وبلغ عددهم وحدثهم أربعة وعشرون ألف مقاتل، فضلا عن قبائل الشام الاخرى من آل مرء وآل على وبنى عقبة وبنى مهدى والعائذ وغيرهم، وجميعهم ممثلون فى جيش الشام. وأما عرب مصر الممثلون فى جيش الدولة فان عددهم بلغ أربعة وعشرون ألف

(١) ابو الفداء، تاريخ أبى الفداء، ج٣، ص٢١١، المقرئى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٢٠.

(٢) اليونينى، نيل مرآة الزمان، ص٣٦٥.

(٣) ابن خلدون، العبر المجلد ٥، ص٨١٩.

(٤) ابن ايامس، بدائع الزهور، ج١، ص٧٩، الشيخ عبد الله الشرقاوى، تحفة الناظرين

فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، ط. ثانية، ص١٣٤، ١٧٤.

(٥) المقرئى، الخطط، ج٣، ص٣٥٠، جلال الدين السيوطى، حسن المحاضرة، ص٨٣.

(٦) المقرئى، السلوك، ج١، ق١، ص٢٤٧.

مقاتل من عرب هوارة فضلا عن قبائل أخرى بلغ عدد فرسانهم نحو ثلاثة الاف فارس(١).

وبعد ان اكتمل جمع الجيوش العربية في الصالحية، أصدر السلطان قطز أمره الى الامير بيبرس بالتوجه الى غزة للاستطلاع. فتوجه الى غزة، وكان بها جموع التتار، وكان العرب، في نفس الوقت الذي خرجت فيه الجيوش من مصر لقتال التتار بالشام يشنون الغارات على معسكرات التتار بالشام ويستولون على خيولهم. فاذا أحس التتار بالعرب اسرعوا خلفهم. ولكنهم لا يدركوهم، ولا يستطيعوا أن يستردوا من اسلابهم شيئا(٢). فلما سار السلطان قطز وقائد جيشه بيبرس ومن كان معهم من العرب من مصر في شعبان من عام ٦٥٨/يوليو ١٢٦٠ الى غزة ووصلت طلائعه اليها، خرج منها التتار واستولى بيبرس عليها(٣). ثم تقدم السلطان الى غزة وبقى بها يوما ثم رحل عنها الى عكا، مارا بطريق الساحل(٤).

أما التتار فكانوا في البقاع. وبلغ كتبغا قائدهم نبأ اجتماع جيش مصر في مرج عكا. فأصدر أمره بجمع من في الشام من التتار للقاء المسلمين في الغور(٥) كما انضم الى التتار بعض حكام الشام مثل الملك الاشرف صاحب حمص، وقد

(١) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، باريس ١٨٩٣، ص ١٠٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ٢١٩، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مجلد ١، ص ٣٥٠.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٩، ٤٣٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٣٠.

(٥) ابو الفداء، تاريخ أبي الفداء، ج ٣، ص ٢١٤.

بعث اليهم السلطان قطز يستميلهم اليه، فجاءه الرد من الاشراف صاحب حمص بالايجاب، ووعده بخذلان التتار عند اللقاء(١).

والثقت طلائع جيش المماليك ومن معهم من العرب وغيرهم بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس مع طلائع التتار، وكانت جيوش التتار قد اجتمعت فى أرض البقاع بقيادة كتبغا، والمسلمون فى عكا بقيادة السلطان قطز، استعدادا للمعركة الفاصلة، وبعث كل فريق بطلائعه، فالتفت طلائع المسلمين بطلائع التتار، فهزمت طلائع المسلمين التتار(٢).

ثم بدأ الفريقان يتحركان من مواقعهما. وفى ٢٥ رمضان عام ٦٥٨/ اغسطس ١٢٦٠ التقى الجمعان بالغور على عين جالوت(٣).

وعندما بدأت المناوشات والتحم الجيشان اضطربت ميسرة المسلمين، عندئذ اشتد حماس السلطان قطز، وحمل حملة صادقة فى طائفة عظيمة من المسلمين على التتار وتحيز الاشراف صاحب حمص-كسابق وعده للسلطان قطز-فانهزم التتار. وقتل أميرهم كتبغا فى المعركة، ولوا ظهورهم المسلمين يقتلونهم فى كل مكان. ومنهم من فر الى رؤس الجبال فتتبعهم المسلمون فأفنواهم(٤).

(١) ابن خلدون، العبر، المجلد ٥، ص ٨٢٠.

(٢) ابن خلدون، العبر، مجلد ٥، ص ٨١٩، ٨٢٠، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٠.

(٣) ابو الفدا، تاريخ ابى الفدا، ج ٣، ص ٢١٤، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٠.

وعين جالوت، قرية صغيرة من قرى فلسطين تقع بين نابلس وبيسان) (ابن تغرى بردى، النجوم، ج ٨، ص ٥٦).

(٤) ابن خلدون، العبر، مجلد ٥، ص ٨١٩، ٨٢٠، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٠،

اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص ٣٥٠، ابو الفدا، تاريخ ابى الفدا، ج ٣، ص ٢١٤.



وقد قدم السلطان قطز عقب انتهاء معركة عين جالوت الى أبطال المعركة وقادتها من أهل الشام من أمراء العرب وغيرهم المكافأة تقديرا لبسالتهم فى قتال التتار. فأعاد المنصور صاحب حماة الى حماة واطاف اليه المعركة وكانت قبلها تابعة لحلب وغيرها، وأعاد الملك الاشراف صاحب حمص الى حمص. ومنح مدينة سلمية للأمير عيسى بن مهنا أمير العرب، مكافأة له لبسالته فى المعركة(١).

وهكذا بفضل تعاون المماليك وقبائل العرب فى الشام ومصر، نجح المماليك والعرب فى ايقاف سيول المغول الجارفة التى اجتاحت حدود العالم الاسلامى والعربى من الشرق الى الغرب الاف الاميال دون عائق او ممانع ومكنتها الظروف من نسج أسطورة التهر الى أن قوضها المماليك والعرب فى عين جالوت، وعادت مصر والشام كما كانت فى عهد السلطان صلاح الدين دولة واحدة. هى دولة سلاطين المماليك التى استطاعت بفضل جهود بعض امراء عرب الشام احياء الخلافة العباسية وجعلت من القاهرة مقرا لها(٢).

وتتبع المسلمون التتار بقيادة الامير بيبرس يطاردونهم الى أن وصلوا خلفهم الى حلب، كما فر من بدمشق من التتار بعد سبعة أشهر وعشرة أيام من احتلالها(٣).

وعلم هولاءكو بهزيمة جيوش التتار وانسحابها من الشام فعزم على العودة الى الشام يحاول استعادتها من أيدي المسلمين فهزموا. والتقى

(١) ابن كثير، البداية، ج٣، ص٢١٩، ابن خلدون، العبر، مجلد٥، ص٨٢٠، المقرئى،

السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣١.

(٢) ابو الفداء، تاريخ أبى الفداء، ج٣، ص٢١٨، المقرئى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣٠.

(٣) المقرئى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣٣.

التتار والمسلمون فى معركة قرب بيسان(١). عقب معركة عين جالوت، فهزم المسلمون التتار للمرة الثانية.

ثم أقبل الأمير بيبرس، يبعث بالجنود فى كل ناحية من ثغور الشام، ويزودهم بالذخيرة والسلاح، حتى عجز التتار عن مواجهة أهل الشام، فولوا الاديبار منهزمين، بعد أن أطلقوا جميع الاسرى غير الغنائم والسلاح.

واستولى السلطان قطز على جميع بلاد الشام من الفرات الى مصر، ورتب أحوال الشام، فعين عليها النواب والولاة. ثم خرج من دمشق فى ٢٦ شوال من عام ٦٥٨/سبتمبر ١٢٦٠ يريد القاهرة. وفى ٢٥ ذى القعدة عام ٦٥٨/اكتوبر ١٢٦٠ اعلى بيبرس عرش السلطنة المملوكية، على أثر خلاف وقع فى صفوف أمراء المماليك، وتأثرت الاحوال السياسية فى البلاد الشامية ومصر(٢). مما شجع التتار على معاودة الكرة متوهمين ضعف الموقف الداخلى فى البلاد، ومحاولين استغلال تلك الظروف الجديدة للحصول على نصر سريع يمسحون به وصمة عار عين جالوت.

فى ٥ من المحرم من عام ٦٥٩/ديسمبر ١٢٦٠ عاود التتار الهجوم على الشام، وتقدموا نحو حمص وهم فى ستة الاف، فخرج اليهم الاشرف صاحب

(١) بيسان: تقع جنوب بحيرة طبرية، وكانت تابعة لدمشق، (غرس الدين خليل، زبدة كشف الممالك، ص ١٥٥).

(٢) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص ٣٧٠، ٣٧١، ٣٨١، اسماعيل أبو الفداء، تاريخ ابي الفداء، ج ٣، ص ٢١٥، ٢١٦، ابن كثير، البداية، ج ١٣، ص ٢٣٣، المقريزى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٥.

حمص، والمنصور صاحب حماة في الف وأربعمائة فارس، وتقاتل الفريقان بظاهر حمص، وانتصر المسلمون على التتار وفر بيدرا قائد التتار منهزماً(١).  
وقد ذكر المقرئزي ان معركة حمص هذه كانت على الرستن بين حماة وحمص وأن عرب آل فضل وأميرهم زامل بن علي شاركوا في القتال ضد التتار في هذه المعركة(٢).

وفي أواخر عام ١٢٦١/٦٥٩ خرج الامام احمد الذي تقلد منصب الخلافة الاسلامية ولقب المستنصر، وبتصديه تم احياء الخلافة العباسية في مصر.

خرج الامام احمد على رأس حملة عسكرية، انفق عليها السلطان بيبرس مائة وستون الف دينار، للتوجه لتحرير بغداد من التتار. وانضم الى تلك الحملة من قبائل الشام، عرب آل مهنا، ومن حكام شمال العراق، الملك الصالح حاكم الموصل والمجاهد اسحاق حاكم الجزيرة وحاكم سنجار ونحو سبعمائة فارس من التركمان وغيرهم.

وتوجه الخليفة وجنوده الى بغداد، والتقوا مع التتار قرب الأنبار وتقع على الفرات غرب بغداد- وذلك في أوائل المحرم عام ٦٦٠/نوفمبر ١٢٦٢ الا أن الحملة فشلت في مهمتها وعادت فلولها منهزمة ولم يعد المستنصر بعدها الى القاهرة(٣).

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ص ٤٣٤، اسماعيل ابو الفداء، تاريخ أبي الفداء، ج ٣، ص ٢١٨.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤٦٢، ٤٦٣، ابن تغري يردى، التجوم، ج ٧،

ص ١١٦، ابن اياس، بدائع، ج ١، ص ٨٤.

والواقع ان الحملة العسكرية التي قادها الخليفة المستنصر لمهاجمة التتار في بغداد على الرغم مما انفق عليها فانها لم يكن في استطاعتها التغلب على التتار، اذ انها كانت تحتاج الى امدادات متصلة من الجنود والسلاح، ذلك أن الحملة هزمت التتار اولا ثم خرج على الحملة كمين من التتار، فلم يصمدوا امام التتار غير قليل ثم تفرقوا، ولم يعرف للخليفة مكان.

وقد كانت العرب في الشام تكلف بشن الغارات على الاعداء كما كانت تقوم بدور الطلائع لاستكشاف أخبار الاعداء من التتار والصليبيين، ومعرفة تحركاتهم وتتبعها.

وقد استعان السلطان بيبرس في حروبه ضد أعدائه من التتار والصليبيين، بقبائل العرب باعتبارهم من جنود الدولة يقاتلون في صفوف الجيش في الحروب ضد الأعداء<sup>(١)</sup>.

وفي جمادى الاولى من عام ٦٧١/نوفمبر ١٢٧٢ كلف السلطان بيبرس - وكان مقيما بدمشق - جماعة من فرسان العرب في الشام مع جماعة من فرسان المماليك بالتوجه الى الرحبه، لتقصى أخبار التتار. وخرج السلطان من دمشق، واتجه الى حلب ثم الى نبع في شمال شرق حلب، لمتابعة اخبار التتار بنفسه، وعادت الطلائع تحدد موقع التتار وعددهم، فخرج السلطان على رأس حملة عسكرية، وتقابل جيش المماليك مع جيش التتار على رأس حملة عسكرية، وتقابل جيش المماليك مع جيش التتار على شط الفرات، فقتلوا منهم عددا كبيرا وأسروا نحو مئتين، وكان على البيرة مجموعة كبيرة من التتار، وعندما علموا

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٨٣، خليل بن شاهين، زبدة كشف المماليك،

بأخبار انتصار الجنود المماليك على الفرات، أسرعوا بالانسحاب عائدين، فوصلها السلطان بجنوده فى أواخر جمادى الأولى وخلع على نائب البيرة وفرق على أهلها مائة ألف درهم غير ما قدمه لهم من الغنائم التى تركها التتار عند انسحابهم منها، تقديراً لاستبسالهم فى الدفاع عن مدينتهم ضد التتار (١).

وفى شعبان من عام ٦٧٣/فبراير ١٢٧٤ كلف السلطان بيبرس الأمير مهنا بن عيسى مع احد قادة المماليك بشن غارة على بلاد التتار وتخريب ثغورهم، وقد نجحت الحملة فى مهمتها، ثم عبرت الحملة الفرات عائدة إلى الشام (٢).

وفى جمادى الأولى من ٦٧٤/نوفمبر ١٢٧٥ فتح السلطان بيبرس حصن القصر ويقع بين حارم وانطاكية- (٣) وذكر ابن تغرى بردى أن السلطان بيبرس كان قد كلف جماعة من فرسان من العرب والتركمان بمحاصرة الحصن قبل اقتحامه (٤).

وتعد معركة حمص الثانية من المعارك الفاصلة فى التاريخ، فى جمادى الأولى من عام ٦٨٠/أغسطس ١٢٨١ فى عهد السلطان قلاوون وردت للسلطان أخبار بمجىء التتار يريدون مهاجمة بلاد الشام فأسرع السلطان بالاستعداد لقتال التتار، وأصدر أوامره بالتعبئة، وجمع الجنود من سائر البلاد، فاجتمعت قبائل

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٥٩، ابن اياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج١، ص٩٠.

(٢) ابن خلدون، العبر، مجلد ٥، ص ٨٤٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص١٦٥.

الشام من آل عيسى بن مهنا وآل فضل وآل عزاء وأميرهم احمد بن حجي يتبعه نحو أربعة الاف فارس، يحملون اسلحتهم استعدادا لملاقاة التتار، وجعلوا الامير عيسى بن مهنا وآل فضل وآل مرا وعربان الشام ومن انضم اليهم، ميمنة الجيش، وجعلوا في رأس الميسرة جموع التركمان وجنود حمص الاكراد. ثم وردت للسلطان قلاوون قبل بدء المعركة معلومات هامة عن جيش التتار منها أن عددهم ثمانون الف مقاتل (١). بينما ذكر ابن تغرى بردى، أن عدد جيش التتار بلغ مائة ألف مقاتل وأن عدد جيش المسلمين كان النصف من ذلك (٢).

وفي ١٦ جمادى الآخرة، من عام ٦٨٠/سبتمبر ١٢٨١ خرج السلطان قلاوون من دمشق ثم اتجه الى حمص، وفي حمص علم السلطان بتقدم التتار، حتى وصلوا الى حماة. ثم تقدمت فرق التتار وكانوا ضعف جيش المسلمين، ولم يسبق لهم ان حشدوا مثل هذا العدد. وفي ٤ ارجب من نفس عام ٦٨٠/اكتوبر ١٢٨١ التقى الفريقان بوطأة حمص، قريبا من مشهد خالد بن الوليد، فاندفعت ميسرة التتار مقابل ميمنة المسلمين، بضراوة شديدة، فثبتوا لها ثبوتا عظيما، واندفعت ميمنة المسلمين تقابل الميسرة حتى هزمتها. ووصلوا الى القلب وبه منكوتر قائد التتار، واجتمع قلب جيش المسلمين مع الميمنة، وكان يقودها عيسى بن مهنا وهاجموا منكوتر قائد التتار حتى اضطروه الى الفرار منسحبا من المعركة.

(١) ابن خلدون، العبر، مجلد ٥، ص ٨٥٨، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٩١، ٦٩٤،

ابن اياس، بدائع، ج ١، ص ٩٦.

(٢) ابن تغرى بردى، التنجوم، ج ٧، ص ٩٦.

هذا بينما تمكنت ميمنة التتار من التغلب على الميسرة بجيش المسلمين وساقوا خلفهم حتى دخلوا حمص، وبعض مدن الشام. ولم تعلم ميسرة المسلمين بانتصار الميمنة، ولا علم التتار، بهزيمة ميسرتهم. ثم علم التتار الذين توغلوا في بلاد الشام بهزيمة منكوتر وانسحابه فأسرعوا بالانسحاب عاتدين لبلادهم تاركين وراءهم من الخيول والسلاح ما لا يحصى غنائم للمسلمين<sup>(١)</sup>.

وفي عام ١٣٠٢/٧٠٢ في عهد السلطان محمد بن قلاوون، كانت معركة مرج راهط-شرقي الغوطة بين التتار والمسلمين، وذلك أن التتار تسللوا الى حلب واعلنوا بها أنهم قدموا لشراء بعض ما يلزمهم من الطعام، حيث اصاب بلادهم الجذب، حيلة منهم وخديعة، فبعث نائب حلب بخبرهم الى السلطان. فأعلنت القاهرة التعبئة<sup>(٢)</sup>. فاجتمعت قبائل عرب جبل نابلس وعرب مصر وبلغ عدد الجيش من مماليك وعرب نحو مائتي ألف، بينما كان عدد التتار يبلغ مثل ذلك العدد أو أكثر<sup>(٣)</sup>. ثم تلاقى الجيشان على مرج راهط شرقي الغوطة، واشتد القتال بين المسلمين والتتار، ثم انتهت المعركة بانتصار المسلمين، وأسروا من التتار نحو الثلث، واستشهد كثيرون من الجنود المماليك والعرب، ثم عاد السلطان محمد بن قلاوون من أرض المعركة متجها شمالا الى دمشق

- 
- (١) ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، ص ٨٥٨، المقرئزي، السلوك، ج ١ ق ٣، ص ٦٩١، ٦٩٤، ابن تغري بردي، النجوم، ج ٧، ص ٣٠٧، ابن اياس، بدائع، ج ١، ص ٩٦.
- (٢) ابن تغري بردي، النجوم، ج ٨، ص ٥، ابن اياس، بدائع، ج ٢، ص ١٢٨.
- (٣) المصدر نفسه.
- (٤) نفسه، ج ٢، ص ١٢٣.

يرافقه الخليفة العباسى المستكفى بالله والقضاة فأقام بها اياما. ثم عاد الى القاهرة يسبقه اليها الغنائم والاسرى من التتار (١).

ولما اجتاحت جيوش التتار بقيادة تيمورلنك بغداد فى عام ١٣٩٩/٨٠٢ ووصلت اخبارهم الى السلطان المملوكى فى مصر، أصدر أوامره الى نواب دمشق وطرابلس وصفد للتوجه بقواتهم الى حلب للدفاع عن البلاد وضد التتار المهاجمين.

وفى عام ٨٠٣ تقابل جيش الشام مع جيش تيمورلنك فى شمال حلب، فتغلب عليهم تيمورلنك. واكتسحت جيوشه مدينة حلب ثم حماة (٢).

وعلى الرغم من أن اخبار تيمورلنك وصلت الى السلطان فرج الا انه تغافل عنها حتى تمكن تيمورلنك من البلاد. ثم بدأ السلطان فى الاستعداد واعداد الجيش لملاقاة جيش تيمورلنك، فخرج الجيش فى ربيع الاخر من عام ٨٠٣/ديسمبر ١٤٠٠ من القلعة فى موكب عظيم، واتجه الى الريدانية ثم الى غزة. وفى ربيع الاخر ايضا خرج من غزة الى دمشق، وفى دمشق وردت الاخبار الى الناصر فرج، بأن الأمير ابن رمضان أمير التركمان تمكن من طرد جنود تيمورلنك من حلب (٣).

كما وردت الاخبار الى دمشق بأن عربان جبل نابلس قتلوا جماعة كثيرة من جنود تيمورلنك الذين كانوا فى طريقهم الى طرابلس بأمر من تيمورلنك،

(١) ابن تغرى بردى، النجوم، ج ٨، ص ٥، ابن اياس، بدائع، ج ٢، ص ١٢٣.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٨٣، ٢٨٥.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٨٦.



وكان مقيما بالقرب من سلمية، ثم ضلوا الطريق وتاهوا بين الجبال، فتمكن منهم عرب نابلس<sup>(١)</sup>. فقتلوا كثيرا منهم بالنشاب والحجارة وفر الباقون.

وفي جمادى الاولى من عام ٨٠٣/يناير ١٤٠١ وكان الناصر فرج مقيما بدمشق، ظهر جماعة من جنود تيمور لك بلغ عددهم نحو ألف فارس، فخرج اليهم جماعة من ممالك السلطان في نحو مائة فارس، وتقابل الفريقان فانهزم جنود تيمور لك، وانسحبوا مسرعين<sup>(٢)</sup>.

وفي جمادى الاخر من نفس العام. لم يستطع الجيش المملوكي، التغلب على تيمور لك واضطر الى العودة الى القاهرة، ولما قوى عزم السلطان للخروج ثانية للشام لطرد تيمور لك، اجتمع معه من امراء العرب في الشام الامير نعيم بن حيار أمير آل فضل، وكثيرا من عرب حارثة، ومن قبائل الشام واجتمع مع السلطان الناصر فرج من قبائل عرب الشام خمسة الاف فارس من عرب آل فضل، ومن قبائل عرب مصر ستة آلاف فارس من عرب البحيرة، والى وخمسماية فارس من عرب بنى وائل، وخمسماية فارس من عرب الشرقية فصار عدد الفرسان الذين انضموا لجيش السلطان سبعة الاف من فرسان العرب ومصر. وبعد ان صرف السلطان مرتبات الجنود استعداد للعودة للشام للاقاء تيمور لك<sup>(٣)</sup>.

وفي ١١ جمادى الاولى، كان تيمور لك قد اتجه الى دمشق بجيشه فأسرع أهلها باغلاق ابوابها، وتسلقوا الاسوار، وبدأوا يقاتلون جيش تيمور لك.

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٨٦.

(٢) نفسه.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٨٧، ٢٨٨.

من خلف أسوار دمشق، وقد اشتد القتال، واستطاع الإهالي ان يقتلوا فى تلك المعركة، نحو الفين من جنود تيمور لنك.

ولما لم يجد تيمور لنك سبيلا الى التغلب على المدينة بالقتال لجأ الى استخدام الحيلة، بطلب الصلح بقصد الخدعة. وكاد أهل دمشق ان يرفضوا الصلح مع تيمور لنك، ولكن انقسموا فريقين، وأخيرا تغلب الفريق الذى يرأسه القاضى بن مفلح وهو الذى خدعه تيمور لنك عندما اجتمع معه للصلح وهو يضمم الشر للمدينة وأهلها، لانه كان مخادعا يظهر غير ما يبطن(١)، صار تيمور لنك يتلطف فى القول مع بن مفلح ومن كان معه من أعيان دمشق وكانوا خمسة أفراد حتى قبلوا ان يفتحوا له ولجيشه أبواب دمشق. وفتحت ابواب دمشق للاعداء بغير قتال. أما قلعة دمشق فظلت تقاتل ضد الغزاة مدة شهر تقريبا. ثم سلمت القلعة والمدينة بأسرها(٢).

وفى رجب من عام ٨٠٣/مارس ١٤٠١ كانت دمشق تحت سيطرة تيمور لنك بجيوشه، وصاروا يعملون فى السلب والنهب والقتل والاسر دون تفرقة بين الاطفال الرضع والشيوخ والعجائز حتى رحلوا عنها فى شعبان من عام ٨٠٣/ابريل ١٤٠١ ثم أرسل تيمور لنك كتابا الى السلطان فرج يعتذر له عما حدث وسأله الافراج عن أحد رجاله المعتقلين بالقاهرة، مقابل افراج تيمور لنك عن جميع من عنده من الاسرى. ثم نفذ الطرفان الاتفاق وأفرج عن جميع الاسرى مقابل الافراج عن الامير الذى كان معتقلا بالقاهرة، وتبادل كل من تيمور لنك والسلطان فرج الهدايا(٣).

(١) احمد بن عبدالله الدمشقى، عجائب المقدور فى أخبار تيمور، القاهرة ١٢٨٥، ص ٢٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٨، ٢٨٩.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٩٢.

وكانت غزوات سلاطين المماليك ضد الصليبيين كثيرة بدأت منذ عهد الظاهر بيبرس. وقد شاركت قبائل الشام في تلك المعارك ضد الصليبيين - فقد كانت تلك القبائل العربية الشامية عنصر هام ومؤثر في البلاد (١) - ومن أمثلة ذلك، حصار عكا الذي قامت به حملة من فرسان العرب بالاشتراك مع جماعة من فرسان التركمان، بأمر من السلطان بيبرس في جمادى الاولى من عام ٦٦٣/مارس ١٢٦٥، وعادت بأسرى من الفرنج (٢).

وظلت تلك الغزوات المملوكية العربية مستمرة ضد الصليبيين حتى تكاملت فتوح بلاد الساحل بأجمعها في عهد الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩/٦٩٣ - ١٢٩٠/١٢٩٣) (٣) ففي ربيع الآخر من عام ٦٩٠/أبريل ١٢٩١ كان حصار عكا الذي انتهى بسقوطها في ١٧ جمادى الاولى من نفس العام في أيدي المسلمين. وقد ذكر ابن تغرى بردى أن المتطوعين من العرب في حصار عكا كان يزيد عن عدد جنود الجيش المملوكي (٤).

وكذلك ذكر ابن اياس ان الصليبيين في عكا كانوا قبل فتحها يقطعون الطريق على المسافرين، ويستولون على اموال التجار ويقتلون كل من لقوه من المسلمين (٥). وكانت عكا اخر مدينة حصينة بالشام انتزعتها المسلمون من الصليبيين.

(١) المقرئى، السلوك، ج ١ ق ١، ص ٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه، ج ١ ق ٢، ص ٥٢٧.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ١٧٨.

(٤) ابن تغرى بردى، النجوم، ج ٨، ص ٥.

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ١٠٣.

ومن المعارك الحربية التي وقعت في الشام أيضا، وتكشف أحداثها عن الدور البطولي لاهالي الشام في الدفاع ضد اعداء البلاد من الصليبيين وغيرهم، معركة طرابلس التي حدثت في عام ١٣٦٧/٧٦٩ فقد هاجم الصليبيون طرابلس في تلك السنة وهم في نحو مائتي مركب حربي، هاجموا المدينة في غيبة من نائبها، وتغلبوا على جنود المدينة الذين ضعفوا عن الدفاع عنها. فدخلها الفرنج، ونهبوا أسواقها، وقتلوا نحو الفين من أهلها. وسرعان ما انتشرت اخبار هذا الغزو في انحاء الشام. فأقبل الاهالي بأسلحتهم وعتادهم، واشتبكوا مع الفرنج المهاجمين، في قتال شديد، وطاردوهم حتى أخرجوهم من طرابلس، بعد ان قتلوا منهم جماعة كثيرة، وكانت هزيمة الفرنج ساحقة (١).

وقد استطاع سلاطين المماليك مواصلة جهادهم ضد التتار في الشرق والصليبيين في الغرب، حتى تمكنوا من بسط سلطانهم على بلاد الارمن وفرض الجزية عليهم، بعد ان كانوا يدفعونها الى التتار (٢).

وكذلك تمكن المماليك من اخراج الصليبيين من جميع الساحل الشمالي، وقد شاركت العرب في الشام ومصر في أهم تلك المعارك الحربية، في الشرق أو في الغرب على السواء. وقد بدأت المشاركة العربية في تلك الحروب منذ معركة عين جالوت، أول وأخطر المعارك الحربية، في العالم في ذلك الحين، وحتى آخر تلك المعارك في مرج دابق في شمال الشام وفي الريدانية في شمال القاهرة.

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٩١.

(٢) ابن خلدون، العبر، مجلد ٥، ص ٩٠٢، ٩٠٣.

بل ان القبائل العربية فى الشام منهم من شارك فى المعارك الحربية البحرية خارج ارض الشام، وذلك مثل بنى بحتر أمراء الغرب وهم من تنوخ عرب الجنوب، الذين كانت لهم بطولات فى أشهر المعارك الحربية ضد النصارى (١).

أما جهادهم ضد الصليبيين، على السواحل الجنوبية الشامية فانهم استقروا مقيمين فى بيروت ساهرين على حراسة سواحلها منذ الاستيلاء عليها فى عهد الاشراف خليل عام ٦٩٣/١٢٩٤.

وشكل أمراء بنى بحتر هؤلاء قوة حراسة من تسعين فارس قسموا أنفسهم ثلاثة أبدال، يتبادلون الحراسة كل ثلاثين فارس يقيمون شهرا فى الحراسة ثم يستبدلون الحراسة مع جماعة أخرى تحل محلهم (٢).

كذلك شارك بنو بحتر فى الحملات الحربية البحرية لغزو قبرص فى عهد الاشراف برسباى فى عام ٨٢٨/١٤٢٥ (٣).

وفى عام ٨٢٩/١٤٢٦ أعلن السلطان برسباى الجهاد العام واستجاب الكثيرون من المتطوعين من الاهالى فى الشام ومن مصر ايضا، ثم توجهت

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٩٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٦٣، عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية

فى مصر والشام، ص ٣٣٢، ط. بيروت ١٩٧٢.

الحملة في اكثر من مائة سفينة حربية لغزو جزيرة قبرص، وتمكنت تلك الحملة من فتح قبرص وأسر ملكها(١).

كذلك شارك المطوعة من أهالي البلاد في كثير من المعارك البحرية ضد رودس، في عهد السلطان جقمق(٢).

وجينما ظهر التهديد العثماني لحدود الشام الشمالية كانت فرسان القبائل العربية تستدعى للمشاركة في مواجهة ذلك التهديد، وللدفاع عن البلاد.

ومن أمثلة ذلك ماحدث في عهد الاشراف قايتباي في جمادى الاخرة من عام ٨٩١/يونيو ١٤٨٦، عندما حشد العثمانيون جيشا كثيفا على حدود حلب، وذلك اثر هزيمتهم في حلب، في صفر من نفس العام، وقتل نحو أربعين ألف منهم وأسر جماعة من امرائهم(٣).

وفي المحرم من عام ٨٩٢ /ديسمبر ١٤٨٦ تم عقد صلح بين المماليك والعثمانيين، وبمقتضى ذلك الصلح تم اعادة الاسرى العثمانيين لبلادهم(٤).

وفي شهر ربيع الأول من عام ١٤٨٩/٨٩٥ ظهرت الحشود العثمانية في شمال حلب، واستدعى فرسان العرب للاستعداد لمواجهة تلك التهديدات العثمانية(٥).

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٥١، ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٢٦،

الاسحاقى، لطائف اخبار، ص ١٩٥، عبدالعزيز سالم، تاريخالبحرية الاسلامية ص ٣٢٥.

(٢) السخاوى، التبر المسبوك في ذيل السلوك، القاهرة ١٨٩٦، ص ٦٢، ٨٨.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ٥٣١، ٥٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٣٩.

(٥) نفسه، ص ٥٥٨.

ولم يتخلف العرب في الشام ومصر عن المشاركة في مختلف العهود في عصر سلاطين المماليك، عن الوقوف مع الجيش المملوكي، للدفاع عن البلاد وتتبع الاعداء ودحرهم في عقر دارهم. وظل العرب على اخلاصهم للدولة المملوكية حتى عهد السلطان الغوري والسلطان طومان باي من بعده.

فمثلا في عهد السلطان الغوري في رمضان من عام ٩١٧/ديسمبر ١٥١١ توجه محمد بن ساعد احد امراء قبائل الشام الى القاهرة وقدم الهدايا من الخيول والسلاح وغيرها الى السلطان الغوري تعبيرا عن الولاء والطاعة، وذكر ابن اياس في كتابه بدائع الزهور أن حضور هذا الامير العربي من الشام الى مصر (من جملة سعد السلطان قانصوه الغوري)<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم مما وقع من فساد في حق أهل الشام وخاصة في حلب، من قبل الجنود المماليك المكلفين بالدفاع عن حلب، ضد العثمانيين، من سلب ونهب واعتداء على الاهالي، حتى اضطر أغلب أهلها الى الهجرة الى مصر بسبب تلك الاضطرابات<sup>(٢)</sup>.

وكذلك ما فرض على أهالي البلاد الشامية في جبل نابلس، ودمشق وغزة وصفد وطرابلس وحماه من أموال بلغ مائة واربعة وعشرين ألف دينار، وما ترتب على ذلك من أضرار بالبلاد فقد ظل العرب صامدون في الدفاع ضد العثمانيين في بلاد الشام<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٨، ص ٨٣٨.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ج ٩، ص ١٠٥٢.

ومن البلاد الاخرى، فرض على كل فرد فيها عشرون دينارا تخصص للجنود العرب المكلفين بالدفاع عن البلاد.

ذكر ابن اياس أن ذلك لم يكن يحدث في العهود السابقة لعصر سلاطين المماليك، بل ان الاشراف قايتباي، أنفق على الحملات العسكرية للجنود العرب من الخزائن السلطانية، في مثل تلك الحملات، ولكن السلطان الغورى لم يقبل ذلك. وذكر ابن اياس ان هذا كله سوف يكون سبب خراب البلاد وفساد الاحوال(١).

كذلك كان السلاطين في العهود السابقة شديد والحرص على حماية أهالى الشام، وحسن معاملتهم من جانب الولاة ونواب السلطان المملوكى فى مصر.

فكان اذا بلغ السلطان أن احد الولاة أساء الى أهل ولايته انزل به أشد العقاب. ومن أمثلة ذلك ماحدث فى عهد السلطان جقمق، فى عام ١٤٤٤/٨٤٨ وكان قد بلغ السلطان ان نائب حماة برد بك العجمى أساء الى أهالى حماة، الى حد الاشتباك معهم بجنوده فى معركة سقط فيها القتلى من الطرفين.

فلما حضر نائب حماة برد بك العجمى الى القاهرة وصعد القلعة لمقابلة السلطان، فان السلطان، (شتمه ولعنه، ثم أمر بالقبض عليه فأمسك وحبس ببرج القلعة)(٢) ثم نفى الى احدى المعتقلات خارج القاهرة(٣).

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٩، ص ٩٣٩.

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوى، التبر المسبوك فى ذيل السلوك، ط. القاهرة ١٨٩٦، ص ٨٨.

(٣) المصدر نفسه.



وبعد أن هزم المماليك أمام العثمانيين في مرج دابق في رجب عام ٩٢٢/أغسطس ١٥١٦ واستشهد السلطان الغوري في المعركة، واستشهد فيها الكثيرون من العرب(١). ثم خلفه طومان باي في السلطنة ولم يتخلف العرب في الشام عن مواصلة المقاومة ضد العثمانيين.

في رمضان عام ٩٢٢/أكتوبر ١٥١٦ واجهت القبائل العربية في الشام الغزاة العثمانيين، بقيادة الامير ناصر الدين بن الحنش مع الجنود العثمانيين، قتل جماعة منهم، ثم أغرق الاراضى بماء الاتهار في دمشق، فصارت الارض موحلة، فتعذر على الجنود العثمانيين السير بخيولهم وكان ذلك سببا لهلاك الكثير منهم.

وذكر ابن اياس دور ابن الحنش في معركة قابون في بيتين من الشعر يحذر العثمانيين من شدة بأس أهل الشام وابن الحنش هما :

قل لابن عثمان اذا قابلته . . . أقبل نصيحة ناصح ودع الطيش  
واحذر تعارض شاميا بجهالة . . . نخشى عليك اللدع من ابن الحنش

ولما بلغ السلطان طومان باي نبأ انتصار عرب حماة على العثمانيين في معركة قابون، أصدر مرسوما لابن الحنش بنيابة حمص(٢).

ولم يكن باستطاعة عرب حماة مواجهة العثمانيين وحدهم بغير معاونة من السلطان طومان باي، ولذلك فان ابن الحنش أمير عرب حماة ارسل الى السلطان طومان باي بالقاهرة يبلغه فيه بأنه باستطاعته هزيمة العثمانيين، اذا أمده السلطان ببعض جنوده(٣).

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٩، ص ١٠٥٢.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٩، ص ١٠٥٢.

(٣) المصدر نفسه.

ثم صادرت قبائل العرب فى الشام، جميع انواع المعونات من الاغذية من أن تصل الى الجنود العثمانيين وصار العثمانيون محاصرون من عرب الشام، ومن يجسر على الخروج الى الضياع يقتله العرب(١).

ولما لم يستجب السلطان لابن الحنش فى ارسال حملة عسكرية الى الشام للمعاونة فى مقاومة العثمانيين عاد وبعث الى السلطان فى شوال عام ٩٢٢ نوفمبر ١٥١٦ يستحثه فى سرعة ارسال الحملة العسكرية قبل أن يتقدم العثمانيون الى غزة.

وفى ذى القعدة من عام ٩٢٢/ديسمبر ١٥١٦ شرع السلطان فى تجهيز الحملة الى غزة، وفى ذى القعدة خرجت حملة حربية الى غزة. وبعد يومين وردت الاخبار من غزة الى القاهرة بهزيمة الحملة أمام العثمانيين.

ذكر ابن اياس أن بطء تحرك الامراء المماليك والجنود دفع بقائد الحملة جان بردى الغزالى الى جمع جماعة من العرب هو والامير أرزمك نائب حماة، ودولات باى نائب غزة وتقابلوا مع العثمانيين بالقرب من بيسان، وكان عدد جنود المماليك والعرب قليل بالنسبة الى عدد الجنود العثمانيين، فانهزم المماليك وسقطت غزة فى أيدي العثمانيين(٢).

ولما انتقلت المعارك بعد ذلك من الشام الى مصر استدعى طومان باى قبائل العرب لأخذ دورهم فى الدفاع عن البلاد، لبنت فرسان قبائل العرب فى مصر الدعوة وصاروا قوة للسلطان طومان باى.

(١) ابن اياس، ص ١٠٥٥، ١٠٥٨.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٩، ص ١٠٦٦.

ففى ذى الحجة من عام ٩٢٢/يناير ١٥١٧ جمع السلطان طومان باى قبائل عرب عزالة- وهوارة ومحارب وأمرهم باحضار أشجع فرسان العرب لمواجهة المعارك الحربية ضد العثمانيين(١). ثم تدخل بعض الامراء المماليك، لدى السلطان طومان باى ليصرف فرسان العرب وقبائلهم بحجة أن لافائدة فى خروجهم مع الحملة(٢).

ولم يكن رأى هؤلاء الامراء المماليك فى العرب صحيحا بل كذبتة الاحداث التى وقعت بعد ذلك. فمثلا فى معركة الريدانية التى وقعت بين المماليك والعثمانيين فى شمال القاهرة فى ذى الحجة عام ٩٢٢ يناير ١٥١٧ استشهد فيها كثيرون من عرب الشرقية والغربية(٣).

وفى محرم من عام ٩٢٣/فبراير ١٥١٧ كانت معركة بولاق حيث هاجم طومان باى معسكر العثمانيين فى بولاق، وذلك عندما اطلق على المعسكر جمالا محملة بالبارود، ثم اطلق عليها النار، فشبت النار فى معسكر العثمانيين، ثم اشتبك المماليك فى معركة مع العثمانيين بالسيوف، وقتلوا منهم مالا يحصى(٤). ثم اشتبك المصريون والعرب فى الهجوم على العثمانيين بالمقاليع والحجارة. ثم تطور الموقف وبلغت قوة طومان باى الى الحد الذى خطب باسمه فى القاهرة(٥).

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص١٠٦١، ١٠٦٨.

(٢) نفسه، ص ١٠٧.

(٣) نفسه، ص ١٠٧٨.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص١٠٨١.

(٥) المصدر نفسه، ص١٠٨٢.

وفى صفر من عام ٩٢٣/مارس ١٥١٧ بعث طومان باى يخاطب السلطان العثماني، ويعرض عليه الصلح حقنا لدماء المسلمين، وعلى ان تكون الخطبة والسكة باسم السلطان سليم مع دفع خراج سنوي تدفقه له مصر. وبعد اطلاع السلطان سليم على خطاب طومان باى شكل وفدا للصلح، من الخليفة والقضاة الاربعة لعقد الصلح مع السلطان طومان باى، وكلفهم بالتوجه الى الصعيد وذلك بعد أن خلع عليهم الخلع السنوية. ولم يخفل طومان باى عن اظهار قوته الحربية للعثمانيين، فذكر انه معه عشرين الف مقاتل من المماليك السلطانية والعرب، وغير كبار القواد من الامراء المماليك ذوى الرتب العسكرية العالية(١).

ذكر ابن زنبيل ان العرب قامت جميعها لنصر طومان باى(٢). ثم ظهر من الامراء المماليك جماعة أفسدت خطة الصلح، وذلك عندما تعرضوا لاجزاء الوفد العثماني، فقتلوا بعضهم وفر البعض الاخر(٣). واذلك صمم السلطان العثماني على نبذ الصلح. وفى ربيع الأول عام ٩٢٣/ابريل ١٥١٧ تقابل الفريقان قرب الجيزة وتقاتلوا فانهزم طومان باى، بعد أن استشهد الكثيرون من العرب والترك(٤). وتحولت الشام ومصر منذ ذلك الوقت الى ولاية عثمانية.

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص ١٠٨٨.

(٢) احمد بن زنبيل، تاريخ السلطان سليم، ص ٥٦.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص ١٠٨٨.

(٤) المرجع السابق ص ١٠٩١.

ولما تولى المنصور قلاوون عرش السلطنة فى رجب عام ١٢٧٩/٦٧٨، خرج عليه الامير سنقر الاشقر نائب دمشق ورفض مبايعته، واعلن استقلاله بالبلاد الشامية، وتلقب بالملك الكامل، فى ٢٤ ذى القعدة عام ١٢٧٩/٦٧٨، وكانت حركة العصيان من جانب الامير سنقر نائب دمشق بسبب اعتراضه على خلع العادل سلامش بن الظاهر بيبرس من السلطة بتدبير من قلاوون، الذى كان قائما بتدبير أمور المملكة، نيابة عن سلامش، وكان عمره لايتعدى ثمان سنوات، واعتلاء قلاوون عرش السلطنة. وقد بايع سنقر الاشقر القضاة والعلماء والاعيان من اهل الشام، فأصدر قاضى القضاة بالشام، شمس الدين بن خلكان، فتوى بجواز قتال السلطان قلاوون(١)، والأرجح ان هذه الفتوى كانت من الاسباب التى ساعدت على انضمام عرب الشام من آل فضل، وآل مرء وغيرهم الى سنقر الاشقر، ومن الامراء العرب الذين انضموا الى الامير المملوكى الثائر، الامير عيسى بن مهنا أمير آل فضل والامير شهاب الدين احمد بن حجي أمير آل مرء، وجماعة كثيرة من جبال بعلبك ومن حماة ومن حلب(٢).

ولما فشلت ثورة نائب الشام، احتفى بآل فضل أما آل مرء فأعلنوا طاعتهم للسلطان(٣).

- 
- (١) المقرئى، السلوك، ج ١ ق ٣، ص ٦٧٥، ٦٧٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٩٢، ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٩٥، القاهرة ١٩٦٠.
- (٢) المقرئى، السلوك، ج ١ ق ٣، ص ٦٧٥، ابن تغرى بردى، النجوم، ج ٧، ص ٢٩٤.
- (٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

وفى جمادى الآخرة من عام ١٢٧٩/٦٧٨ وردت الاخبار بقرب هجوم التتار على البلاد الشامية لما بلغهم اختلاف الكلمة بين الامراء وخروجهم عن طاعة السلطان وعندئذ، اجتمع الامراء على نبذ خلاتهم، وتصالحو وأعدوا أنفسهم لملاقاة التتار. وكان للامير عيسى بن مهنا أمير آل فضل دور هام فى الانتصار على التتار (١). ولذلك فقد صار له شأن كبير ومنزلة عظيمة لدى السلطان. ومما عرف عن هذا الامير العربى واشتهر به، كرم الاخلاق وحسن الجوار وكف الاذى وبذل الخير (٢).

وفى عهد السلطان خليل بن قلاوون، الذى أبدى اهتماما بالامير مهنا بن عيسى (٣). ومنحه الهدايا له ولوالدته، ففى صفر من عام ١٢٩٢/٦٩٢ منح الاشرف خليل، هذا الامير العربى بمناسبة زواج احدى بناته الاقمشة الحريرية وغيرها من الهدايا الثمينة، وكلف السلطان حاجبه بصرف قيمة ذلك من الخزانة (٤).

الا ان السلطان تغير على آل فضل وأصدر أمره بخلع أميرهم من منصبه عام ١٢٩٣/٦٩٢ وعين بدلا منه اميرا من آل على هو الامير محمد بن أبى بكر.

والأرجح أن عزل أمير آل فضل من امارته يرجع الى وشاية صدرت فى حق هذا الامير، اذ أن المصادر لم تشر الى سبب هذا العزل.

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٦٣.

(٣) ابن خلدون، العبر، مجلد٦، ص١٩، القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص٢٠٥، ابن

تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٦٣.

(٤) المقرئى، السلوك، ج١ ق٣، ص٧٨٣.

ويوضح صحة ماأشرنا اليه مآذكره ابن آياس عن صفات السلطان خليل بن قلاوون من أنه على الرغم من انه كان منقادا للشريعة ولايخشى فى الحق لومة لآتم، (ويقضى بالحق على الأمراء المقدمين للسوقة)(١). الا انه كان فى نفس الوقت يستجيب لكلام بعض وزرائه فى حق الرعية بغير تقصى للحقيقة(٢). وفى عام ١٢٩٤/٦٩٤ افرج عن أمير آل فضل وأعيد الى امارته بالشام(٣). وهكذا ابتداء نجم آل فضل فى الصعود بعد عودة أميرهم الى الشام خاصة فى عهد السلطان محمد قلاوون، فكان يتوسط لدى السلطان فى العفو عن كبار العلماء وبعض أمراء المماليك المعتقلين لسبب أو لآخر، وكثيرا ما كان ينجح فى وساطته لدى السلطان.

وحضر ايضا مرة أخرى الى القاهرة عام ١٣١٠/٧١٠ للتوسط لدى السلطان المملوكى بشأن تولى الملك المؤيد عماد الدين حكم حماة، ومنح الملك المؤيد اسماعيل الأيوبي ولاية حماة.

وعلى الرغم من العلاقة الطيبة التى جمعت بين كلا من السلطان المملوكى والامير العربى، الا انه كان يحدث بينهما احيانا مايعكر صفو هذه العلاقة من ذلك مانسب لامير عرب الشام انه لم يحضر وقائع غازان عام ١٣١٢/٧١٢ فى هجومه على الشام وخروجه عن طاعة السلطان. ولما اختلف الامير قراسنقر نائب حلب مع السلطان الناصر خرج الى ظاهر حلب، فكتب السلطان الى قرطاي نائب قراسنقر بحلب، ألا يمكن قراسنقر من العودة الى

(١) ابن آياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ١٠٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن خلدون، العبر، مجلدة ٦، ص ١٩.

حلب ومنع ارسال أمواله إليه، فشكا نائب حلب، الى الأمير مهنا، فأرسل الامير الى قرطاي يهدده فيها بتسليم اموال قراسنقر اليه، والا أخذت قسرا. فاستجاب قرطاي وقام بتسليم بعض الاموال اليه، وبعث بخطاب الى السلطان الناصر يبلغه فيه بما حدث بشأن تدخل الامير العربي بينه وبين نائب الشام.

ويرجع سبب تحيز أمير عرب الشام الى قراسنقر، أنه اطلعه على كتاب من السلطان الناصر بالقبض عليه فغضب الامير مهنا، وكان تدخله لصالح نائب الشام المخلوع<sup>(١)</sup>. مما أدى الى جفاء في العلاقة بين الامير والسلطان فأصدر السلطان أمره بابعاد مهنا وتعيين فضل بن عيسى بن مهنا أميرا على آل فضل<sup>(٢)</sup>.

وفي عام ١٣١٧/٧١٧ وقد ابنا مهنا، وهما محمد وموسى، وأخو الأمير مهنا وهو محمد عيسى، الى السلطان فأكرمهم، وقبل العفو عن أبيهما، وأعادته الى امارته واقطاعه<sup>(٣)</sup>.

وفي عام ١٣١٩/٧١٩ لم تكن توجد علاقات سياسية بين الدولة المملوكية وبلاد العراق، وعلم السلطان المملوكي، بقيام اتصالات بين عرب آل فضل وبلاد العراق، فاعتبر السلطان المملوكي هذا التصرف من جانب عرب آل فضل خروجاً عن الطاعة، وأمر بابعادهم عن البلاد واحلال عرب آل على،

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢ ق ١، ص ١٠٨.

(٢) ابن خلدون، العبر، مجلد ٦، ص ٢٠٠، ١٩، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٢٠٦.

(٣) المصدر نفسه، السيد محمد ابو الهدى الصيادي، الروض البسام في أشهر البطون



القرشبية بالشام، ص ٧١، الاسكندرية سنة ١٨٩٢.

أبناء عمومتهم محلهم، واختار منهم محمد بن أبي بكر بن علي أمير علي عرب الشام(١).

ونرى أن سبب اتصال آل فضل ببلاد العراق أنهم كانوا يعيشون في شمال بلاد الشام مجاورين لحدود العراق، وكانوا دائمي الترحال، فلم يكن امامهم سوى الاتصال بأهل العراق، بحكم مجاورتهم لهم. الا ان حكام الدولة المملوكية، كانوا يرون أن في ذلك خروجا عن الطاعة، وانه كان يتعين الحصول على اذن من السلطان أولا قبل التحرك منعا للشكوك.

والدليل على صحة ذلك، ان السلطان سرعان ما عفى عن هؤلاء العرب، وأعاد أميرهم العربي مهنا بن عيسى لامارته، كما كان أولا(٢).

ومما لا شك فيه ان العرب كانوا يحترزون بالتمسك بعاداتهم، وتقاليدهم حتى في علاقاتهم مع سلاطين المماليك. ومن أمثلة، ذلك ما ذكره المقرئ، من أن احد أبناء موسى بن مهنا- وكان طفل صغير- تقدم الى السلطان الناصر محمد- وكانوا مجتمعين في رحلة حج عام ٧١٩/١٣١٩ الى مكة- وأمسك بلحيته يلتمس منه منحه احدى، الضياع انعاما عليه، فصرخ فيه فخر الدين، ناظر الجيش، محتجا، فما كان من السلطان الناصر، الا ان قال وهو يبتسم (هذه عادة العرب، اذا قصدوا كبيرا في شىء فيكون عظمتهم عندهم معك لحيته، يريد انه استجار بذلك المس فهو سنة عندهم)(٣).

- 
- (١) ابن خلدون، العبر، مجلد ٦، ص ٢٠، ١٩، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٢٠٦.
- (٢) صدر عفو السلطان عن آل فضل، بعد تدخل من جانب الافضل بن المؤيد حاكم حماة)، (ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢٠، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٢٠٦.
- (٣) المقرئ، المذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، القاهرة ١٩٩٥، ص ١٠٤، ١٠٥، ابن تغرى بردى، النجوم، ج ٩، ص ٦٠.

وفى عام ١٣٣٣/٧٣٤ تولى سليمان بن عيسى بن مهنا ادارة آل فضل، وهذا الامير العربى هو الذى استجار به الامير المملوكى قراسنقر نائب حلب، فاستجاب له وأجاره. ثم أرسل الى السلطان المملوكى فى القاهرة يسأله العفو عن نائب حلب لانه استجار بأمر سليمان، فقبل السلطان المملوكى الوساطة وعفا عن نائب حلب(١).

واستطاع هذا الامير العربى ايضا ان يحصل على عفو عن اخيه الامير فياض، الذى كان معتقلا بالقاهرة فى عام ١٣٤٢/٧٤٣، واسترد ماأخذ من آل مهنا من الاقطاعات(٢).

وايضا لأمرأء عرب الشام أدوار سياسية على درجة كبيرة من الأهمية، كانوا يكلفون بها من قبل سلاطين المماليك، مثل، القبض على نائب الشام، ذكر المقرئزى، أن تنكز نائب الشام عندما خرج عن طاعة السلطان المملوكى عام ١٣٤٠/٧٤٠ وأراد القبض عليه، تصادف حضور الامير موسى بن مهنا الى القاهرة(فقرر معه السلطان، القبض على تنكز)(٣) واطاف انه (أخرج موسى بن مهنا لتجهيز العرب واقامته على حمص)(٤).

وفى عهد الصالح اسماعيل فى عام ١٣٤٣/٧٤٤ ولى سيف بن فضل امارة عرب الشام، ولانه كان أميرا على عرب بيت فضل بن عيسى فحسب، فقد عزله الكامل شعبان وعين احمد بن مهنا بدلا منه أميرا على عرب الشام لانه كان أميرا على آل مهنا وسائر آل فضل، وساعد ذلك فى استيابة الامن:

(١) المقرئزى، السلوك، ج ١ ق ١، ص ١٠٧، ١٠٩، ابن تغرى بردى، النجوم، ج ٩، ص ٣١.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢ ق ٣، ص ٦٢٨.

(٣) المقرئزى، السلوك، ج ٢ ق ٢، ص ٤٩٩.

(٤) المصدر نفسه.

بينهم، خاصة في عهد السلطان الناصر حسن<sup>(١)</sup>. ثم ولى حيار بن مهنا اماره عرب الشام وبقي عدة سنوات ثم اختلف مع السلطان حسن فعزله عن الامارة، ثم اعادته اليها ثانية بوساطة نائب حماة.

وقد كان لعرب الشام وعشائره دور مشارك في الحياة السياسية والفتن في دولة المماليك وذلك منذ عهد دولة المماليك البحرية (٦٤٨/٧٨٤/١٢٥٠-١٣٨٢) ففي عام ٧٥٣/١٣٥٢ في عهد الملك الصالح صالح، خرج عليه جماعة من المماليك من نواب الشام، منهم ببيغا أروس - وكان مسجوناً بقلعة الكرك، فصدر أمر من السلطان بالافراج عنه وتولييه نيابة حلب، وذلك في عام ٧٥٢/١٣٥١ وأنضم نائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماة ونائب صغد. وبلغ عدد من انضم الى هؤلاء الثائرين على السلطان حسن نحو ستين من أمراء المماليك في الشام.

ثم انضم عرب الشام والعشائر الى هؤلاء الامراء الثائرين، وانضم اليهم أيضا الامير قراجا أمير التركمان. وعلى الرغم من فشل الثورة في الشام، الا ان أمراء المماليك في مصر تمكنوا في عام ٧٥٥/١٣٥٤ من الوثوب على السلطان الصالح صالح وخلعوه من السلطنة وأعيد السلطان حسن الى السلطنة وكان قد خلع منها عام ٧٥٢/١٣٥١<sup>(٢)</sup>.

وفي عام ٧٧٠/١٣٦٨ في عهد الاشراف شعبان عاد حيار الى الخروج عن طاعة السلطان، فعزله السلطان من اماره عرب الشام وولى مكانه زامل بن موسى بن عيسى، فلم يلبث حيار أن جمع اليه بنو كلاب وغيرهم من العرب، وهاجم زامل بن موسى في حلب، فتدخل قشتمر المنصوري نائب حلب بعساكره

(١) ابن خلدون، العبر، مجلد ٦، ص ٢١.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٦٧، ١٧٢.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٦٧، ١٧٢.  
لنصرة الامير زامل فقتل قشتمر في المعركة فعزل السلطان الامير زامل، وعين  
مكانه معيقل بن فضل بن عيسى(١).

وفي عام ١٣٦٩/٧٧١ أرسل معيقل الى السلطان الاشرف شعبان، يسأله  
العفو عن حيار، فعفا عنه السلطان، وفي عام ١٣٧٣/٧٧٥ توجه حيار الى  
السلطان الاشرف فاستقبله وأعادته الى امارته على العرب من آل فضل.

وفي عام ١٣٧٩/٧٨١ في عهد السلطان المنصور على ولى اماره آل  
فضل معيقل بن موسى بن عيسى، وعيسى بن مهنا شريكين(٢). وهذا دليل على  
أن السلاطين انما كان هدفهم الرئيسي من تعيين الامير العربي، هو استتباب  
الامن، في أنحاء البلاد وليس لسبب اخر.

وفي عام ١٣٨٢/٧٨٤ تم خلع السلطان الصالح حاجي من عرش  
السلطنة لصغر سنه، وهو اخر سلاطين المماليك البحرية واستولى الظاهر برقوق  
على عرش السلطنة بدلا منه، فهو أول سلاطين المماليك البرجية (الجراكسة)  
(٧٨٤-١٣٨٢/٩٢٣-١٥١٧). فانتفض عليه الامراء المماليك وعزلوه  
واعتقل(٣).

وفي عام ١٣٨٨/٧٩١ في عهد السلطان الصالح حاجي (الفترة الثانية)  
كلف الامير عيسى بن مهنا شيخ العرب بتسلم السلطان برقوق بعد القبض عليه،  
وكلف بالتوجه به الى الكرك، حيث بقي معتقلا بالقلعة(٤).

(١) ابن خلدون، العبر، المجلد السادس، ص ٢١، ٢٢، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤،  
ص ٢٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٢٣، ٢٣٦.

(٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٣٩.

ولما ولى اماره العرب نعيم وهو محمد بن حيار بن مهنا، وكان قد ولى الامارة بعد أبيه حيار، ثم عزل عنها، وأعيد اليها ثانية(١)، وقد انضم نعيم وعربانه الى الامير يلبغا الناصري نائب حلب فى ثورته ضد الظاهر برقوق. وقد تمكن يلبغا من السيطرة على الشام والتوجه الى القاهرة(٢). وانضم اليه كثير من امراء الشام ومصر، حتى اضطر السلطان برقوق الى التنازل عن السلطنة واتفق الامراء على عودة الملك الصالح أمير حاج الذى خلعه برقوق من السلطنة الى السلطنة عام ١٣٨٩/٧٩١(٣)، وفى عام ١٣٨٩/٧٩١ دب الخلاف بين يلبغا الناصري، والاتابكي منطاش الذى كان من مماليك الظاهر برقوق، فناه الى الشام لفساد ظهر منه، فانضم الى يلبغا فى ثورته. وكان الظاهر برقوق معتقلا بقلعة الكرك، فتمكن من السيطرة على القلعة. ثم خرج من الكرك الى الشام بعد أن انضم اليه نحو ألف من عرب الكرك، وغيرهم من عرب الشام، أما حسام الدين بن باكيس نائب غزة فقد جمع نحو خمسة آلاف من عرب جبل نابلس لقتال برقوق فهزمهم برقوق واستولى على خيولهم وسلاحهم، فقويت شوكته(٤).

وأما الاتابكي منطاش وكانت بيده امور السلطنة فانه خرج من القاهرة الى الشام ومعه السلطان أمير حاج وقد ساعد بعض عرب الشام على نصرته

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٢٠٨.

(٢) السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج١٠، ص٢٠٨، القاهرة ١٣٥٥.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٣٢.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٤٣، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج١،

ص٤١، القاهرة ١٣٠٦.

برقوق بأن كشفوا له عن مكان تواجد السلطان أمير حاج فتمكن برقوق من التلبس على السلطان وعساكره<sup>(١)</sup>. ثم خلع السلطان أمير حاج نفسه من السلطنة، وبويع الملك الظاهر برقوق بالسلطنة في عام ١٣٩٠/٧٩٢ ثم توجه الى القاهرة، واستقامت اموره بالسلطنة<sup>(٢)</sup>. عفى عن يبلغا الناصري، الذي كان سببا في خلعه من السلطنة هو وزميله منطاش ورفع رتبة يبلغا العسكرية من أتابك الى أمير سلاح.

وأما منطاش، فانه رجع الى الشام<sup>(٣)</sup>، وانضم اليه نعيم بن حيار أمير آل فضل، وملك مدينة بعدبك، وحماة وحمص، والتف حوله جماعة من عسكر دمشق ومن الاهالي بها لميلهم الى منطاش وبغضهم برقوق. وانضم اليهم ايضا عربان جبل نابلس، وجماعة من عسكر صند وطرابلس<sup>(٤)</sup>.

وقويت الروابط بين نعيم امير آل فضل، فتزوج منطاش من بنات نعيم وانجب منهم، ثم لما ضعف أمر منطاش ونعير انقلب نعيم على منطاش، واتفق على تسليمه الى نائب حلب، وقبض على منطاش وسجن بقلعة حلب<sup>(٥)</sup>. أما نعيم امير آل فضل فقد ارسل اليه الظاهر برقوق خلعه وأقره أميراً على آل فضل<sup>(٦)</sup>. ثم عاد برقوق وغضب على نعيم وطرده من الشام<sup>(٧)</sup>.

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤٨٧.

(٢) نفسه، ج ٣، ص ٢٤٩، ٢٥٢.

(٣) نفسه، ج ٣، ص ٢٤٨، ٢٥١.

(٤) نفسه، ص ٢٥٢، ٢٥٥.

(٥) السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٠٨، ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٥٨.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٥٩.

(٧) السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٠٨.

وفى عام ١٣٩٩/٨٠١ فى عهد الناصر فرج، تم تعيين الامير نعيم شيخ آل فضل، وبعثوا اليه بخلعه، أميرا على آل فضل(١).

وفى عام ١٤٠٠/٨١٣، حضر الامير نعيم بن حيار أمير آل فضل، وكان معه من العرب ما لا يحصى عددهم. وكانت البلاد الشامية اذ ذاك مهددة من قبل جيوش تيمور لنك(٢) وقد قام عرب جبل نابلس بطرد طليعة من جيش تيمور لنك كان قد بعث بهم الى طرابلس فى ربيع الاخر فضلوا طريقهم وهاجمهم عرب جبل نابلس من آل فضل، وقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب والمقاليع فولى فلولهم مدبرين(٣).

ومات نعيم مقتولا فى عام ١٤٠٥/٨٠٨ فى معركة بينه وبين نائب حلب وقد ذكر السخاوى نعيم، فقال انه كان شجاعا جوادا مهيبا، ويموته ضعف آل مهنا(٤).

وفى صفر من عام ١٤٨٠/٨٥٥ فى عهد السلطان الاشرف قايتباى كان سيف بن فضل، أميرا على آل فضل، ونسبوا اليه الخروج عن الطاعة، ووقع القتال بينه وبين ازدر نائب حماة، وقتل ازدر فى المعركة، وقتل معه جماعة من امراء حماة. فبعث السلطان من مصر بحملة عسكرية من خمسمائة مملوك بلغت نفقتهم اكثر من مائة ألف دينار على رأسها الامير يشبك الدوادر وجماعة من الامراء من مختلف الرتب للتوجه الى حماة وقتال سيف. وقدم الامير يشبك

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه. ج٣، ص٢٨٦.

(٣) نفسه.

(٤) السخاوى، الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٠٨.

الى حلب ومعه نائب الشام، ونائب حلب، ونائب طرابلس ونائب حماة والعسكر الشامي والحلبى والمصرى وغيرهم(١). ولما علم سيف بالحملة، خرج من حلب الى الرها، فتعقبه الامير يشبك، وعبر الفرات، وكان قد اجتمع معه من الجند مايزيد عن عشرة آلاف، وانتهت الحملة بالفشل والهزيمة المنكرة، وبقي سيف مقيما بالعراق لم يعد بعدها الى الشام(٢).

أما عرب آل فضل وحلفائهم، فقد ضعف شأنهم اتفرق كلمتهم. وخلاقاتهم فيما بينهم. حتى أن السلطان قايتباى التجأ فى عام ١٤٨٥/٨٩٠ الى عرب مصر وكلفهم بالخروج معه للدفاع عن الشام ضد العثمانيين، وأرسل كرتباى الاحمر كاشف البحيرة ليقوم هو بجمع هؤلاء الفرسان العرب(٣).

وفى عام ١٤٦٧/٨٧٢ قام اثنان من مشايخ العرب هما محمد بن عجلان وعيسى بن سيف الدين، بمعاونة تمرىغا- وكان معتقلا بدمياط بعد خلعته من السلطنة وتولى قايتباى مكانه - فاما الشىخان العريبيان بمعاونة تمرىغا بعد الهروب من معتقله والخروج به من مصر بحرا الى الشام قاصدين حلب، ولكنهم لم يتمكنوا من اتمام رحلتهم حيث انه تم القبض على الظاهر تمرىغا فى غزة وأعيد ثانية الى القاهرة(٤).

وفى جمادى الاولى من عام ١٥٠٠/٩٠٦ اجتمع عرب جبل نابلس وعشير الشام الى المقر السيفى طومان باى - وكان مكلفا من قبل السلطان

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ٤٩٣، ٤٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٩٧.

(٣) نفسه، ص ٥٣٤.

(٤) نفسه، ج ٤، ص ٤٠٠.



جانبلاط بالتوجه الى الشام على رأس حملة عسكرية للقضاء على ثورة قاصروه نائب الشام - الا أن طومان باى، الذى كان يعمل فى الخفاء ليتولى هو عرش السلطنة، اجتمع مع قاصروه وجماعة من امراء الشام، والقضاة، وأعلنوا طومان باى سلطانا، وخلعوا جانبلاط. ثم توجه عرب جبل نابلس والعشير وجماعة المماليك من الامراء والجنود جميعهم، الى القاهرة ودخلوها من باب الفتوح. ثم بعثوا جانبلاط الى الاسكندرية معتقلا(١).

\* \* \*

وفى عام ١٥٠٢/٩٠٧ اجتمع الاهالى من سكان بعض جهات دمشق، وأعلنوا ثورتهم ضد نائب الشام. وتدخل القاضى ابن يوسف وجماعة من نوى النفوذ ودافعوا عن الأهالى، فقويت شوكتهم ضد المماليك. فتدارك نائب الشام، الموقف وكلف شيخ الاسلام تقى الدين بالتوجه على رأس جماعة من رجال الدين، وكبار المسؤولين للاجتماع بكبار الثوار لانهاء ثورة الاهالى، فاجتمعوا بهم واستجابوا الى طلباتهم برفع المعاناة عن الشعب بالغاء بعض الضرائب التى كان يشكو منها أهالى الشام(٢).

وفى عام ١٥٠٥/٩١١ ثار عرب بنى لأم فخرجت اليهم حملة عسكرية لاعادة الاحوال الى الاستقرار، والسيطرة على عرب الكرك(٣). وبنو لام أحلاف لآل ربيعة من عرب الشام(٤). ومنهم آل فضل، وآل عيسى بن مهنا. ولم تكن

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٦، ص٦٧١.

(٢) محمد بن طولون، مفاكهة الخلان فى حوائث الزمان، القاهرة ١٩٦٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ص٢٠٥.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٧، ص٧٣٤.

(٤) القلقشندي، نهاية الارب، ص٤٤٨.

حالة عدم الاستقرار بين العرب فى الشام فحسب، وإنما شملت عرب مصر وعرب الحجاز أيضا(١).

ولما لم تتمكن الحملة المملوكية التى خرجت من مصر للتغلب على ثورة عرب بنى لأم بالكرك، بعث السلطان الى نائب الشام ونائب طرابلس، ونائب صند، للتوجه لمواجهة ثورة بنى لأم والقضاء عليها(٢).

والأرجح أن أسباب ثورات العرب فى الشام وفى أنحاء مختلفة من الدولة المملوكية سببها السياسة التى سار عليها السلطان الغورى ووصفها ابن اياس فى بيتين من الشعر هما :

سلطاننا الغورى قد جار والصبر منا قد أعيا

وصار فى الجور عمال حتى خرب نصف الدنيا(٣)

وعلى الرغم من سياسة الجور والمصادرة فى عهد هذا السلطان ضد أهالى الشام ومصر، فإن محمد بن ساعد وهو من أمراء عرب الشام حضر الى القاهرة وقابل السلطان الغورى فى عام ١٥١١/٩١٧ وقدم اليه الهدايا من الاموال والخيول والسلاح وأعلن له الطاعة(٤).

وبقى السلطان يسير على سياسته فى تحصيل الاموال قهرا من أهل الشام، فقد فرض على أهل جبل نابلس ١٢٤٠٠٠ دينار نفقة للمشاة، كما حصل

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٧، ص٧٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٧٤٥.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ص٧٢٥، مرعى بن يوسف المقدسى، نزهة الناظرين،

مخطوط، ١٤١٦، ج. بلدية، ابن الشوكاتى، البدر الطالع، ج٢، ص٥٤.

(٤) المصدر نفسه، ج٨، ص٨٣٨.

من أهالي بلاد غزة، وصفد وطرابلس وحلب وحماة مثل ذلك. ولم يكن قد حدث مثل ذلك من قبل، فقد كانت النفقة تؤخذ من مال الدولة.

وفضلا عن فساد ممالك السلطان في بلاد الشام - بسبب الحملات العسكرية ضد العثمانيين وعم السيطرة على الجند - حتى لجأ كثير من أهل الشام الى مصر حماية لانفسهم من سوء معاملة ممالك السلطان لهم<sup>(١)</sup>.  
فقد وصف ابن اياس هذه السياسة غير العادلة فذكر أن ( هذا كله يؤول أمره الى خراب البلاد وفساد الاحوال وضعف احوال الجند وعدم عمارة البلاد<sup>(٢)</sup>).

وقد نتج عن هذه السياسة ان أهالي الشام كانوا اكثر ميلا الى العثمانيين، لعدالتهم وظلم المماليك<sup>(٣)</sup>. وكثيرا ماكانت توصف ثورات العرب بأنها (فساد عربان) وانما واقع الامر بخلاف ذلك الى حد كبير، فان الثورات ضد الدولة لم تكن من جانب قبائل عرب الشام ومصر والحجاز وحدهم، وانما أيضا من المماليك أنفسهم بل ان في المصادر الاسلامية من المنشورات الخاصة الموجهة من السلاطين لامراء العرب ما يوضح الدور السياسى الذى قام به العرب فى سبيل استقرار احوال الشام خلال فترات طويلة من عصر سلاطين المماليك، ذكرناه فى مقدمة هذه الرسالة.

\* \* \*

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ص ٧٢٥، مرعى بن يوسف المقدسى، نزهة الناظرين، مخطوط،

١٤١٦، ج. بلدية، ابن الشوكاتى، البدر الطالع، ج ٩، ص ٩٣٤.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٩، ص ٩٣٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٧٣، ٩٧٦.

والخلاصة أن زعماء عرب الشام، فى عصر سلاطين المماليك، ساهموا فى الدفاع عن بلاد الشام مع المماليك، فى زمن الحرب، كما عملوا على استتباب الامن فى أنحاء البلاد فى زمن السلم. وانهم بسبب موقفهم المؤيد للدولة المملوكية، فى السلم والحرب. حظوا بتقدير واعجاب سلاطين المماليك، فقدمهم، على غيرهم من العرب، ومنحهم الألقاب وملكوهم الاقطاعات من المدن فى بلاد الشام.

وقد ظل عرب الشام طوال عصر الدولة المملوكية، وحتى نهايته، على ولايتهم للدولة المملوكية. فعرب الشام المملوكية، لم يقوموا بثورات ضد الدولة - كنظام حكم - مثلما فعل عرب مصر حين ثاروا، بزعامة حصن الدين ثعلب ضد الحكام المماليك بغرض انهاء الحكم المملوكى من البلاد. وانما كانوا يثورون لاسباب واضحة وذات أهداف سياسية واقتصادية محددة. وكان هذا من أسباب، استمرار حسن العلاقات بين عرب الشام وسلاطين المماليك حتى نهاية العصر المملوكى.

## الفصل الرابع

### الدور الحضارى للقبائل العربية فى الشام

- العمران فى الشام فى عهد المماليك.
- حياة قبائل الشام الاجتماعية فى الحضر والبادية، اشتغالهم بالزراعة والتجارة والرعى وتربية الخيول.
- ازياء عرب الشام.
- الدور الثقافى لعرب الشام، انتشار التعليم، انتشار المدارس.

بعد عصر دولة المماليك من أهم العصور التاريخية العربية، لمصر والشام، للطابع الخاص الذى تميز به، والسبب فى ذلك، ان دولة المماليك نشأت فى ظروف قاسية، حيث صاحب قيامها، مشكلتين كبيرتين، شكلت فى حقيقة الامر أكبر خطرين هددوا مصر والشام.

فقد قامت دولة المماليك فى مصر فى الوقت الذى كان الصليبيون، قد ثبتوا أقدامهم فى بلاد الشام، وخاصة فى عكا وطرابلس وانطاكية، ابان ضعف خلفاء بنى أيوب فى بلاد الشام، حتى أنهم حاولوا غزو مصر، ذاتها، فوصلوا الى المنصورة قبل قيام دولة المماليك بقليل.

ثم قامت دولة المماليك. وكان عليها مسئوليات ضخمة، هى تأمين حدود مصر من الغزاة وطرد البقايا الصليبية من الشام، لتعود الارض الى أهلها، وأصحابها الحقيقيين.

ثم لم يلبث ان ظهر الخطر المغولى فى بلاد الشام، وبعثوا يهددون مصر وأهلها، ويطالبون حكامها بتسليم البلاد.

وسرعان مااجتمع الامراء المماليك فى الشام مع حكام مصر المماليك، وجمعوا عرب مصر وعرب الشام، وواجهوا المغول، صفا واحدا، انتهى بطرد المغول من بلاد الشام جميعها. وتمت الوحدة بين الشام ومصر تحت راية الدولة المملوكية.

وهؤلاء الحكام المماليك، مسلمون كرسوا حياتهم وجهادهم، لفكرة الجهاد واناخذ بلاد الشام ومصر من الاخطار الكبرى، التى امت بهما. ولم تصرفهم حروبهم ضد المغول والصليبيين، عن الانشاء والتعمير. فأنشأوا القلاع والحصون، وجددوا ماهدمه المغول منها. وذلك مثل قلعة دمشق التى

بحى الصاغة التى جدد بيبرس شرفات قلعتها ورؤوس أبراجها فى عام ١٢٦٠/٦٥٩ (١). وبنى بها حماما. كما شيد القصر الأبلق بالميدان فى دمشق (٢).

وساعدت الاوضاع المستقرة فى الدولة المملوكية، على ابراز، نشاطهم، فى الميادين الانشائية والاجتماعية والدينية والاقتصادية وغيرها.

فى ميدان التعمير فى بلاد الشام المملوكية نجد المساجد، والمدارس والخوانق والزوايا والبيارسنانات، قد انتشرت فى انحاء البلاد الشامية، بدرجة كبيرة. وذلك مثل المسجد الكبير بغزة، الذى انشأه سنجر الجاولى نائب السلطان المملوكى فى غزة عام ١٣١٨/٧٢٨ (٣).

ومثل المدرسة الجقمقية، التى أنشأها سيف الدين جقمق، نائب السلطان المملوكى فى دمشق عام ١٤٢١/٨٢٤، وجقمق هذا، هو الذى أنشأ ايضا خانقاة ملحقة بالمدرسة (٤).

ومثل الزاوية التى أنشأها بكتمر بن عبد الله الأشرفى، نائب السلطان المملوكى بحصن الاكراد فى شمال الشام عام ١٣١٩/٧١٩ وجهازها لاطعام من يدخلها من فقراء المسلمين، وجعل لها، اماما للصلاة ومقرئين (٥).

وأنشأ بكتمر ايضا بيمارستانا عام ١٣١٩/٧١٩ وخصصه لمرضى المسلمين المقيمين بمدينة حصن الاكراد والواردين عليها (٦). وكانت جميع هذه

(١) Van Berchem, Catalogue de la photothèque Geneve. 1957, P, 44.

(٢) ابن شاکر الکتبى، فوات الوفیات، ترجمة بيبرس.

(٣) Repertoire, chronologique, t.14.p. 197.

(٤) مجلة الحوليات الاثرية السورية، مجلد ١٠، ١٩٦٠، ص ٧٢، الريحاوى.

(٥) Repertoire chronologique, T. 14, p. 137.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

العمائر توقف لها الاوقاف الكثيرة بغرض، الاتفاق عليها.  
على أن اهتمام المماليك بعمارة بلاد الشام كان يوازي اهتمامهم بعمارة  
مصر ذاتها، فقد ذكر ابن اياس، ان مابلغته العمارة في الشام ومصر في عهد  
السلطان الناصر محمد بن قلاوون، من المساجد والقناطر والجسور وغير ذلك  
من العمائر والانشاءات زادت بمقدار النصف(١).

وذكر ابن جبير انه كان بدمشق في العصر المملوكى بيمارسنات منها  
القديم والحديث، والحديث اكبرهما، احفلهما، جرايته، فى اليوم نحو الخمسة  
عشر ديناراً، وله قومه، بأيديهم الكشوف المحتوية على اسماء المرضى وعلى  
النفقات، التى يحتاجونها، والادوية والأغذية، وغير ذلك. ويكر الاطباء اليه كل  
يوم، ويتفقون المرضى، ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية،  
حسبما يليق بكل انسان منهم(٢).

ويذكر المقرئى، ان دخول الاطباء والطارين كانت ترتفع عندما تنتشر  
الأوبئة عقب حوادث القحط والمجاعات، فتنتشر الامراض تبعاً لذلك، ويطلب  
الناس الاطباء للعلاج.

ولما وقع الوباء فى الشام ومصر فى عهد العادل كتبغا، (كان كسب  
الواحد منهم فى اليوم مائة درهم)(٣). هذا بينما كان أجر الطبيب فى الشهر واحد  
وسبعون درهما(٤).

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٤٨.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص٧٥.

(٣) المقرئى، اغاثة الامة، ص٣٥، القاهرة ١٩٥٧.

(٤) احمد رمضان، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام، ص٣٢٧.



ولعل من أسباب اهتمام سلاطين المماليك بالاكتثار، من المنشآت الدينية،  
الخلافة المذهبية بين، الشيعة والسنة الذي كان ومازال قائما في بلاد الشام حتى  
الآن.

على أن بناء المساجد، كان حجر الزاوية في بلاد الشام. بالنسبة للعمارة  
الاسلامية، وحصلت دمشق، عاصمة البلاد الشامية على النصيب الاكبر من  
جوامع بلاد الشام.

ولعل الجامع الأموي بدمشق هو أقدمها حيث تم بناؤه في عام  
٧١٠/٩٢ (١) وقد عنى الظاهر بيبرس باصلاح الحائط القبلي لهذا الجامع  
الأموي (٢)، وقد رصت جدران الجامع وأروقته وقناطره كلها بنصوص من  
الزجاج الملون، مذهب اكثره مفضض (٣). وظلت عناية المسلمين من اهل الشام  
ورعايتهم لهذا الجامع الاموي الكبير وصيانتته بالاصلاح والترميم، وخاصة  
فسيفساء الجامع، في كل العصور، (ولولا ذلك، لما تبقى منها شيء، ولأصبحت  
أثرا بعد عين) (٤).

J.Sauvajet. Memento chronologique, d'histoire musulmane. (١)  
Paris, 1950.

(٢) سجلت كتابة في مدخل باب البريد للجامع الاموي في أعلى جداره الجنوبي نصها:  
بسم الله الرحمن الرحيم، عمر في ايام مولانا السلطان الملك الظاهر العالم العادل  
المنصور ركن الدنيا والدين بيبرس الأمر بعمارة الاوقاف وتجديدها (هسيم) أمير  
المؤمنين المطاع بأمر المولى المقدم ملك الأمراء جمال الدين أوش التجيبي المالكي  
الظاهري نائب السلطنة المعظمة بالشام المحروسة (مجلة الحوليات الاثرية،  
مجلد ١٠، ١٩٦٠).

(٣) أطلق العرب على فصوص الزجاج الملون اسم الفسيفساء (المصدر السابق).

(٤) نفسه.

وكانت الدعوة في الجامع الاموى على المذهب السنى(١). وكانت توجد مذاهب للشيعة ولكن اهل السنة لم يروا الاخذ بها، لغرابتها(٢). على أن عناية بيبرس لم تقتصر على الجامع الاموى بدمشق فحسب ، وانما امتدت الى الجامع الازهر بالقاهرة والذي كانت الدعوة فيه ايضا على المذهب السنى، فكان بيبرس، حريصا في الوقت نفسه ، على أن تشمل رعايته جوامع كلا من دمشق والقاهرة(٣).

والخانقاه، وهى نوع من المعاهد العلمية، كانت تخصص للصوفية والعلماء المغتربين، تشبه الرباط والتكية، وكانت توجد بحى الكلاسة، الذى يحتل المنطقة المجاورة للجامع الاموى من ناحية الشمال على عشرين معهدا علميا منها الخانقاه(٤).

وقد أنشأ السلاطين الفنادق والحمامات وشيدوا القصور فى بلاد الشام وذلك مثل تلك التى شيدها السلطان الظاهر بيبرس مثل القصر الأبلق بدمشق وشيد خاناً(٥) بالقدس . وأنشأ بيبرس أيضا جسورا كثيرة بالغور والساحل ومنها جسر بقرية دامية بالغور على نهر الشريعة، وقد وقف عليه بيبرس وقفا لاصلاح ما يهدم منه(٦).

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ١٧٩، ليدن ١٩٠٦.

(٢) بن خلدون، المقدمة، باب ٦ فصل ٧، علم الفقه.

(٣) عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيبرس، ١٩٦٠.

(٤) مجلة الحوليات الأثرية السورية، مجلد ١٠، دمشق ١٩٦٠.

(٥) ابن اياس، بدائع، ج ١، ص ٩٣. والخان هى القيسارية (السوق المستوفه) او

الوكالة، وهى غرف ومخازن للتجار يعلوها طباق للسكنى بارتفاع دورين أو ثلاثة (سعيد عاشور، العصر المماليكى ص ٤٤١).

(٦) ابن تغرى بردى، النجوم، ج ٧، ص ١٩٤، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٧٥.

ومثل الخان الذى فى العقبه وجعلت فيه الحواصل، كما حفرت حوله  
 الآبار لخدمة الحجاج ، وغيرهم فى عهد السلطان الغورى(١).  
 وكذلك كانت بلاد الشام مركزا تجاريا هاما بين بلاد العالم. وكانت  
 التجارة تعتبر المركز الأول، بالنسبة لاقتصادياتها. وأهم دعائم الثروة والمال،  
 ويرجع السبب فى ذلك لموقعها الجغرافى وتوسطها لدول العالم الاسلامى،  
 وأيضا بين الشرق والغرب فهى تقع فى الطرق التجارية منذ العصور القديمة.  
 وقد لعبت الصناعات والحرف دورها فى الاسواق المحلية مثل سوق  
 الشماعين وسوق النقل والياميش. حتى غدت دمشق منذ عهد الظاهر بيبرس أهم  
 مركز انتاج الاوانى الزجاجية، وتليها فى هذه الصناعة حلب. وكانت الشام  
 تصدر الاتواع البديعة من الزجاج والبللور، المصنع بها الى مصر والعراق  
 وآسيا الصغرى وايران، وبلاد الصين(٢).

كما بلغت صناعة التحف المعدنية فى دمشق وحلب غايتها فى عهد  
 الناصر محمد بن قلاوون(٣).

وقام التجار بدور رئيسى بما يملكون من رؤوس الاموال، فى تنشيط  
 التجارة الخارجية التى تعد مصدر التجارة الحقيقية لبلاد الشام فى عصر  
 سلاطين المماليك.

وكانت التجارة قائمة بين بلاد الشام، والتجار الاوربيين وخاصة  
 الايطاليين، الذين كانوا يحرصون، على حسن العلاقات بينهم وبين الدولة

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج-٩، ص ١٠٤٤.

(٢) م.س. ديماند، الفنون الاسلامية، ص ٩٨، مراجعة احمد فكرى، ١٩٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٥.

المملوكية حتى أنهم أعادوا احدى السفن التجارية المملوكية التي استولى عليها قراصنة البحر الجنوبيين عام ١٢٨٩/٦٨٨ ارضاء للسلطان المملوكي قلاوون، وعقدوا معه معاهدة صداقة واتفاقيه تجارية ١٣٠٩/٧٠٩ (١).

وكانت جزيرة قبرص التي تواجه مدينة صور، تصدر الثياب والالات لبلاد الشام (٢).

أما عن التجارة بين الشام ومصر، فقد نشطت، القوافل التي كانت تحمل الحرير والعطور والتوابل، بحيث كانت تحتل المركز الاول فى الصادرات من بلاد الشام، كما كانت البلاد الشامية تقوم بدور الوسيط فى نقل البضائع التي ترد اليها من بلاد الشرق الاقصى مثل الحرير الصينى، والتوابل من الجزيرة العربية ومن غيرها. ثم تقوم، بتصديرها الى انحاء العالم (٣).

وكان يوجد فى الشام، قناصل مثلما هم فى مصر. وكان السلطان يستدعيهم فى المناسبات الهامة التي تستدعى ذلك، ومن أمثلة ذلك ماحدث فى عام ١٥١٠/٩١٦ فى عهد السلطان الغورى، عندما قبض نائب البيرة، فى شمال الشام، على جماعة من جواسيس لاسماعيل شاه الصفوى ملك العجم ومعهم مكاتبات الى عدة قناصل فى بلاد السلطنة المصرية ليكاتبوا ملوكهم بأن يكونوا معه يدا واحدة ضد الغورى وضد السلطان سليم العثمانى. وكانت الخطة أن يقوم الصفوى بغزو مصر برا والفرنجة يغرزنها بحرا (٤).

(١) احمد رمضان، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام، ص ١٢١.

(٢) المقدسى، احسن التقاسيم، ص ١٨٤، لين ١٩٠٦.

(٣) احمد رمضان، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام، ص ١٢١.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٧، ص ٨٠٤.

فاستقدم الغورى قناصلة الفرنج فى عام ١٥١٠/٩١٦ وهم كما ذكرهم ابن اياس ( القنصل الذى بثغر الاسكندرية والقنصل الذى بدمشق والقنصل الذى بطرابلس فلما وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام، وهددهم بالشنق(١).  
ثم أمر السلطان الغورى بتسليم القناصل الثلاثة الى ناظر الخاص للتحقيق معهم فيما حدث، وان لم يعترفوا، يقوم ناظر الخاص بتسليمهم الى الوالى(٢).

\* \* \*

كانت الشام دائما مهذا لحضارات متعددة منذ القدم، ترجع الى اصول تمتد جذورها فى مختلف الحضارات السابقة، فعرفت بلاد الشام حضارة اليونان والرومان وغيرها من الحضارات التى قطعت خلالها بلاد الشام مراحل واسعة فى التقدم فى الميدان الحضارى حتى صار لها حضارتها المميزة بين الحضارات الاخرى. ووضحت العوامل الحضارية فى بلاد الشام، فى الاحوال المعيشية، والتفنن فيها من السكن والمأكل والملبس وغيرها.  
الى أن جاء الاسلام فى بلاد الشام وانتشر العرب فى مختلف أنحاءه، وعاشروا أهل الشام وخالطوهم، ونقلوا اليهم لغتهم ودينهم وأخذ العرب من التراث الحضارى الشامى وصهروه فى تراثهم، وظهرت حضارة جديدة سخرها العرب لخدمة دينهم بعد ان وضعوا فيها خلاصة تجاربهم، ونفثوا فيها من روحهم، وأبدعوا حتى تمكنوا من بناء حضارة متميزة نسخت ما قبلها(٣). حتى

(١) المصدر نفسه، ج٨، ص٨١٣.

(٢) نفسه.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، الباب الرابع، فصل ١٦، ص٣٦٩.

صارت اللغة العربية لسان جميع اهل الشام، بعد ان كانت السريانية. وتحول الشاميون الى الاسلام. وكان هذا التحول عاملا في ابراز حضارة الاسلام في بلاد الشام. وبقيت الحضارة الاسلامية في تطورها حتى رسخت وثبتت أقدامها ليس في بلاد الشام وحدها وانما في جميع أمصار الاسلام.

فمن حياتهم الاجتماعية فانها تنقسم الى قسمين : الحضر، وهذه قد مارست الاشتغال بالزراعة والحرف. فمنذ بداية العصر العباسي، بعد أن اسقط حقهم في العطاء في بداية عصر المعتصم العباسي في عام ٨٣٣/٢١٨ فجردهم بذلك من صفتهم الحربية كغزاة وماكان يترتب على ذلك من امتيازات تطبيقية يتمتعون بها، وحولهم الى مواطنين عاديين يمارسون الاعمال المدنية السائدة في البيئة وفي الزراعة.

ومما لاشك فيه ان قبائل العرب المستقرة في الشام، قد جعلت من الزراعة مهنة رئيسية لها وخاصة ان منهم من كان يمتلك مدينة عامرة مثل الامير عيسى بن مهنا الذي منحه السلطان قطز سلمية، وهي مدينة عامرة، كانت تابعة لحماءه. وأقطعها السلطان لابن مهنا، أمير آل فضل خالصة له<sup>(١)</sup>.

كما ان آل مهنا وآل فضل كانوا في عهد الناصر محمد بن قلاوون يملكون عدة ضياع بأراض حماة وحلب، بل انهم كانوا يملكون بلاد امراء حلب وحماة ودمشق<sup>(٢)</sup> والبداوة وكانت تقوم على الرحلات الدورية المتكررة، للقبائل العربية، في بادية الشام، حول مراكز مؤقتة سعيا وراء الرزق، والعمل في الرعي والزراعة المتقلبة. وممن يشتغل بالرعي، العرب والاكراد والتركماني،

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٢٠.

(٢) المقريزي، الملوك، ج٢ ق٢، ص٥٢٦، ٥٢٧.

مع بعض الاختلاف عند البدون العرب، فالاكراد والتركمان، يشتغل بعضهم بالزراعة، وبعضهم الآخر برعى الشاة والبقر فى مساحات قليلة. أما العرب فمعاشهم أيضا الزراعة عند بعضهم وعند بعضهم الآخر رعى الابل، وهؤلاء يتخذون مساحات شاسعة فى سعيهم ورعيهم للابل لطبيعة الابل، وحاجتها الى الدفاء، فهذه لم تتغير (١).

ومن أمراء العرب الذين منحوا الاقطاعات الكبيرة، الامير شطى بن عتبه أمير عرب الكرك، وهم بنو عقبه، من جذام عرب الجنوب. وذكر القلقشندى، أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون اقبل على هذا الامير العربى و (أجله فوق السماكين وأحقه بأمرآء آل فضل وآل مرآء، وأقطعه الاقطاعات الجليلة) (٢).

وممن ينسب الى عرب الكرك، بنو زهير عرب الشوبك، وآل عجبون والعطويون والصونيون وغيرهم (٣).

وبنو جذام وكانت بطونهم منتشرة بين مصر والشام، اشتغل بعضهم بالزراعة أو الحراسة، وذكر المقرئى ان بنو جذام التى اختلطت بعض بطونها بمصر، كانت لهم مزارع (٤) وأكثرهم مشايخ البلاد وخفراؤها (٥).

(١) ابن خلدون، المقدمة، الباب الثانى، فصل ثان، ص ١٢١.

(٢) القلقشندى، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٢٤٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المقرئى، البيان والاعراب، ص ٢١.

(٥) المصدر نفسه.

ومما لاشك فيه أن جذام الشام التي سكنت بوادي الاردن(١)، قد احترقت  
 الزراعة هي أيضا، لان كلا من جذام مصر والشام، قد سكنوا ارضا ملائمة  
 للظروف الطبيعية من حيث وجود الاتهار، وخصب التربة، في المناطق التي  
 سكنتها. وهكذا يمكن تطبيق ذلك على بقية القبائل العربية التي سكنت بالغوطة  
 والمرج من عرب زبيد وغيرها من البطون والعشائر العربية أحلاف آل فضل.  
 وللأمطار في بلاد الشام بالاضافة الى الاتهار تأثير على الانتاج  
 الزراعي، فكان يحدث في بعض السنين ان يتأخر سقوط الامطار في بلاد الشام  
 فتجف الابار ويفسد الزرع ويقع الغلاء في الاسعار تبعا لذلك(٢)، وذلك مثلما  
 حدث في عهد العادل كتبغا في عام ١٢٩٦/٦٩٦ وكان من عادة المسلمين أن  
 يجتمعوا اذا تأخر سقوط الامطار ويدعون الله لاسقاطها لسقى الزرع(٣).  
 وفي الشام من المحاصيل، الذرة والشعير والارز، والبسلة واللويبا  
 والحلبة والسمسم والعنب والرمان، والقراصيا والموز والبرقوق والمشمش  
 والخوخ والكمثرى، والجوز والبندق والزيتون.  
 وفيها من الابل والبقر والغنم والخيول والبغال والحمير، والغزلان  
 والارانب، ومن الوحوش البرية، الاسود(٤).

(١) عمر كحالة، معجم قبائل العرب، ج١، ص١٧٤.

(٢) المقرئزي، اغائة الامة، ص٣٢، ٣٤، القاهرة ١٩٥٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٨٦، نعمان قساطلي، الروضة الغناء في دمشق

الفيحاء، ص١١٦، ط. بيروت ١٨٧٩.



وكانت بلاد الشام تمد بلاد الاسلام بالغلل أحيانا. مثل المجاعة التي حدثت في عهد العادل كتيغا، وكان بالشام، مايزيد عن عشرين ألف غرارة ببلاد الكرك والشوبك، وبلاد الساحل، وكانت معدة للحملات الحربية، فحملت الى الامصار (١).

كذلك اعتنى سلاطين المماليك بتنشيط الزراعة في الشام، فأنشأوا الجسور بالغور والساحل، ومنها جسر بقرية دامية بالغور على نهر الشريعة، وأوقفوا عليه الوقف لصيانتة (٢).

واشتغل العرب من البدو والحضر في الجاهلية والاسلام، بأعمال الحراسة للطرق والقوافل، فكان دور البدو حراسة القوافل التي تمر بأراضيهم مقابل مبلغ من المال يدفع لهم، فكانوا، يقومون بتأمين المتاجر وحراسة الاموال، لقاء جعل معلوم.

وفي الشام اشتغل العرب بحراسة الطرق، وحماية القوافل التي تعبر الصحارى من اللصوص وقطاع الطرق. مثل قبائل جذام بالاردن والبولان (٣). وبنو عقبة بالمنطقة التي تقع بين مصر والحجاز الى حدود غزة (٤). ثم زبيد، ومساكنهم بالمرج والخطوة وكانوا يقومون بأعمال الحراسة وحفظ الاطراف (٥).

(١) المقرئى، اغائة الامة، ص ٣٤.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص ١٩٤.

(٣) المقرئى، البيان والاعراب، ص ١٨، القلقشندى نهاية الارب، ص ٣٦٤، قلايد الجمان

للقلقشندى، ميكروفيلم رقم ٣٨١ معهد المخطوطات العربية بالجامعة العربية بالقاهرة.

(٤) القلقشندى، نهاية الارب، ص ٣٦٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

واشتهر العرب فى الجاهلية والاسلام بمهارتهم فى ركوب الخيل، والفروسية، وأسلوب الكر والفر، الذى أجادوه فى المعارك، ولذلك اهتموا باقتناء الخيول وتربيتها، وتعهدوا الخيل بالعناية، والرعاية، واهتموا بأصالتها، وحرصوا على تتبع أنسابها(١). ولذلك ألفت الكتب فى نسب الخيل. وكان للعرب فى الشام عناية فائقة باقتناء الخيل العتاق، دون غيرها، وهى التى ترجع الى أصول عربية خالصة، بمعنى أن الفرس العتق معروف بالنسب وسمى بذلك لعنقه، من العيوب، وسلامته من الطعن فيه بالامور المنقصة.

وذكر الديميرى أن من الخيل ما لا يبول ويرث مادام عليه راكبه(٢). وفى العصر المملوكى، زاد اهتمام عرب الشام، بالخيل، وكان لفرسانهم دورهم فى المعارك، وعليهم كان الاعتماد فى القتال وكان الفرس هو الوسيلة الرئيسية فى الحروب المملوكية، فى قتال العدو، والنيل منه(٣).

ومن هنا ورد اسم الخيل فى القرآن الكريم مرتبطا بالجهاد، فى قوله تعالى : ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم(٤)). وفى الحديث ( الخيل معقود فى نواصيها الخير، الى يوم القيامة(٥).

(١) كمال الدين الديميرى، حيات الحيوان، ج٢، ص٢٢٩، القاهرة ١٨٧٥.

(٢) ابن الكلبي، اسباب فحول الخيل، تحقيق احمد زكى، القاهرة ١٩٦٤.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص٢٧٢، ٢٧٣.

(٤) سورة الانفال، آية ٦٠.

(٥) النويرى، نهاية الارب فى فنون الادب، ج٩، ص٣٤٧.

ويبلغ من عناية المسلمين بالخيول أنهم جعلوا للفرس، ضعف نصيب صاحبه، فكان للفرس سهم وسهمين لفرسه(١).

وفى عام ١٣١٥/٧١٥ أحضر محمد بن عيسى اخو الامير مهنا، للسلطان فرسا بلغ ثمنها مائة الف درهم وضيعة بثمانين ألف درهم(٢). وقد ذكر المقرئى، ان عرب الشام فى ايام الناصر محمد بن قلاوون، (كثرت سعادتها واتسعت احوالها بالاموال والضياع، وحملتهم الدالة حتى طلبوا من السلطان الناصر بلاد أمراء حلب وحماء، ودمشق، فأنعم بها عليهم وعوض الامراء عنها)(٣).

ويستدل من المصادر التى تعرضت لها ممتلكات العرب، فى عصر سلاطين المماليك على عظم ثروة العرب الحيوانية فى هذا العصر، والامتلة على ذلك كثيرة.

فعلى سبيل المثال، ماورد فى قائمة لممتلكات صودرت فى عام ١٣٠١/٧٠١ عددها مائة الف رأس من الخيل والجمال والاغنام(٤) وهذا عما كان يمتلكه العرب فى مصر.

(١) النويرى، نهاية الارب فى فنون الادب، ج٩، ص٣٧٦، عبد الرؤوف عون، الفن الحربى، ص١٢٢.

(٢) المقرئى، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٢٦، ٥٢٧، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص١٦٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) زترستين، نصوص عربية من دول المماليك، ص١٠٧ K.V.Zettersteen ط.ليدين سنة ١٩١٩.

اما ماكان يمتلكه آل مهنا وآل فضل وآل مرا من قبائل عرب الشام فى عصر المماليك، من الابل والغنم والخيول (فلا تدخل تحت حصر)(١). وكانت القبائل تقدم من قطعانها للسلطان عشرات الالاف من الغنم فى كل عام، زكاة مفروضة للسلطان(٢).

وقد تكرر تعرض الثروة الحيوانية العربية من الخيول، والجمال والاعنام للاستيلاء عليها بالالاف من بعض حكام المماليك، بطريقة مباشرة احيانا، لسبب أو لآخر، وأحيانا أخرى بتحريض قبيلة للاعتداء على الممتلكات الحيوانية لقبيلة أخرى(٣)، وقد كشفت هذه الاحداث التى سجلتها المصادر العربية عن حقيقة ماكان يمتلكه عرب الشام من ثروة من خيول وجمال واعنام هائلة، وكشف ايضا، عن مدى عناية العرب ومهارتهم فى حرفة الرعى. ومن القبائل التى اشتغلت بالتجارة، جذام، وكانت بطون جذام تنزل بين الشام ومصر، فنشطت، تجارة النوى والشعير والعلف وكانوا يشتغلون بتجارة التمر ويصدرونه الى سائر الآفاق(٤).

(١) المقرئى، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٢٧.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى، ص٤٢٣.

(٣) الصيرفى، نزمة النفوس والابدان فى تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشى، القاهرة

٧٠، ص٤٠٦، محمد بن طولون، مفاهمة الخلان فى حوادث الزمان، تحقيق زيادة،

سنة ١٩٦٢، ص١١١.

(٤) ياقوت الحموى، معجم البلدان، ص١٨٣.

كذلك نسب الى قبائل جذام وثلعبه تصدير الغلال، الى الفرنج(١). زمن الحروب الصليبية، على الرغم من ان بعض المصادر تنفى عن جذام وثلعبه هذا الدور(٢).

على أن مانسب اليهم فى حد ذاته يشير بوضوح الى أن جذاما وثلعبه كانتا تشتغلان بالتجارة الخارجية، أما قبائل آل مهنا وآل فضل وآل مرء، فقد امتلكت، الضياع واشتغلت بالزراعة وتربية الخيول وبيعها وجنوا من وراء ذلك أرباحا طائلة(٣).

وكان أهل الشام وجيرانهم الأرمن يشتغلون معا، فى تجارة بيع الخيول والبغال والغلال والشعير والحديد، وحدث ان الأرمن امتنعوا عن التعامل مع الشام فى عهد الظاهر بيبرس، فبعث اليهم السلطان بيبرس لتمكين، أهل الشام من البيع والشراء فلم يستجيبوا اليه، خوفا من التتار. وهذا يشير بوضوح الى أن أهل الشام، وكانوا يشتغلون فى تجارة الخيول والحبوب وغيرها مع الأرمن. وكذلك فقد ذكر القلقشندي أن بعض السكان العرب، فى مدن عكا وبلاد الساحل وغيرها، قد مارسوا انواع التجارة وبعض الحرف الاخرى(٤). وايضا قيام نوع من التعاون وحرية التنقل بين، بعض البلاد الشامية وبلاد الساحل التى حكمها الصليبيون(٥).

(١) المقرئى، السلوك، ج١، ق١، ص٧٠.

(٢) المقرئى، البيان، ص٦.

(٣) المقرئى، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٢٦.

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٤، ص٣١.

(٥) عماد الدين الاصفهائى، الفتوح القسى فى الفتوح القدس، ص٣١.

أما الطوائف العنصرية، فقد اشتغلت هي الأخرى بالزراعة والرعى والصناعة وغيرها من الحرف الأخرى. فمثلا التركمان وهم قبائل بدوية من أواسط آسيا يتكلمون التركية ويعيشون على تربية الماشية ويتغذون من منتجاتها، ويشتغل نساؤهم بغزل الصوف ونسج السجاد(١).

\* \* \*

ومن مظاهر التحضر في الشام الزى، ولم يكن للناس في العصر المملوكى حرية ارتداء ما يرغبون من الملابس، وكان للسلطان حق التدخل في تحديد الزى وقصر ارتداء انواع معينة من الثياب على جماعة معينة من الناس(٢).

وكان كبار رجال الدولة وامراؤها ورجال القضاء والفقهاء يرتدون السراويل(٣). ولم يكن ارتداء السراويل قاصرا على الرجال دون النساء، بل كانت النساء يرتدين السراويل والقمصان وكانت السراويل بالنسبة للمرأة من الملابس الخارجية. ومن المعروف ان النساء يمكنهن في بيوتهن بدون سراويل(٤). وكانت بعض مدن الشام مثل نابلس يلبسن كساء واحدا بلا سراويل(٥).

(١) يوسف غواتمه، التاريخ الحضارى لشرقى الاردن فى العصر المملوكى، ص ١٣٩ عمان ١٩٨٢.

(٢) سعد الخادم، الاترياء الشعبية، القاهرة ١٩٦١، ص ١٨.

(٣) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٧٢.

(٤) Ahmed Abd Arrazik, La femme au temps de Mamelouks en Egypte le Caire, 1973. p.212.

(٥) المقنسى، احسن التقاسيم، لبنان ١٩٠٦، ص ١٨٣.

وكان العرب يلبسون القمصان ذات الاكمام الواسعة، ولبس فرسان العرب فى الشام الثياب الاطلسى والقبابى، والديباج الرومى - وهو قماش لامع او ملون يعتبر تقليدا للحريير الصينى وهى كلمة فارسية تعنى لباس الروح(١). وفى عهد السلطان محمد بن قلاوون لبس العرب الحرير الاطلسى، وكان الامير العربى، عندما يولى من الابواب السلطانية يكتب له تقليد شريف بذلك، ويلبس تشريفا اطلسيا أسوة بما هو متبع مع نائب السلطان(٢). ولبس العرب الخلع البابلى السكندرى(٣) والمطرز بالذهب. وذكر القلقشندى ان الملابس المطرزة لم يكن يلبسها الا من كان له اقطاع فى الحلقة(٤). وصاغ السلطان لنسائهم الاساور الذهب المرصعة بالجواهر واللؤلؤ، وبعث لهن بالقماش السكندرى، وعمل لهن البراقع المزركشة، والشنابر يأكّر الذهب(٥).

(١) المقرئزى، السلوك، ج١، ق١، ص٥٠٠، ج١، ق٣، ص٦٩٠، ماجد، الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦١، ص١١٤.

(٢) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص٢٠٥.

(٣) أخذت الاقمشة الاسلامية، أسماء غالبا من أسماء المدن التى صنعت فيها، مثل الدمشقى، اشتق اسمه من اسم دمشق، الحلبي وهو منسوج فى حلب) ماجد، الحضارة الاسلامية، ص١١٣، ١١٤.

(٤) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص٤٠.

(٥) الشنابر جمع شنبر، وهى كلمة فارسية معربة، ومعناها شريط حرير أسود أو احمر قائم عرضه شبران وطوله نحو سبعة أذرع، وتلفه النساء على رؤسهن فوق العصابة بحيث يتدلى أحد طرفيه من مقدم الرأس والثانى من مؤخرها(المقرئزى، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٢٨).

وفى عهد محمد بن قلاوون أيضا لبس النساء العرب الشاميات، الطرحة (١) والفرجيات (٢) التى بلغ ثمن الواحدة منها عشرة آلاف دينار ولبسن الخلاخيل الذهب والاطواق المرصعة بالجواهر الثمينة والقباقيب الذهب المرصعة، والأرز الحرير وغير ذلك. ولم يكن لباس البدو قبل عهد السلطان محمد بن قلاوون (غير الثوب من القطن والبرقع المصبوغ، وفى يدها سوار من حديد) (٣).

وكان العرب قبل عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (لبس أمرانهم، الى آخر الايام المنصورية قلاوون، الطرايطير الحمر من تحت العمائم الشامية من القطن، وكانت خلعهم اما مسط أو كنجى) (٤).

والأمير مهنا بن عيسى هو اول من لبس منهم (طرد وحش) وهو نوع من قماش حرير منقوش بمناظر الصيد والطرد كانت تصنع منه الهدايا

(١) الطرحة: تطلق الطرحة على خمار المرأة، والطرحة ايضا شاش رفيع يلف على العمامة بهيئة مخصوصه، وكانت العادة الا يطرح الا من علم فضله واشتهر. (على مبارك، الخطط التوفيقية، ج١٠، ص٩٢).

(٢) الفرجيات: لباس يشبه القفطان او العباءة فهو مفتوح من الامام من أعلا الى أسفل الى القدمين من مزرة بالازرار، وأحيانا يلبسونها وتكون الفتحة من الخلف وليس من الامام. (القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص٤٠، سعيد عاشور، العصر المملوكى، ص٤١٦، ٤٣٨).

(٣) ابن تغرى بردى، التجوم، ج٩، ص١٧٦، المقرئى، السلوك، ق٢ ص٥٢٩.

(٤) المسط: هو القماش من الحرير الاصفر والاحمر، مزين بنقش بارز، والكنجى: بغير ضبط، وهو قماش منسوج من قطن وحرير (المقرئى، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٤٧،



السلطانية، أهداه له السلطان المنصور لاجين لمروة بينهما(١) والطرده وحش كما وصفه أيضا على مبارك في خطه بأنه ثانی الأطلسين(٢).

وكان أمير ال عيسى بن مهنا، عندما يكتب له تقييد شريف من السلطان، كان (يلبس تشريعا أطلسيا أسوة النواب)(٣).

وكان أهالي دمشق، يلبسون الملابس الضخمة ويتعممون، رجالا ونساء بالعمائم الكبيرة جدا(٤). حتى أن الشخص كان يستطيع ان يلبس عمامة طولها مائة ذراع(٥).

اما اشرف العرب الذين ينتسبون الى بيت الرسول، فقد لقوا ترحيبا كبيرا من الاشرف شعبان الذي أمرهم بلبس، عمائم بها شطافات خضر تميزا لهم عن غيرهم من سائر القوم، وتعظيما لتدريمهم، ومما قيل في هذه المناسبة للشيخ شهاب الدين بن جابر الاتدلسي :

جعلوا لأبناء الرسول علامة .. ان العلامة شأن من لم يشهر  
نور النبوة في كريم وجوههم .. يغنى الشريف عن الطراز الأخضر(٦)

(١) المقرئى، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٢٨، سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر الممالكي،

ص٤٣٢، القاهرة ١٩٦٥.

(٢) على مبارك، الخطط التوفيقية، ج١، ق٩١.

(٣) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص٢٠٥، (والشريف، هو الملابس المهده من

السلطان الى كبار الامراء فى مناسبات خاصة أخصها التعيين فى الوظائف الكبرى

كالنيابة، سعيد عاشور، العصر الممالكي، ص٤٠١.

(٤) نعمان قساطلى، الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء، بيروت ١٨٧٩، ص١٢٦.

(٥) ماجد، الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٣، ص١١٤.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٩٥.

وللشيخ شمس الدين بن المزين :

أطراف تيجان أتت من سندس .°. خضر كأعلام على الاشراف  
والاشرف السلطان خصصهم بها .°. شرفا لتعرفهم من الاطراف(١)

وعرف العرب النقاب رجالا ونساء فلبس الرجال اللثام، ليقبهم من لفح  
الحر، وانتشر اللثام كزى لدى عامة النساء العرب بعد الاسلام وخاصة بعد أن  
جعله النبي لزوجاته، فسارت النساء المسلمات على نفس النهج(٢). وصارت  
المرأة في بلاد الشام لاتخرج بدون ازار ويلبسن على وجوههن المناديل حتى  
لايراهن أحد(٣).

ومن ملابس العرب التي عرفوا بها أيضا، العقال والكوفية والعباءة  
يستترون بالعباءة من حر الشمس ويتقون بها برد الشتاء ويستخدمونها وسادة  
وغطاء وفي حمل الطفل أو الاطعمة ومثل ذلك وهي خاصة بهم(٤). (وكان  
أهالي دمشق يلبسون الملابس الضخمة ويتعممون رجالا ونساء العمام الكبيرة  
جدا)(٥).

(١) المصدر نفسه.

(٢) ماجد، الحضارة الاسلامية، ص١١٦.

(٣) نعمان قساطلي، الروضة، ص١٢٦.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج٢، ص١٢٣، احمد الشرباصي، شكيب أرسلان، داعية

العروبة والاسلام، ص١٦٣، الجيزة ١٩٦٣، مكي الجميل، البداوة والبدو في البلاد

العربية، سرس اللبان ١٩٦٢، ص٥١.

(٥) نعمان قساطلي، الروضة، بيروت ١٨٧٩، ص١٠٦.

وكانت النساء تلبس أيضا الكوفية على رؤسهن، وتربط تحت الرقبة(١).  
 وكانت المرأة تخرج وعليها ازار وتغطي وجهها بمنديل فلا يراها أحد(٢).  
 وكان أهل الشام لا يتخفون في الصيف، انما هي نعال الطاق(٣)، وكان  
 بعض النساء يلبسن السقامين وهو خف ثان يلبسنه فوق خف آخر(٤).  
 وماقدمه السلطان الناصر محمد قلاوون للعرب من عطاء بسخاء لم  
 يسبقه أحد من قبله من سلاطين المماليك (حتى قال له صفره بن سليمان بن مهنا  
 "لقد أقدست علينا تسواننا، يريد لكثرة ماغمرهن السلطان بالمال"(٥).  
 وقد تعرض السلطان الناصر محمد لنقد شديد بسبب ماقدمه للعرب  
 وخاصة لنسائهم من الهدايا الثمينة حتى قال له مرة بن مهنا من عرب الشام  
 (خف الله في المسلمين وبيت المال، فانك تفرقه على العرب ونسائهم وصغارهم  
 فكيف يحل لك هذا؟ ومتى سمعت عن بدوية انها تلبس غير الثوب من القطن  
 والبرقع المصبوغ، وفي يدها سوار حديد(٦).  
 والحقيقة ان عرب الشام كانت تربطهم بالسلطان الناصر علاقة وطيدة  
 بسبب هوايته في اقتناء الخيول العربية وتعلقه الشديد بها، وكان لا يبخل بمال في  
 سبيل الحصول على بغيته منها، فلذلك أغدق عليهم الهدايا حتى تغير حال المرأة

(١) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٨، ص١٤٢.

(٢) نعمان قسطلي، الروضة، ص١٠٦.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٣.

(٤) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص٣٣١.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٢٩.

(٦) المصدر نفسه.

البدوية من عرب الشام ، فخلعت الملابس والحلى الرخيصة، واستبدلتها بالحريز  
الاطلسى والطرح المزركشة والحلى المذهبة.

ولم يكن هناك فرق فى الزى فى الشام والذى فى مصر. وسبب ذلك أن  
الدولة كان لها حق التدخل فى تحديد الزى وقصر ارتداء انواع معينة من الثياب  
على جماعة من الناس(١) وماكان يصدر فى مصر من أوامر سلطانية  
وتوجيهات، بخصوص الزى، كان يصدر مثله فى بلاد الشام، ويلزم الجميع  
بالتففيذ، ومن يخالف يعاقب(٢).

ومن أطعمة العرب فى الشام، التمر واللبن واللحم والارز والدقيق،  
ويضعون الحساء من الدسم والدقيق ويسمونها الحريرة، ومن طعامهم :  
البيسة، وهو كل شىء خلط بغيره(٣)، والمنسف، وهى أكلة شعبية فى بلاد  
الشام، تصنع من الارز واللحم المطبوخ باللبن الرائب. ويعرف ايضا  
بالشاكرية(٤)، والمنسف ايضا، طبق مستدير، واسع من الخشب يقدم فيه  
الطعام(٥).

---

(١) المقرئى، السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٠، وراجع ماورد فى هذا الشأن فى الرسالة  
المقدمة من محمود محمد السيد للحصول على درجة الماجستير، وعنوانها " تاريخ  
القبائل العربية فى مصر فى عهد الدولتين الايوبية والملوكية" ص ٢١٠٠ جامعة  
الاسكندرية.

(٢) المقرئى، السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٠.

(٣) ابن عبد ربه العقد الفريد، ج٣، ص٢٩٤، القاهرة ١٣٠٥.

(٤) يوسف غواتمه، التاريخ السياسى لشرقى الاردن، ص ١٧٤، ١٩٨٢.

(٥) نعم شقير، تاريخ سينا، ج٣، ص٣٤٤.

ومن أسماء الطعام عند العرب الوليمة، وهو طعام يقدم، فى الافراح، والاعذار وهو طعام يقدم عند ختان الاطفال، والمأدبة، وهو كل طعام يقدم لدعوة. والسفلى، وهو طعام يقدم قبل الغداء<sup>(١)</sup>. ومن أطعمه العرب أيضا، الوشيقة من اللحم، وهو المسلوق فى الماء، ثم يقدم اللحم مع الحساء<sup>(٢)</sup>. والعصيدة<sup>(٣)</sup>، يغلى الماء فى حلة ويصب عليه الدقيق قليلا قليلا، مع تحريكه، حتى يكون له قوام فيصعب فى القصاع، ويقدم. واذا تم غلى الدقيق باللبن الحليب بدل الماء، فانهم يسمونه التلبانه. والدفينة، وهى فتة من الخبز، او الارز بمرقة اللحم ويوضع فوقها اللحم قطعاً. والجريشة، ويجرش القمح بحجر الرحى حتى يصير برغل، خشن، ثم يسلق جيدا ثم يسكب فى قصاع ويخلط باللبن والسمن، والجريشة والعصيدة أكثر أكل العرب<sup>(٤)</sup>.

ويستخدم العرب فى تحضير طعامهم، بعض الالات منها : حجر الرحى، ويستعمل لطحن الدقيق، والغراويل وهى لغرلة الحبوب وتنظيف الدقيق، والصاجات وهى من الحديد، وهى للخبز وعمل الأربعة<sup>(٥)</sup>. وذكر المقدسى، فى أحسن التقاسيم، أطعمة أهل الشام وطريقة صنعهم للخبز، فذكر ان لهم مخايز، وهى تنور فى الارض صغير، يفرش بالحصى ويوقد حوله وفوقه، فاذا احمر الحصى طرحت الأربعة على الحصى.

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٣، ص ٢٩٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) نعوم شقير، تاريخ سيناء، ج٣، ص ٣٨١.

(٥) المصدر نفسه.

وعندهم طباخون للعدس والبيسار، ويقلون الفول المنبوت بالزيت  
ويصقلونه ويبيع مع الزيتون<sup>(١)</sup>.

وأما عن الفروسية، التي تولدت منها عند العرب لعبتان، الأولى  
الصولجان أو لعبة الكرة على الخيول وفي عصر سلاطين المماليك كان  
السلاطين يلعبون لعبة الكرة فوق الخيول في الميادين الواسعة مع بعض الامراء  
العرب. ومن أمثلة ذلك ما حدث للامير زامل بن علي أمير آل علي من عرب  
الشام، الذي كان معتقلا بالقاهرة، ثم افرج عنه السلطان الظاهر بيبرس ولعب  
معه في الميدان<sup>(٢)</sup>.

الثانية لعبة المبارزة على الخيول بين رجلين في مواسم ومناسبات،  
بعينها، ثم تولدت العاب أخرى منها الصيد على الخيول ويدخل ضمن ذلك من  
الاعيب الفروسية، عندما يمتطون الخيول ويحضرون المغنية تجلس سافرة في  
الهودج وهي تغنى وأمامهم العبيد تميل على الركائب وترقص<sup>(٣)</sup>.

ثم الغناء، ومنه حداء الابل، وهو الغناء للابل، وهي تشرب او تسير  
لانها تستعذب بالشرب، وتحب السير على صوت الحداء.

ومن آلات الطرب عند العرب، المنجيرة، وهي الصفارة، والزمور،  
وتسمى في مصر القرون<sup>(٤)</sup>.

ويسكن العربي من البدو في خيام من الشعر، تصنعها النساء، وتتكون  
الخيمة من تسعة أعمدة، ثلاثة في الوسط وثلاثة في كل جانب من جانبي الخيمة

(١) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٨٣.

(٢) المقرئ، السلوك، ج١، ق٢، ص ٥٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ق٣، ص ٦٩٠.

(٤) نعوم شقير، تاريخ سينا، ج٣، ص ٣٤٤.

ويوضع عمود فى صدر الخيمة فى اتجاه الشرق ويسمى (المقدم) ويوضع عمود فى وسطها وهو أعلى الاعمدة، ويسمى الواسط، والعمود الثالث يوضع فى الغرب ويسمى (الزافرة). أما الاعمدة التى فى الجنين فتسمى (اليد والعامر والرجل) ويصنع سقف الخيمة من شعر الماعز، اما الاجناب وتسمى (الرواق) فتحاك من وبر الابل، وصوف الغنم وتثبت الخيمة بالحبال والاوراد. وتقسّم الخيمة الى قسمين بواسطة ستارة تمتد من الشرق الى الغرب ويطلق (المقند)، فتصير الخيمة قسما للرجال، وقسما للنساء وللخيمة باب من جهة الشرق، يظل مفتوحا فى الصيف، ويقفل فى أيام المطر والبرد(١).

ومن عادات العرب : حب الضيافة والكرم ومراعاة الجار، وتعظيم الجميل والوفاء بالعهد والافتخار بالنسب والشجاعة، وعلو الهمة وبذل المعروف والانفة وعزة النفس وعدم احتمال الضيم وكره التقيد بنظام، والجرأة فى طلب الحق، وحب المساواة والحرية والشورى(٢).

وكانت الاسواق الشامية، فى حلب وحماة ودمشق، تحتفل فى العصر المملوكى بالمناسبات الدينية، فكانت اسواق الشماعين، تزين الحوانيت فى شهر رمضان بأنواع الفوانيس الشمعية.

وكانت الاوامر السلطانية تصدر، لتحديد شكل الشموع، ووزنها. وكل مناسبة رسمية يختلف شكل الشمع ووزنه عن المناسبة الاخرى. فكانت الشموع كبيرة الحجم تزن ما بين عشرة ارطال الى قنطار. وكانت الشموع الكبيرة تحمل

(١) نعوم شقير، تاريخ سينا، ج٣، ص٣٧٢.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، الباب الثانى، الفصلين ٤، ٥، نعوم شقير، تاريخ سينا، ص٣٦٧.

مكى الجميل، البداوة، والبدو، ص٣٥، سرس الليان ١٩٦٢.

على عجل وكانت الحوانيت تستمر مفتوحة الى منتصف الليل لكثرة الاقبال على الشراء منها(١).

أما اسواق النقل والياميش، فكانت تمتلىء في شهر رمضان، بأنواع الياميش التي تفرش على ابواب الحوانيت، فيقبل أهل الشام على الشراء منه، ويقدموه للضيوف، ويوزعونه على أطفالهم حين يدورون على البيوت، يحملون الفوائيس المضاءة ويغنون الاغاني الرمضانية في جماعات صغيرة.

وفي شهر شعبان كانت بلاد الشام تصدر الياميش والنقل بكميات هائلة الى مصر، استعدادا لشهر رمضان. وكانت الشام تصدر ايضا الزيت والصابون والفسق والجوز واللوز والخرنوب(٢).

وكان الرجال والاطفال يصومون شهر رمضان، ومن وجده المحتسب مفطرا عاقبه عقابا بسيطا للجهر به، حتى وان كان مريضا او مسافرا، فان لم يكن له عذر للافطار عاقبه وادبه، وعرضه للاستهزاء وسخرية الأطفال منه(٣).

\* \* \*

اما عن العلم والثقافة في الشام فنجد أنها في عصر الحمدانيين كانت صورة للحركة في مصر وقد ازدهر العلم في بلاد الشام بتشجيع من امراء عرب

(١) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص٩٦، احمد رمضان، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام،

ص٢٤٥، القاهرة ١٩٧٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.



الشام، وبذلوا فى سبيله الاموال للعلماء بسخاء، فظهر فى بلاد الشام طائفة كبيرة من المحدثين والفقهاء والصوفية والقراء.

وعلماء الشام امثال مكحول والاوزاعى والثورى وغيرهم، كان لهم من الأثر فى الشام فى الحديث والفقہ، مثلما كان للعلماء بمصر، فمثلا الامام الاوزاعى المتوفى ١٥٧/٧٧٣ الذى ظهر له مذهب خاص عرف بالاوزاعية، وصار من أوائل مذاهب أهل الشام كقطر مستقل. (كان له من الأثر فى الشام فى الحديث والفقہ ما لليث بن سعد والشافعى بمصر)(١).

والاوزاعى وهو الامام الاكبر للمدرسة الشامية القديمة فى الشريعة، وساد ببلاد الشام، ثم امتد الى بلاد المغرب وحتى الاندلس.

ويكاد يكون الطابع للحركة العلمية فى الشام ومصر طابعا واحدا قريبا واتصالهما الجغرافى، وتبادل العلماء الزيارة والرحلة فكان لعلماء الشام رحلات بلغت أقصى الغرب من بلاد الاسلام مثل محمد بن على الانطاكى الذى ولد بأنطاكية عام ٢٩٩/٩١١ ودرس الفقه وغيره من العلوم، ورحل الى بلاد المغرب والاندلس لكى ينشر العلم بين أهله وعشيرته من اهل الاسلام هناك(٢).

وكانت اكبر حركة فى الشام فى الادب، واللغة وعلومها فى عصر الحمدانيين حيث بلغت حركة الشعر والنحو واللغة فى بلاد الشام ما بلغت فى مصر أيضا، فقد جعل العلماء العرب وجهتهم حلب عاصمة الدولة الحمدانية، حيث قامت حركة الشعر والادب، مثلما كانت فى مصر والعراق(٣).

(١) أحمد أمين، ظهر الاسلام، ج١، ص ١٧٥.

(٢) عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية ج٢، ص ٣١٣.

(٣) أحمد أمين، ظهر الاسلام، ج١، ص ١٧٧، القاهر، ١٩٥٢.

وكان فى بلاط سيف الدولة الحمدانى، أبو على الفارسى وكان من أشهر اللغويين

والعلوم فى العصر المملوكى، اهتم العلماء العرب فى بلاد الشام بالفنون، والآداب والعلوم وألفوا الكتب فى التاريخ والآداب واللغة وعلوم الدين. وفى فروع العلم المختلفة، ولقى العلماء العرب فى بلاد الشام، من الحكام المماليك تشجيعا للدور الذى قاموا به فى بلاد الشام، والرقي بها فكريا وحضاريا، وكان الحكام المماليك من اجل ذلك، يعطون علماء العرب فى بلاد الشام ويجرون عليهم من الاقطاعات والمكافآت المالية الشىء الكثير (١).

---

= والنحويين . عاش فى حلب وشارك فى اجتماعاته الادبية، وكان بينه وبين المتنبى شاعربنى حمدان مناظرات فى النحو واللغة.  
وابن خالوية، وهو من اكبر الائمة، فى اللغة والنحو والادب، وعلوم القرآن فى ذلك الحين.

والفيلسوف العربى الكبير الفارابى ٣٢٩/٩٥٠، وكان يعلم طلابه فى حدائق حلب. وكتب فى المنطق واللاهيات، وفى السياسة والرياضة والكيمياء والموسيقى وأخذ من علوم اليونان، وخالف المعلم الاول، وأتى بالجديد فى هذه العلوم. (ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٨١)، ونال الحظوة لدى سيف الدولة وصحبه فى بعض حملاته الحربية، وتوفى بدمشق. فقد ألف الفارابى كتاب "احصاء العلوم" وقسمه خمسة فصول، وجعل الفصل الاول فيه فى علم اللسان وفروعه من اللغة والنحو والصرف والشعر والكتابة والقراءة، وتشتمل بقية فصول الكتاب على علوم فى جميع فروع المعرفة الانسانية، فذاع الكتاب بين العلماء فى العالم الاسلامى (وأصبح نواه لغيره، من الموسوعات العلمية العربية (دائرة معارف الشعب، ك٤٦، ص ١٦٤، ١٦٦) وفى العصر الفاطمى، ازداد نشاط الحركة العلمية فى الشام ومصر.

(١) أَلْفَلَقَشْنَدَى، نهاية الارب، ص ١٠٣.

ولعل أبرز علماء العصر فى بلاد الشام، ه/ طبقة المؤرخين وكتاب التراجم والسير نذكر منهم على سبيل المثال : محمد بن طاهر المقدسى ت١١١٣/٥٠٧ صاحب الرحلة والتصانيف والتعليقات الممتازة.

والحافظ بن عساكر ت ١١٧٦/٥٧٢ محدث الشام ومؤرخها، ومن أعيان فقهاءها، صاحب " تاريخ دمشق " .

وابن خلكان وهو أحمد بن محمد بن ابراهيم ت ١٢٨٢/٦٨١ أخذ العلم من علماء العراق، وتعلم من ابن شداد من علماء حلب ومن غيره، تولى القضاء بمصر والشام. وكان اهل الشام يحبونه لاستقامته وعدالته فى أحكامه حتى أنه عندما استدعى من مصر - وكان مقيما بها بعد عزله من منصبه فى قضاء الشام - ليعود الى منصبه فى قضاء الشام، فرح بقدمه اهل الشام. ووصف شعراء الشام مشاعر الحب التى استقبل بها بالشام.

ومن ذلك قول نور الدين بن مصعب :

رأيت أهل الشام طمرا	..	مافيهم قسط غير راض
نالهم الخير بعد شمر	..	فالوقت بسط بلا انقباض
وعوضوا فرحة بحزن	..	مذ انصف الدهر فى التقاضى
وسرهم بعد طول غم	..	قدوم قاصد وعزل قاضى
فكلهم شاكر وشاك	..	بحال مستقبل وماضى

وذلك ان ابن خلكان كان قد عزل من القضاء وعين مكانه، القاضى عز الدين بن الصايغ، ثم عزل ابن الصايغ بعد سبع سنين وعين بن خلكان لمنصب

القضاء بعد استدعائه من مصر للشام ومن مؤلفات بن خلكان " وفيات الأعيان (١) " .

محمد بن شاکر الکتبی ت ١٣٦٢/٧٦٤ وهو محمد بن شاکر بن احمد بن عبد الرحمن درس على ابن الشحنة، والمزى وغيرهما من علماء الشام، واشتغل بتجارة الكتب وكان اكثر علمه من طريق الكتب بحكم مهنته، نشأ فقيرا ولما مارس الاشتغال بالكتابة ولحسن خطه ووضوحه ولمهارته، اقبل عليه اهل العلم، ولمروته وحسن معاملته مع الناس، ازدادوا عليه اقبالا، وناله الاموال الوفيرة- ومن مؤلفاته " عيون التواريخ " و" روضة الازهار فى حديقة الاشجار " و" فوات الوفيات والذيل عليها " .

وكان العيني ت ١٤٥١/٨٥٥ من المؤرخين المشهورين فى العصر المملوكى، ولد فى عينتاب - بين حلب وانطاكية- وسافر الى القاهرة، وتولى بها وظيفة المحتسب، وكثير من المناصب الرفيعة، ومن مؤلفاته " عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان " وهذا الكتاب من أهم كتب العيني فى التاريخ، (وهو كذلك من أهم ما أهمله القوامون على نشر المخطوطات العربية واحيائها)(٢).

أما خليل بن شاهين ت ١٤٦٨/٨٧٣ وهو من مواليد بيت المقدس، وتقلد كثير من المناصب والنيابات بمصر والشام. ومن مؤلفاته، " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك " تناول فيه الدستور المملوكى وبين الوظائف الحربية والادارية فى دولة المماليك البرجية.

(١) ابن شاکر الکتبی، فوات الوفيات، ج١، ص ١١٠.

(٢) محمد مصطفى زيادة، المؤرخون فى مصر، ص ٢٠، القاهرة ١٩٥٤.

وأما محمد بن طولون الدمشقي ت ١٥٤٥/٩٥٢ وهو من مواليد دمشق، تعلم على يد شيوخها، ثم رحل الى مكة والقاهرة في طلب العلم وعرف ب"اته" سيوطي الشام<sup>(١)</sup>.

ومن الجغرافيين، علماء عرب تخصصوا في وصف البلدان ودراسة الاقاليم، نذكر منهم :

الخوارزمي : ت ٨٣٠/٢١٥ أبو جعفر محمد بن موسى. وله كتاب (صورة الأرض) وصف فيه المدن والجزائر والبحار والانهار ومنها بلاد الشام، التي وصفها متحريرا الدقة ومستعينا بخطوط الطول والعرض<sup>(٢)</sup>.

واين خرداذبة : ت ٩٨٢/٢٧٢ ألف كتاب " المسالك والممالك " ويعد هذا الكتاب أهم المصنفات العربية في الجغرافيا، حيث وصف طرق التجارة الرئيسية في العالم العربي، بجانب وصفه لجهات قاصية منها الصين وكوريا واليابان.

واليعقوبي : ت ٨٩٧/٢٨٤ أحمد بن ابي يعقوب، ويعد " كتاب البلدان" أهم مؤلفاته، وصف فيه ايران والعراق والحجاز والشام ومصر وبلاد التوبة<sup>(٣)</sup> والمغرب .

والمسعودي ت ٩٥٧/٣٤٦ : على بن الحسن بن على وله مؤلفات كثيرة منها " مروج الذهب ومعادن الجوهر " و " التنيه والاشراف " ويتناول، فيه الافلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها، كما يتناول فصول

(١) محمد مصطفى زيادة، المؤرخون في مصر، القاهرة ١٩٥٤، ص ٧٨.

(٢) الخوارزمي، صورة الارض، ط . فينا سنة ١٣٤٥ هـ ، تصحيح Hans V Mazik.

(٣) مصطفى الشهابي، الجغرافيون العرب ، ص ٤٥.

السنة ويصف الرياح وشكل الارض(١) ومن علماء الجغرافيا من الشوام نذكر:  
 المقدسى ت ٩٨٨/٣٨٩: محمد بن احمد، وله كتاب " أحسن التقاسيم فى  
 معرفة الاقاليم " ألف هذا الكتاب معتمدا على رحلاته، وملاحظاته  
 الشخصية(٢). ومن جغرافى العصر المملوكى نذكر :

ياقوت الحموى : ت ١٢٢٩/٦٧٦ صاحب كتاب " معجم البلدان " .  
 وأبى الفدا : ت ١٣٣١/٧٣٢، اسماعيل ابو الفدا، وله " كتاب البلدان " .  
 أما فى الطب، فى العصر المملوكى فى بلاد الشام فنذكر جمال الدين بن  
 الرحبى الطيب العالم.

ومهذب الدين عبد الرحيم المعروف بالدخوار وهو صاحب المدرسة  
 الطبية بدمشق والتي عرفت بالدخواريه، ونجم الدين يحيى بن الليودى وله  
 مدرسة عرفت باسمه بدمشق(٣).

ولم يقتصر هؤلاء الاطباء العرب، على دراسة الطب فحسب، وانما  
 اشتغلوا بسائر العلوم والمعارف.

ومن برع فى العلوم الطبيعية والطب أيضا  
 رفيع الدين الجبلى، ورشيد الدين الصورى، وعلى الدين بن النفيس  
 الدمشقى، وموفق الدين احمد المعروف بابن أبى أصيبعة الدمشقى، وهو صاحب  
 كتاب " طبقات الاطباء " وعبد الوهاب بن سحنون، طبيب بمارستان الجبل  
 بدمشق(١).

(١) مصطفى كامل ، الشريف الازرقى، ص ١٦، ط . القاهرة ١٩٦٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) احمد رمضان احمد، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام، ص ٢، القاهرة ١٩٧٧.

(٤) المصدر نفسه.

وكان في الشام طائفة كبيرة من الشعراء والمحدثين، والفقهاء والصوفية والقراء الشاميين منهم من بلغ تأثيره الديني، أقصى الجنوب العربي مثل تقي الدين بن تيمية الذي استحدثت منه الحركة الوهابية في بلاد الحجاز حافظها بعد عدة مئات من السنين، فأحدثت بذلك حركة التجدد الإسلامية(١).

ومن الفقهاء المشهورين في علوم الدين :

تقي الدين ابن تيمية : ت ١٣٢٧/٧٢٨ هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام شيخ الاسلام. تعلم الفقه ودقائقه وكان من أئمة النقد اشتهر بقول الحق والنهي عن المنكر وكان ذو سطوة واقدام وعدم مداراة، جهوري، فصيح اللسان، بلغت مؤلفاته في مختلف الفنون والفتاوى الدينية ٣٣٠ مجلدا(٢).

شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي ت ١٣٢٤/٧٢٥ تعلم الفقه(٣) من ابن المنجا وغيره، من علماء الشام ثم انتقل الى مصر، وعلا شأنه بها، لبلاغته وتواضعه وظل بمصر مدة، ثم عاد الى الشام وتولى منصب القضاء بدمشق وبقي يشغل هذا المنصب ثمانية أعوام وكان مولده بدمشق عام ١٢٦٥/٦٦٤ ومن مؤلفاته : " مقامة العشاق " و " منازل الاحباب " و " حسن التوسل في صناعة الترميل "، ومن شعره :

(١) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: ٣٧.

(٢) ابن شاکر الکتبی، فوات الوفيات، ج ١، ص ١١٠.

(٣) الفقه: هو معرفة احكام الله في أفعال المكلفين، من الحلال والحرام واستخراج الاحكام من الكتاب والسنة بالبراهين والادلة واصحاب هذا العلم يسمون باسم الفقهاء والعلماء، وللغة مذاهب أربعة، أشهرها في الشام، مذهب ابن حنبل وهناك مذاهب للشيعة ولكن اهل السنة لا يرون الاخذ بها لغرابيتها(ابن خلدون، المقدمة، الباب السادس، الفصل الرابع في علم الفقه).

- قَبِلْتُ رَجُلٌ حَبِيبِي .. فازور واحمر خِدا  
 وَقَالَ تَلْتُمُ رَجُلِي .. لقد تنازلت جِدا  
 فَقُلْتُ لِمَ آتَ ذَنْبِيَا .. ولا تعديت حِدا(١)  
 رَجُلٌ سَعَتَ بِكَ نَحْوِي .. حقوقها لا تُؤدى

وممن اشتغل بعلم الفرائض والحساب(٢) من علماء الشام محمد بن عبد القادر بن جبريل الغزى ت ١٥٢١/٩٢٨ قدم الى دمشق من غزة وتعلم بها من الشيخ عبد النبي المالكي، ثم برع في علم الفرائض والحساب، ثم ولى القضاء المالكية بالشام في عام ١٥٠٥/٩١١ وعندما ولى منصب القضاء سار سيرة طيبة وكان عفيفا زاهدا ينصر الحق(٣).

وممن تولوا المناصب الادارية في الدولة ووصفوا في أشعارهم الحملات الحربية، وتحركات السلاطين في ميادين القتال :

- يوسف بن سيف الدولة بن زمام الحمدانى المهمندار(٤)، من شعر له  
 يصف عبور السلطان الظاهر بيبرس لقتال التتار وحرهم :  
 لوعاينت عيناك يوم نزلنا ... والخيل تطفح فى العجاج الاكدر  
 وقد اطلخم الأمر واحتدم الوغى ... وهى الجبان وساء ظن المجترى  
 لرأيت سدا من حديد مايرى ... فوق الفرات وفوقه نار تبرى

(١) ابن شاعر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق احسان عباس، بيروت، مجلد ٤، ص ٨٢.  
 (٢) علم الفرائض: هو معرفة فروض الورثة وتصحيح سهام الفريضة للورثة وهو فن بذاته قالوا عنه، ان علم الفرائض ثلث العلم وقيل نصفه. (ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٥١).

(٣) ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٨، ص ١٦٠.

(٤) المهمندار: هو الذى يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويتحدث فى القيام بأمرهم (سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكى، ص ٢٥٦).



وقال :

والظاهر السلطان فى آثارهم ... يندى الرؤس بكل غضب أبتر  
 ذهب الغبار مع النجيع بصقله ... فكأنه فى غمده لم يشهر (١)  
 وفى عصر الدولة المملوكية، كان النشاط مرتبطا الى حد كبير بالعلوم  
 الدينية من حديث وتفسير وفقه.. وبالتالي، فان الاساتذة والطلاب فى ذلك العصر  
 كانوا من رجال الدين.

ومن طائفة التركمان، ممن تولى المناصب الادارية، الكبرى فى الشام،  
 وكان له دور بارز فى بناء المدارس، وأوقف عليها الاوقاف الكثيرة للانفاق  
 عليها وفرشها بالبسط وزينها بالقناديل المكففة، وعين لها المشايخ للتدريس فيها  
 فمن هؤلاء :

الأمير سيف الدين جقمق نائب الشام وهو تركمانى الاصل، يتكلم العربية  
 وتنتقل فى خدمة دولة المماليك، الى أن عينه السلطان المؤيد شيخ (دوادار)  
 كبيرا، أى أمينا للسمر ثم ولاء بعد ذلك نيابة الشام عام ١٤١٩/٨٢٢ (٢).  
 وظلت بلاد الشام منذ عصر بنى حمدان حتى عصر سلاطين المماليك  
 يؤمها العلماء المسلمون من رجال الدين العظماء، يعملون ويتقنون العلم من  
 علماتها، أمثال الشيخ محيى الدين بن عربى : ن٦٣٨/١٢٤٠ وهو محمد بن  
 على بن محمد المعروف بابن عربى، ولد فى رمضان عام ١١٦٤/٥٦٠  
 بمُرسية بالاندلس، تلقى علومه بمُرسية من ابن بشكوال ثم رحل الى بغداد ومكة

(١) ابن شاکر الکتبى، فوات الوفیات والذیل علیها، ج٤، ص٣٤٩، ج١، ص٢٣٩.

(٢) مجلة الحوليات الاثرية السورية، المجلد العاشر، ١٩٦٠، ص٦٩، المدرسة

الجمعیة، عبد القادر الريحاوى، ج٨، ط. دمشق.

ثم الى دمشق<sup>(١)</sup>. وينسب ابن عربى الى قبيلة طى عرب الجنوب<sup>(٢)</sup> برع فى علم التصوف<sup>(٣)</sup> وله فيه مصنفات كثيرة، وله مؤلفات كثيرة منها "الفتوحات المكية" فى عشرين مجلداً و"التدبيرات الالهية والتنزلات الموصلية" و"قصص الحكم". اشتهر بالذكاء وقوة خاطر وكانت وفاته بقاسيون بدمشق عام ١٢٤٠/٦٣٨<sup>(٤)</sup>. ولما كانت علوم العربية من لغة ونحو وبيان وأدب ضرورية، لفهم الكتاب والسنة واستنباط الاحكام الشرعية منها. فقد قام بنقلها وشرح مشكلاتها، العرب، لانها لغة العرب وكان على كل من أراد علم الشريعة من غير العرب أن يعرف لغة العرب، والعلوم المتعلقة بها<sup>(٥)</sup>.

وأول من كتب فى النحو، عربى من بنى كنانة هو أبو الأسود الدؤلى. أمره بذلك على بن أبى طالب، وذلك خوفاً على فساد ملكة علم اللغة، وخشية انغلاق القرآن والحديث على المفهوم، نتيجة لانتشار العرب فى البلاد المفتوحة ومخالطتهم للمستعربين من أهلها<sup>(٦)</sup>.

(١) الكتبى، فوات الوفيات، مجلد ٣، ص ٤٣٥.

(٢) محمد مصطفى حلمى، ابن الفارض، ص ٧٧، القاهرة ١٩٦٣.

(٣) علم التصوف من علوم الشريعة، ويختص هذا العلم بأعمال المجاهرة ومحاسبة النفس عليها، والكلام فى الأنواع والمواجد المعارضة فى طريقها، وكيفية الترقى منها من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التى تدور بينهم فى ذلك ومن هؤلاء العلماء المتصوفة ابن عربى. (ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٦٩، ٤٧٣).

(٤) الكتبى، فوات الوفيات، مجلد ٣، ص ٤٣٦، محمد مصطفى حلمى، ابن الفارض سلطان العاشقين، ط . القاهرة ١٩٦٣، ص ٧٨.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، فصل (٣٦) من الباب السادس (فى علوم اللسان والعربى).

(٦) المصدر نفسه.

وقد ظهرت علوم العربية من لغة ونحو وبيان، نتيجة لاستعمال كثير من كلام العرب في غير موضعه، بسبب اختلاط العرب بالمستعربين من أهل البلاد المفتوحة. وقد حمل لواء علوم العربية، علماء من العرب ومن غيرهم. فهذه العلوم مستحدثة، لمعرفة أحكام الشريعة ( والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى احوال السذاجة والبداءة<sup>(١)</sup>). وقد تنوعت طرق التدريس لعلوم الدين في المدارس الاسلامية، فمنهم من اقتص بتدريس القرآن فقط مثل مدرسة العسرونية في حماة، أو قراءة القرآن والحديث أو قراءة ودراسة علوم الفقه والفرائض وغيرها من علوم الدين<sup>(٢)</sup>.

ومن أبرز مايمز الحضارة العربية في عصر سلاطين المماليك هو ذلك الاهتمام الكبير بالجانب الثقافي ومابلغته المعرفة من تطور كبير وماأصاب التعليم من أزدهار واسع وانشاء المدارس في العصر المملوكي من المنجزات العظيمة التي حققت أهدافها العلمية والحضارية، بفضل معلمها من العرب. وكانت المدارس تلحق بالمساجد عادة وبعضها كان مستقل عن المسجد مثل دار القرآن الضابونية، نسبة الى علم الدين بن سليمان الصابوني. والمدرسة العمرية، أنشأها الشيخ محمد بن المقدسي ت٦٠٧ وكانت هذه المدرسة تحتوى على ١١٠ حجرة مخصصة لتدريس القرآن الكريم وعلوم الدين<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن خلدون، المقدمة، فصل (٣٥) من الباب السادس (في علوم اللسان العربي).

(٢) المصدر نفسه، فصل (٣١).

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق رقم ٤٨، أبريل ١٩٧٣، صلاح الدين المنجد.

وكذلك خصصت الرواتب والاجور للمدرسين وكل العاملين في المدارس المملوكية. وكان بعض من ينشئ المدرسة من الاهالي او رجال الدولة مثل نائب السلطان او غيره من امراء المماليك، يتكفل باعاشة الطلبة وتحمل جميع مصروفاتهم مثل (مدرسة العسرونية) التي أنشأها: في حماة، محمد بن محمد بن أبي بكر الشافعي عام ١٣١٥/٧١٥ وجعلها دارا لدراسة القرآن الكريم علما وتلاوة، قرر بها شيخين لتعليم القرآن، وكانت الدراسة بها داخلية، ومدتها خمس سنين، يمتحن بعدها الطالب في حفظ القرآن فاذا نجح فيصرف له ثوبا او جبة كما أوقف على هذه المدرسة أوقافا كثيرة للانفاق عليها(١).

والمدرسة الجقمقية، التي أمر ببنائها بدمشق الامير جقمق نائب الشام، وهو تركماني الاصل كان يتكلم العربية، تولى نيابة الشام في عام ١٤١٩/٨٢٢. وكان لهذه المدارس الاسلامية الاثر المحمود في تطوير الدراسات في العالم الاسلامي، وذلك بفضل جهود العلماء العرب من اهل الشام ومن غيرهم من بلاد الاسلام.

فالمدرسة الجقمقية، وتقع في حي الكلاسة في المنطقة المجاورة للجامع الاموي من ناحيته الشمالية وكانت تضم هذه المنطقة وحدها عشرين معهدا علميا، (ويصلح ان يطلق على هذا الحي الجامعي او المدينة الجامعية لدمشق في العصور الوسطى الاسلامية)(٢).

وكانت تلك المدارس الاسلامية ومكتباتها مراكز لقاء المسلمين وتلقى العلوم والمواعظ والارشادات الدينية مما يقوى الرابطة الدينية ويعمل على وحدة الفكر الاسلامي.

(١) Repertoire chronologique, t. 14, P.102.

(٢) Ibid., P.71.

والخلاصة، أن المماليك الذين حملوا السلاح دفاعا عن بلاد الشام ومصر خلال حروبهم الطويلة ضد المغول والصليبيين، لم يغفلوا عن دورهم فى البناء والتعمير فى الداخل، فأقاموا الحصون والقلاع لحماية البلاد من الاعداء، وأقاموا المساجد والمدارس والمستشفيات والفنادق والحمامات وغيرها وخصصوا لها الازواق الكثيرة للاتفاق عليها وصيانتها.

أما عرب الشام فقد شاركوا فى الدور الدفاعى عن بلاد الشام وحصلوا على تقدير الحكام المماليك لتعاونهم معهم فى الحروب ضد الاعداء. كما نالوا تقديرهم ايضا لمساهماتهم فى العمل على استقرار الامن فى ربوع بلاد الشام فى ظروف السلم.

كذلك كان لعرب الشام من حضر وبدو دورهم فى الحياة الاجتماعية فاشتغلوا بالزراعة والتجارة والرعى وتربية الخيول التى كانت من اسباب توطيد علاقتهم بالسلطين وخاصة السلطان محمد بن قلاوون الذى جعلهم يرتدون اجمل الثياب ولنساتهم الأساور والطفى من الذهب والفضة والأحجار الكريمة. هذا مع ما قام به عرب الشام من الدور الثقافى فى بلاد الشام الذى أمتد حتى بلغ أقصى الجنوب فى بلاد الحجاز وأقصى الغرب فى بلاد المغرب والاتدلس.

الخاتمة

كان للقبائل العربية، قبل قيام الدولة المملوكية دور هام، فى الدفاع عن الشام وصيانة حدوده. وقد استطاع العرب فى فترة انشغال الخلافة العباسية بمشاكلها الداخلية، أن يشكّلوا كتلا عربيا، نتج عنه ظهور دويلات عربية مستقلة مثل الدولة الحمدانية والدولة المرديسية، ظلت راياتها، خفاقة تحمى أرض الشام وترهب جيرانه من الروم والأرمن وتدافع عن الثغور وتغزو منها أرض الاعداء.

ثم تغيرت احوال الشام، وظهرت دول جديدة سيطرت على هذه الدويلات، مثل الدولة السلجوقية، ثم تحول العرب، الى مواطنين عاديين فى تلك الدولة، وكانوا يقدمون من حين لآخر معوناتهم الحربية كلما لزم الامر. وفى عصر الدولة الايوبية، شارك العرب فى الشام، فى المعارك الحربية ضد الصليبيين، ونالوا الالقاب العسكرية تقديرا لخدماتهم فى الدفاع عن الشام.

فلما كان عصر سلاطين المماليك، شاركت قبائل العرب المماليك فى الشام، فى صد التتار عن الشام وطردهم منه. وكان للعون العسكرى الكبير الذى قدمته القبائل العربية من اهم المعارك الحربية وأخطرها أعظم الاثر فى توثيق العلاقات التى قامت بين العرب والمماليك فى بلاد الشام، فقد ادرك المماليك أن عرب الشام قوة لا يستهان بها.

والحقيقة ان القبائل العربية فى الشام قبلت مبدأ التعاون مع المماليك بعد ان تبين لها ضعف حكام الشام من ملوك بنى أيوب وتفرق كلمتهم، ولذلك سرعان ما اجتمعت كلمة تلك القبائل العربية على الإلتصام الى صفوف المماليك والمشاركة معهم فى طرد التتار من بلاد الشام، وقد ادرك المظفر قطز دور العرب فى الانتصار على التتار، فلم يتزدد فى منح قادة العرب الذين شاركوا

فى طرد التتار، الاقطاعات تقديرا لدورهم البطولى. وهكذا يتضح دور القبائل العربية امام الحكام المماليك ومن هنا كان بدء السياسة المملوكية التى قامت بين المماليك والعرب على قاعدة من الود والتقدير.

أما فى زمن الحرب، فقد ذكرنا حقائق تتعلق بنظامهم الحربى وطريقة القتال وانواع الاسلحة التى استخدموها فى القتال، كما استخدموا الموانع المائية والحصار الاقتصادى، لصد العدو ودفعه عن البلاد، وكان من نتائج ذلك حصول بعض قادة العرب على وظيفة نائب السلطان فى بلاد الشام.

وأما فى ظروف السلم فكان على أمراء العرب القيام، بدور المحافظة على استتباب الامن فى انحاء البلاد، والاخلاص للسلطان والاجتهاد فى مصالح الدولة، ومراعاة الاحوال من معاقبة المذنب واثابة المصلح. وكانت الاستجارة بمعنى الحماية من خلق العرب فى الجاهلية وبقيت هذه العادة عند العرب بعد الاسلام. ولذلك كان بعض زعماء القبائل العربية القوية فى الشام، يقوم بدور المصالحة أو العفو، عن بعض أمراء المماليك أو غيرهم من أصحاب المراكز القيادية، فى الدولة المغضوب عليهم من السلطان لسبب او لآخر، ويلتمسون العفو عنهم، وغالبا ماكان يستجيب لهم السلطان ويصدر أمره بالعفو عن العبيء.

وفى عصر الدولة المملوكية، كان دور عرب الشام الحضارى والاجتماعى، من نشر الثقافة وعلوم الدين، استمرارا لهذا الدور فى العصور الاسلامية فى بلاد الشام، والذى بقى مستمرا، حتى عصر الدولة المملوكية.



وقد توصلت فى هذا البحث الى نتائج منها:

### فى ظروف الحرب :

أن العرب شاركوا فى الدفاع عن بلاد الشام، مشاركة فعالة، ومؤثرة فى مواقع كثيرة منها، معركة عين جالوت فى عهد السلطان قطز، وهى التى حدث فيها الانتصار الاول على المغول وكان من نتائجها انها انقذت العالم الاسلامى من خطر المغول والصليبيين، ومنح السلطان قطز مدينة سلمية بشمال الشام للامير عيسى ابن مهنا، تقديرا لشجاعته فى المعركة ضد التتار.

ومعركة حمص الثانية. وهى ايضا من المعارك، الفاصلة فى التاريخ، حدثت فى عهد المنصور قلاوون، وقد كونت قبائل عرب الشام الميمنة بقيادة عيسى بن مهنا، وأحمد بن حجى فى هذا الجيش المملوكى. كما كانوا، يشكلون الميسرة أحيانا أخرى. وان بعض سلاطين المماليك، مثل قطز وبيبرس منحوهم الألقاب، وجعلوهم طبقات مثلهم فى ذلك مثل كبار رجال الدولة المملوكية. كما منحوهم الاقطاعات والمدن فى بلاد الشام تقديرا، لدورهم الحربى فى الدفاع عن الشام.

ثم ان دور العرب الحربى ظل مستمرا حتى نهاية العصر المملوكى، فلم تفتن عزيمتهم عن الدفاع عن أرضهم الشام، ولاسيما فى وقت الصليبيين، وحتى لما هاجم العثمانيون الشام. حاربوا العثمانيين وقاوموهم واستخدموا الموانع المائية فأطلقوا أنهار دمشق، ولعلمهم يقصدون نهر بردى الذى يشق دمشق لمنعهم من التقدم فى البلاد الشامية، ومنعوا عنهم الاعلاف، فلم يجد العثمانيون غذاء لخيولهم فأطلقوها تهيم فى الخلاء، تبحث لهم عن طعام، فأضعف، ذلك من عزيمتهم، وأوشكوا على الهزيمة فى معركة قابون فى شمال الشام. ولوان العرب المدافعين عن الشام وصلتهم الامدادات من مصر حين طلبوها من

السلطان طومان باي، الذي كان مستمرا في مقاومة العثمانيين في مصر لتغيير الموقف وتحول لصالح الشام ومصر حتى صدر لاحد امراء عرب الشام هو ناصر الدين بن الحنش مرسوم بنبابة حمص تقديرا لشجاعته، مما يؤكد استمرار الدور البطولي لعرب الشام، حتى نهاى العصر المملوكى.  
اما فى ظروف السلم :

فان الدور العربى الذى برز فى الفترة المملوكية هو الدور الحضارى، بالعمل على استتباب الامن واستقرار الاحوال فى أنحاء الشام، حتى نالوا التقدير من الحكام المماليك الذين أشادوا بدور عرب الشام فى استقرار الاحوال، فى انحاء الشام.

ثم قيام عرب الشام بدور الدفاع عن مصالح أهالى الشام، ومواجهتهم الحكام المماليك، حتى اضطروهم فى غالب الاحوال للاستجابة لمطالب أهالى الشام العادلة.

ثم قيام علماء عرب الشام بدور هام فى نشر اللغة، وعلوم الدين، وبلغ تأثير علماءهم الدينى والثقافى، مختلف انحاء العالم الاسلامى.

\* \* \*

وماورد هنا بهذا البحث، حقائق مستقاة من المصادر العربية الموثوق بها، التى تتصل بهذا البحث.

وهذا بخلاف مذكورته بعض المراجع الحديثة التى حين ذكرت قبائل العرب وقيامهم احيانا بالثورة ضد سلاطين المماليك، لسبب أو لآخر، أغفلت ايجابيات العرب التى اثبتتها خلال هذا الكتاب.

## **الصور والخرائط**



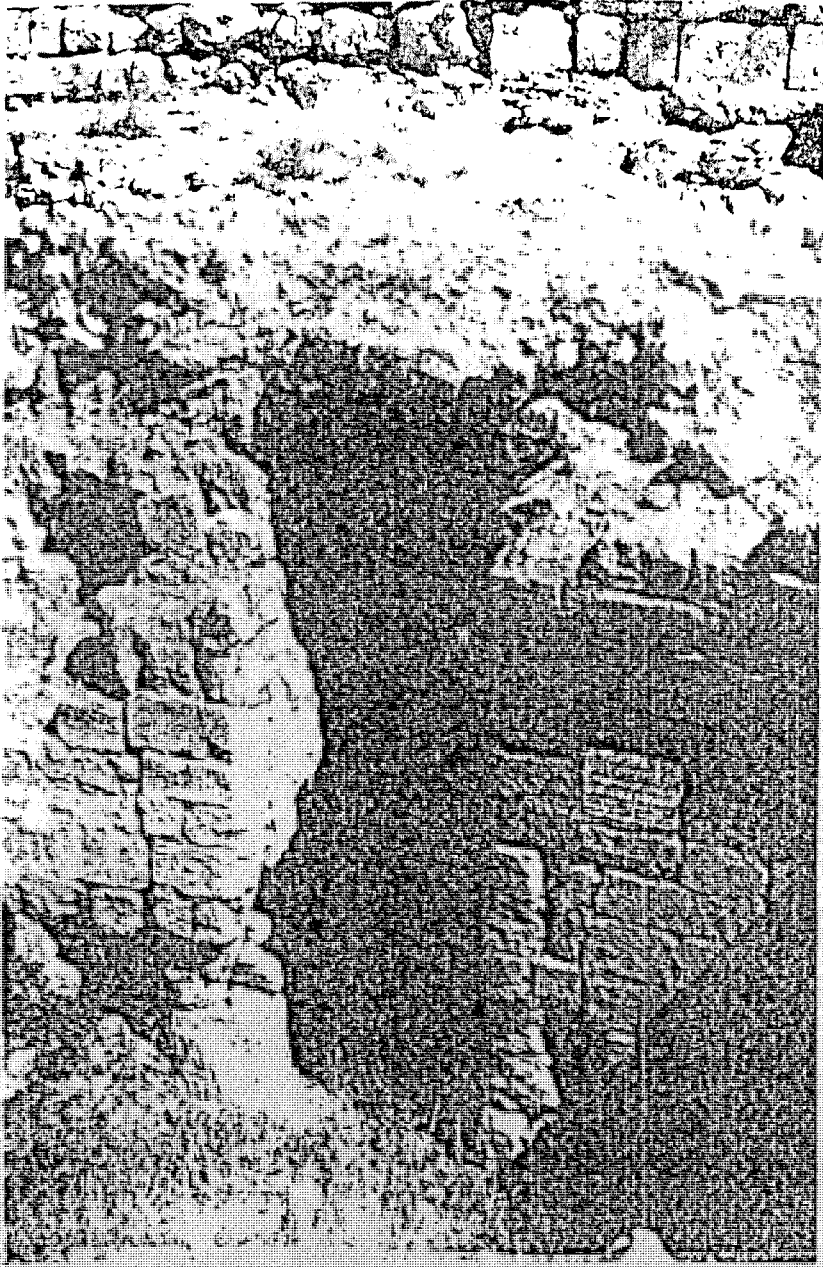
درزیه وقد زینت صدرها وجبهتها بكثير من الحلی



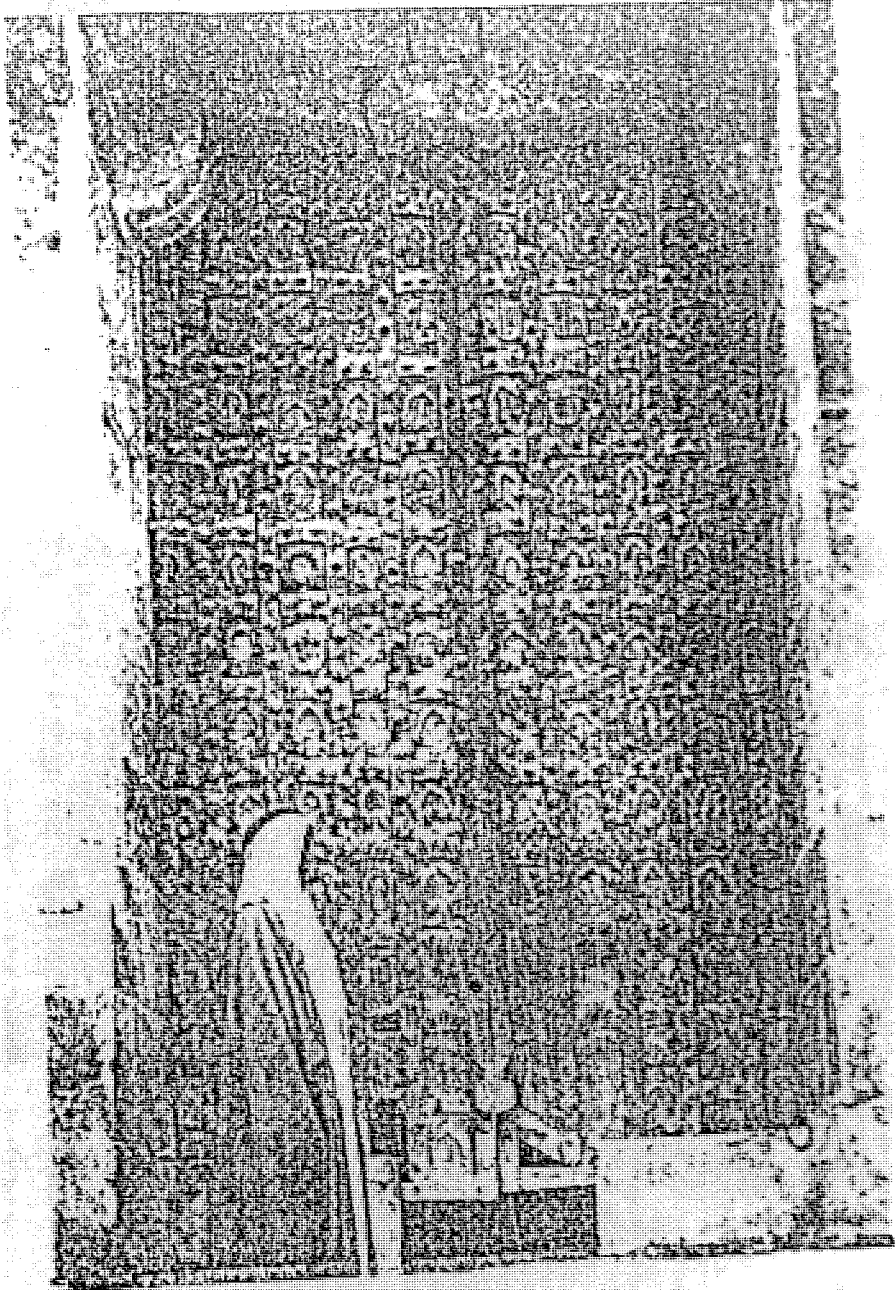
لوحة من الفسيفساء الملون تعطل دارات على تنهر  
بردي في جدار الرواق الغربي للجامع الأموي بدمشق



زخارف معمارية من القسقيس، في جدار الرواق  
الغربي للجامع الاموي بدمشق .

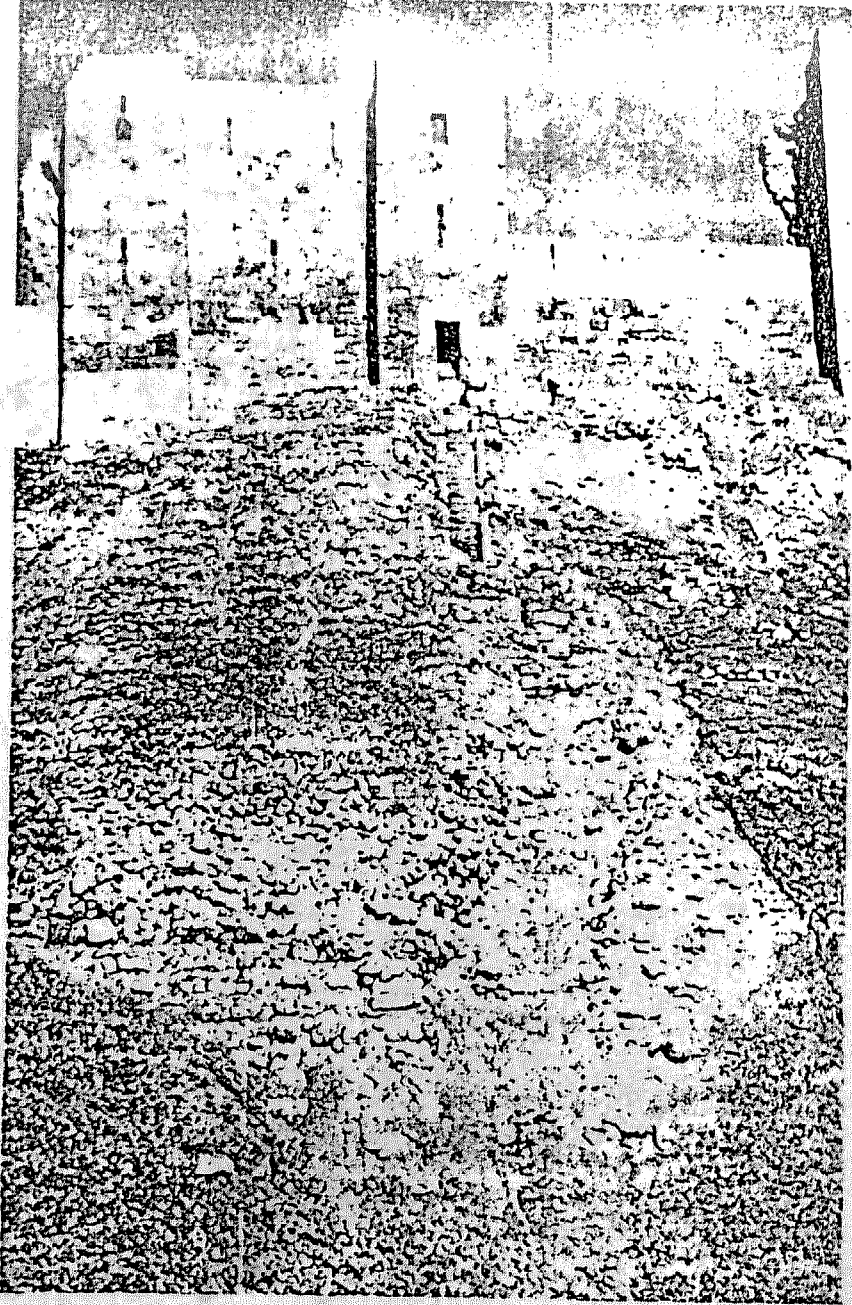


المدخل إلى الباب السري الذي يوصل إلى باب الأربعين في داخل القلعة

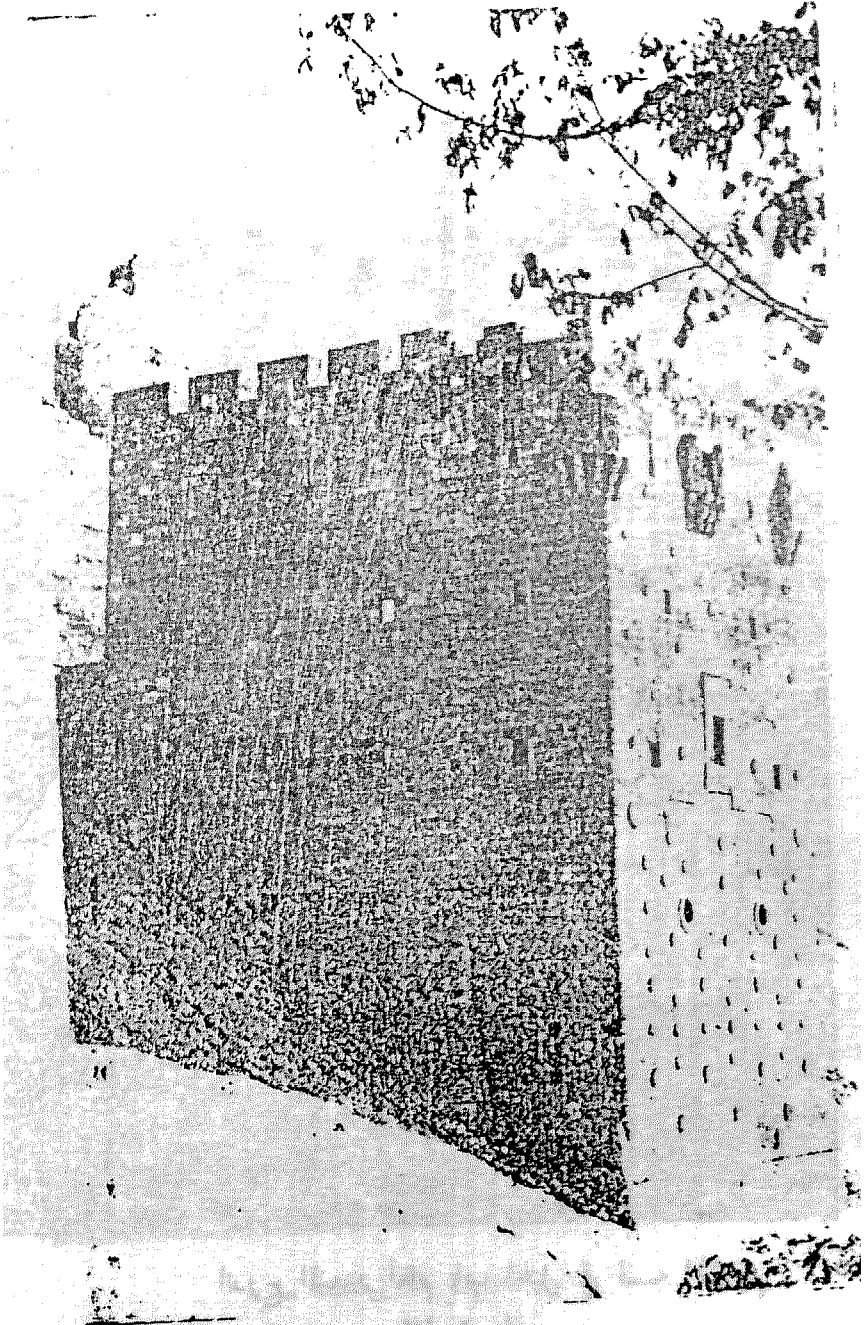


باب المتبدي الأول للغة حاب

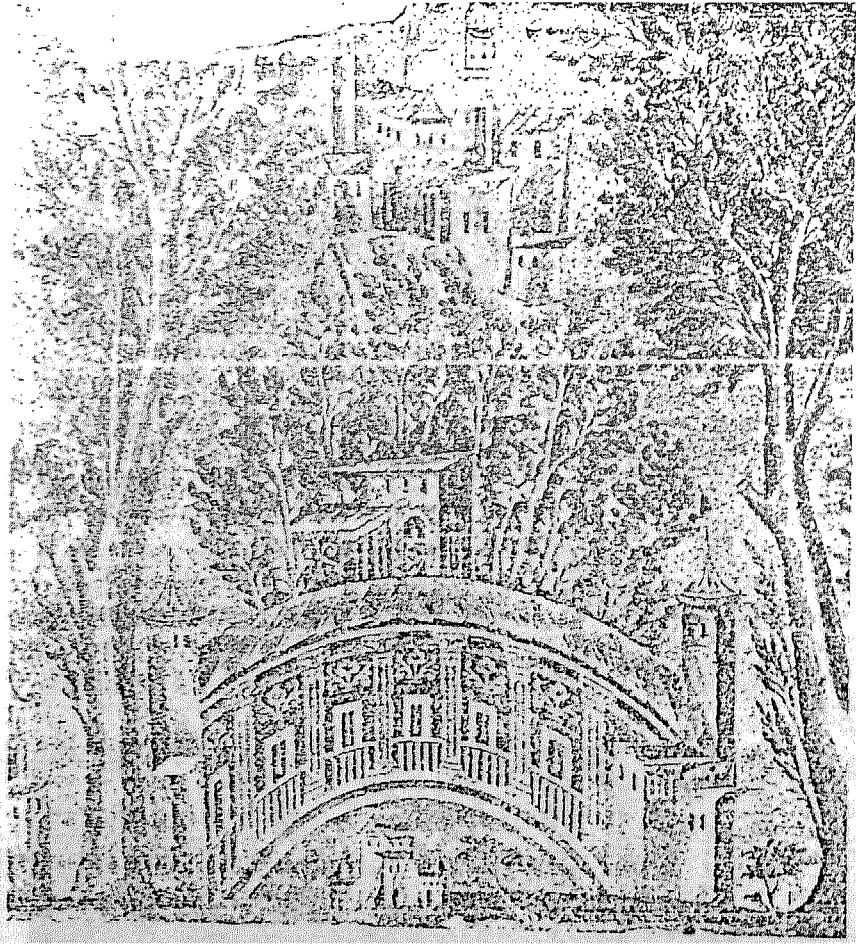




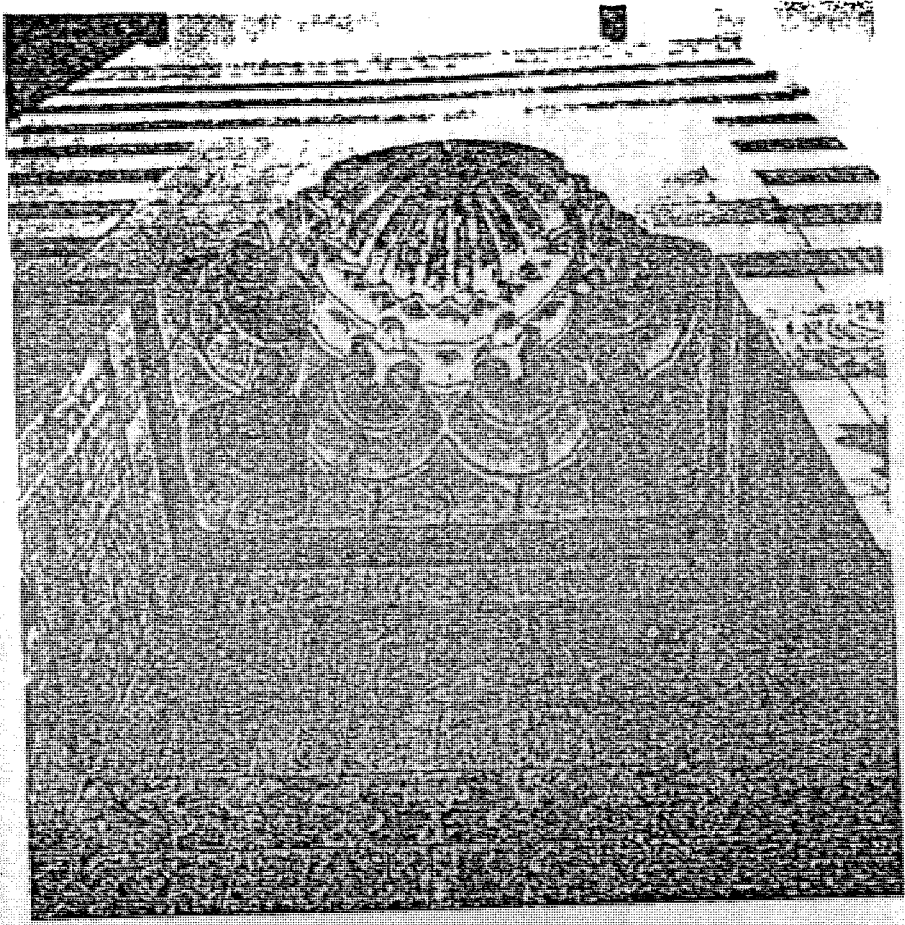
الدرج المنحدر أمام باب الجبل في قسمه الخارجيه  
لقلعة حلب



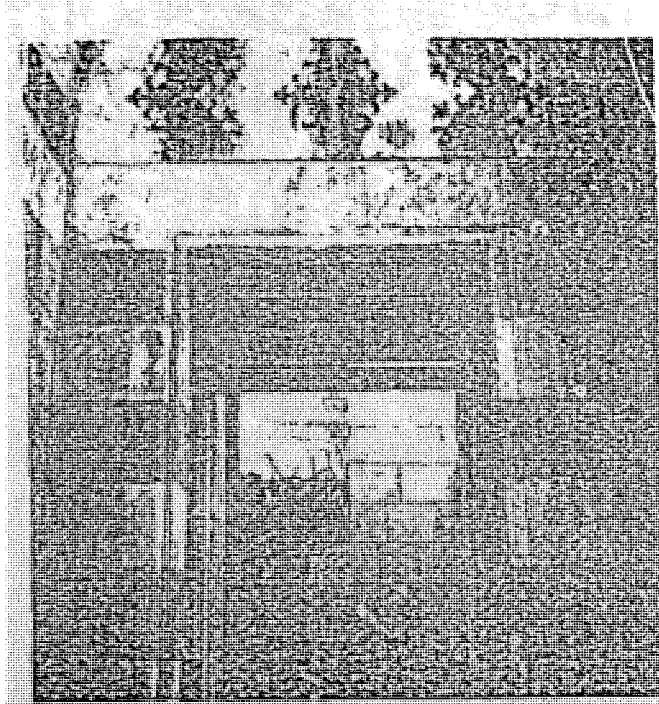
البرج الجنوبي في خندق قلعة حلب



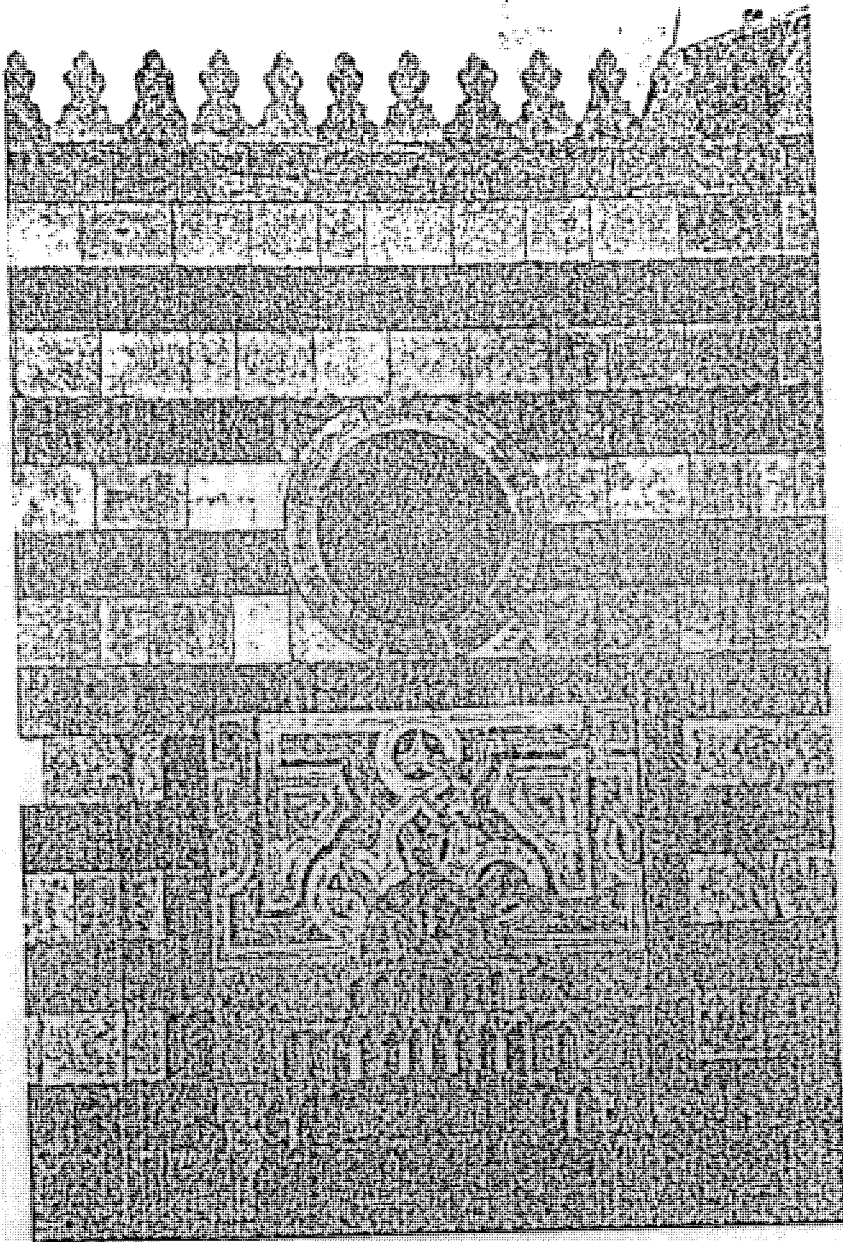
السورة رقم ١ - زخارف مہاربة في جدار الرواق الغربي



القسم العلوى لبوابة المدرسة الجفمقية

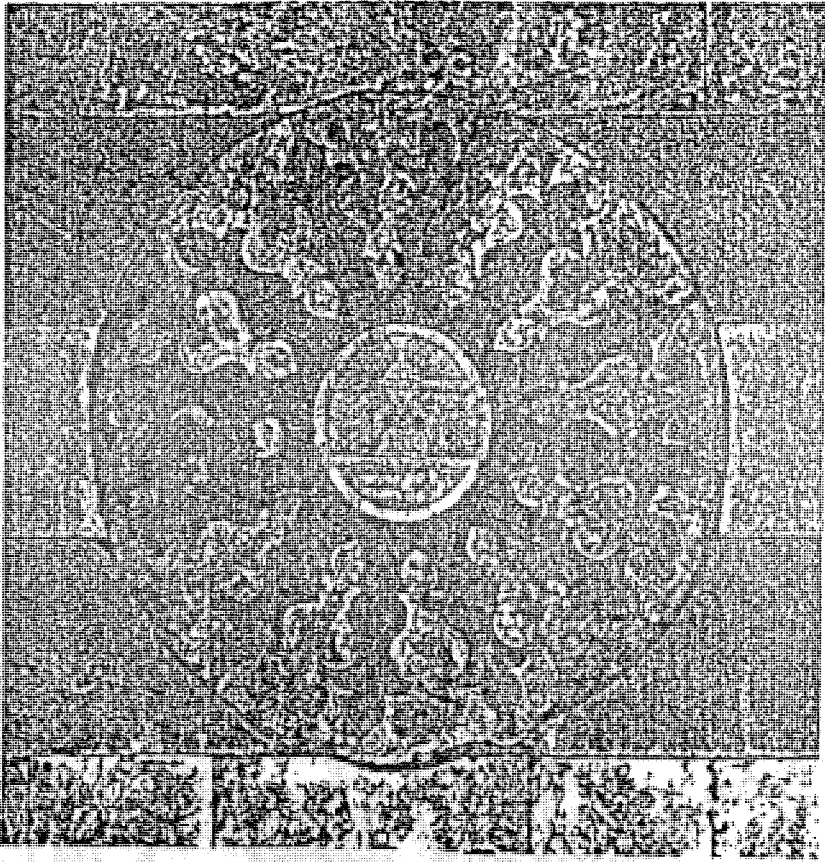


باب المدرسة الجفعية في الحاء المزور والعقد العاتق

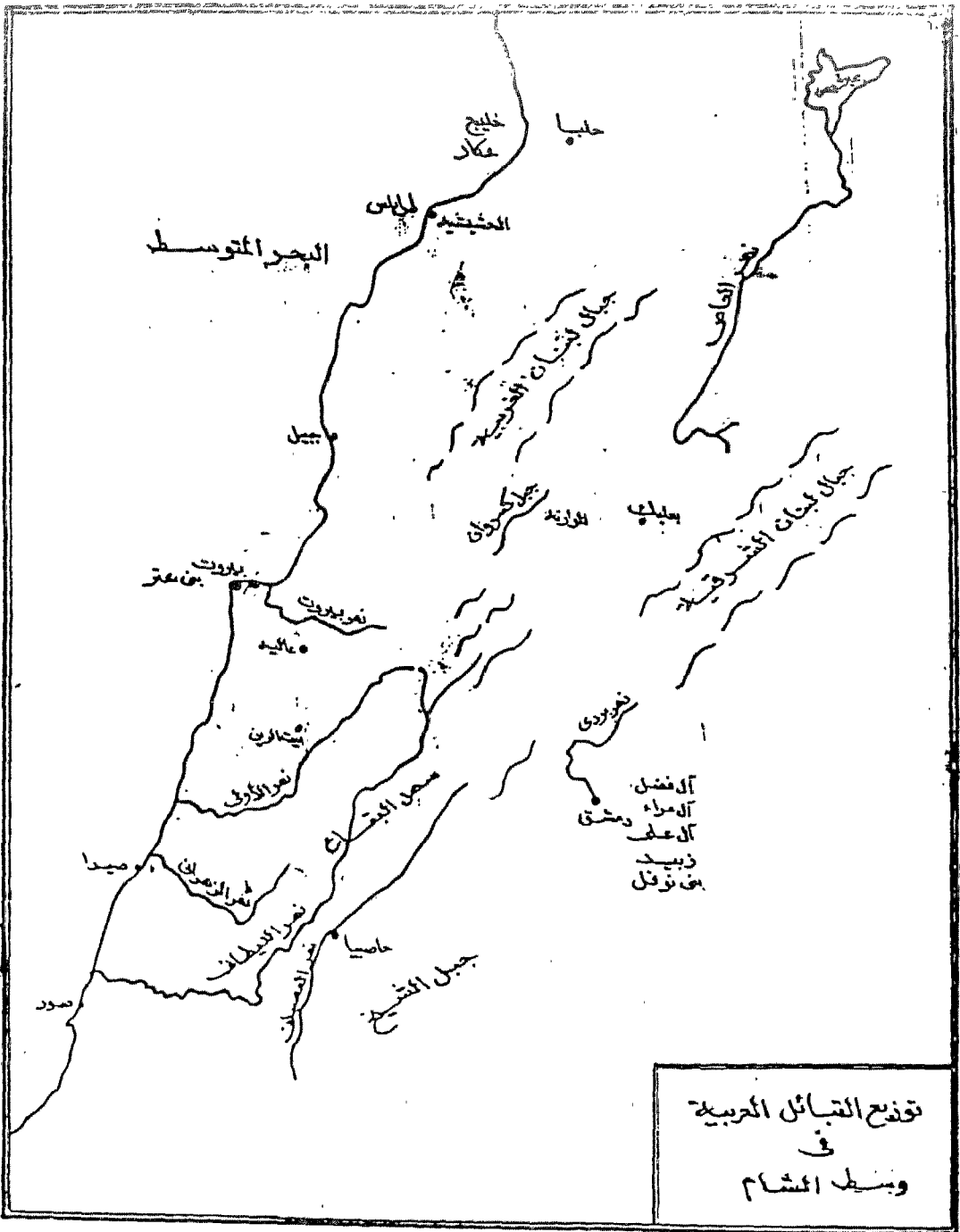


باب من الواحية الشريفة وتبدو في أعلاما الترفان

للمدرسة الجفقيه

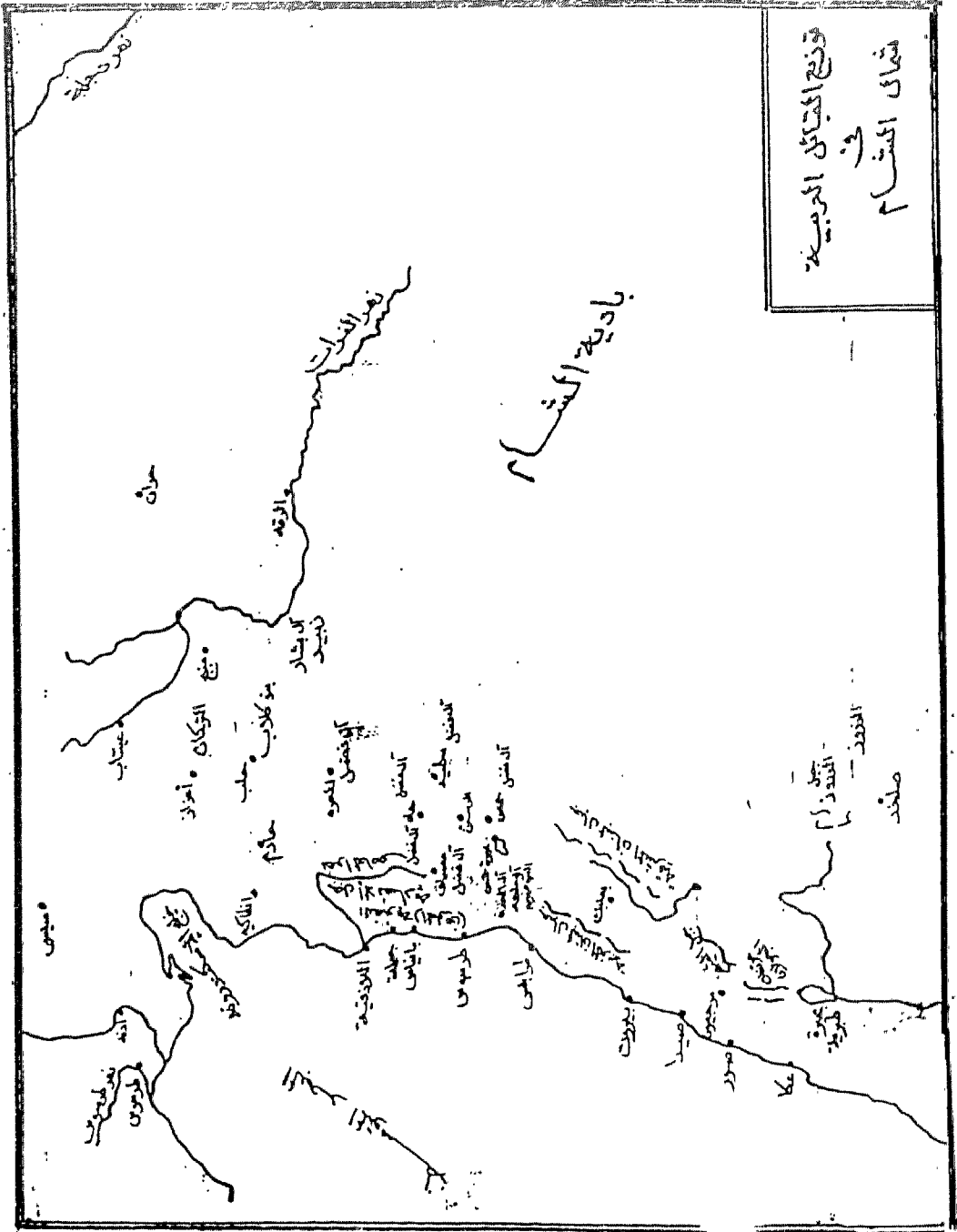


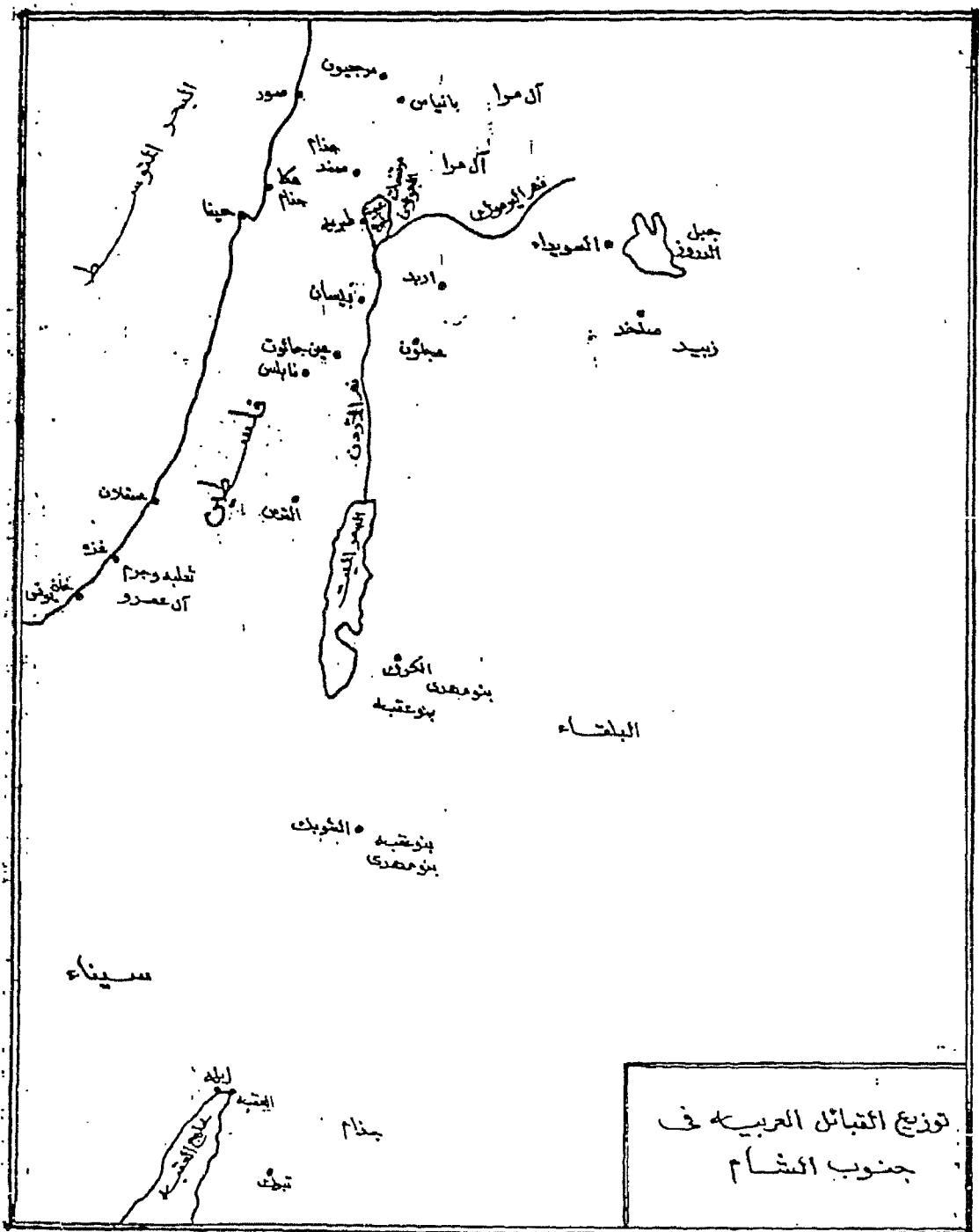
بنجة المعريات يتوسطها ( رنك ) الأمير جقق





توزيع القبائل العربية في شمال الشام





توزيع القبائل العربية في جنوب الشام

## **المصادر والمراجع العربية - الدوريات**

## أ - ثبت بالمصادر المخطوطة

- ابن الجيعان . (أحمد بن يحيى بن شاكِر). ت ٥٨٨٩/٤٨٤م.  
 القول المستظرف في سفر الملك الأشرف رقم ١٨٩٩ معهد إحياء  
 المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية. القاهرة.  
 ابن منكلى . (الأمير محمد)  
 التدبيرات السلطانية في الفنون الحربية، بدون تاريخ. م اسكندرية  
 رقم ١١٤٧ ب.  
 الباعونى . (محمد بن يوسف) ت ٥٩١٠/١٥٠٤م.  
 الإشارة الوفية إلى الخصوصيات الأشرفية.م. أسكندرية  
 رقم ٣٧٦٠ ج.  
 القادري. (محمد بن على)  
 المواقف الشريفة فى تحقيق معنى الخليفة،م. اسكندرية رقم  
 ٣٨١٦ ج بدون تاريخ.  
 القلقشندى. (أحمد بن على) ت ٥٨٢١/٤١٨م.  
 فلاند الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان. معهد المخطوطات  
 العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٣٨١.  
 الكرمى. (مرعى بن يوسف).  
 نزهة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلطين.  
 م. اسكندرية رقم ١٤١٦. بدون تاريخ.

## ب - المصادر العربية المطبوعة

- ابن الأثير. (على بن احمد) الملقب بعز الدين ت ١٢٣٢/٦٣٠، الكامل فى التاريخ، ١٢ جزء - القاهرة ١٣٤٩.
- ابن اياس. (محمد بن احمد) الملقب بأبى البركات ت ١٥٢٣/٩٣٠ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ٩ أجزاء القاهرة ١٩٦٠ - صفحات لم تنشر من بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٥١.
- ابن بطوطة. (محمد بن عبد الله) ت ١٥٢٣/٧٧٩. تحفة الناظرين فى غرائب الامصار وعجائب السفار، باريس ١٩٩٢.
- ابن بكار. (الزبير) ت ٨٦٩/٢٥٦. جمهرة أنساب قریش وأخبارها.
- ابن تغرى بردى. (جمال الدين يوسف) ت ١٤٦٥/٨٧٤. النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٢٩.
- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، القاهرة ١٩٥٦.
- ابن تيمية. (احمد بن عبد الحلیم) ت ١٣٢٧/٧٢٨. مجموعة الرسائل الكبرى، القاهرة ١٩١٣/١٣٣٢.
- ابن الجوزى. (سبط بن الجوزى) ت ١٢٥٧/٦٥٤. مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، حيدر آباد ١٩٥١.

- ابن حجر. (احمد بن على) ت ١٤٤٩/٨٥٢.
- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة. الهند. ١٩٣٠.
- أبناء الغمر فى أبناء العمر.
- ابن حزم. (على بن أحمد) ت ١٠٦٣/٤٥٦.
- جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٢.
- ابن خرداذبة. (عبيد الله بن عبدالله) ت فى حدود عام ٣٠٠هـ.
- المسالك والممالك، بريل ١٨٨٩.
- ابن خلدون. (عبد الرحمن بن محمد) ت ١٤٠٥/٨٠٨
- مقدمة ابن خلدون، القاهرة، المكتبة التجارية.
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب.
- والعجم والبربر ومن عاصرهم من نوى السلطان الأكبر . ط.
- بيروت ١٩٦٦.
- ابن خلكان. (احمد بن ابراهيم) (ت ١٢٨٢/٦٨١).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط. لبنان.
- ابن دقماق : (ابراهيم بن محمد بن أيدمر) ت ١٤٠٦/٨٠٩.
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة ١٣١٠/١٨٩٢ - ٤
- أجزاء.
- ابن شاکر الکتبى : (محمد) ت ١٣٦٢/٧٦٤.
- قوات الوفيات والذيل عليها- بيروت ١٩٧٣- تحقيق احسان عباس.
- ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل) ت ١٤٦٨/٨٧٣.
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس ١٨٩٣.

ابن شداد . (محمد) ت ١٢٨٥/٦٨٤

الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، جزءان، نشر،  
سامى الدهان، دمشق ١٩٥٦.

ابن طولون. (محمد بن على بن محمد) ت ١٥٤٥/٩٥٣

مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة  
١٩٦٢.

ابن عبد الحكم . (عبد الرحمن) ت ٨٧٠/٢٥٧

فتوح مصر والمغرب، ليدن ١٩٢٠.

ابن عبد ربه. (شهاب الدين احمد)

العقد الفريد، ثلاثة اجزاء - القاهرة ١٣٠٥/١٨٨٧

ابن العبري. (غريغوريوس الملقى) ت ١٢٨٦/٦٨٥

تاريخه مختصر الدول، أكسفورد ١٩٦٣.

ابن العديم الحلبي (عمر بن احمد العقيلي) ت ١٢١٣/٦١٠.

زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٥١.

ابن عرب شاة الدمشقى (احمد بن محمد) ت ١٤٥٠/٨٥٤

عجائب المقدور فى اخبار تيمور، القاهرة ١٢٨٥/١٨٦٨.

ابن العماد الدمشقى (عبد الحى بن احمد) ت ١٦٧٨/١٠٨٩

شذرات الذهب فى اخبار من ذهب، ط. بيروت.

ابن قتيبة (عبد الله بن سالم) ت ٨٨٣/٢٧٠

الامامة والسياسة.

ابن القلانسي. (ابو يعلى حمزة) ت ١١٦٠/٥٥٥

ذيل تاريخ دمشق، تحقيق ان روز، بيروت ١٩٠٨.

- ابن كثير الدمشقى. (عماد الدين اسماعيل) ت ١٣٧٢/٧٧٢  
 البداية والنهاية، ٤ أجزاء، بيروت ١٩٦٦.
- ابن الكلبي (ابو المنذر ومحمد بن هشام) انساب الخيل، تحقيق أحمد زكى،  
 القاهرة ١٩٤٦.
- ابن هشام. نبى البر محمد.
- المختار من سيرة ابن هشام، تحقيق ابراهيم الايبارى.
- ابن الوردي(عمر). ت ١٣٤٨/٧٤٩) تنمة المختصر فى أخبار البشر، القاهرة  
 ١٨٦٨/١٢٨٥.
- ابن واضح الاخبارى. (احمد بن ابى يعقوب) ت بعد عام ٢٩٢.
- كتاب البلدان، النجف ١٣٥٨/١٩٣٩.
- ابو الفدا. (اسماعيل بن على) ت ١٣٣١/٧٣٢.
- المختصر فى اخبار البشر، القسطنطينية ١٢٨٦/١٨٦٩.
- الاسحاقى. (محمد بن عبد المعطى)
- لطائف اخبار، القاهرة ١٣٠٠/١٨٨٢.
- الاصطخرى. (ابراهيم بن محمد) ت منتصف القرن الرابع الهجرى
- مسالك الممالك، ليدن ١٩٢٧.
- الاصفهانى. (عماد الدين الكاتب) ت ١٢٠١/٥٩٠
- الفتح القسى فى الفتح القدسى، ط. القاهرة.
- البغدادى. (احمد بن يحيى بن جابر) ت ١٤٨٦/٨٩٢
- فتوح البلدان.



- البلاذرى. (احمد بن يحيى)، ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م  
 أنساب الاشراف، القاهرة ١٩٠٠، تحقيق محمد حميد الدين، فتوح  
 البلدان، القاهرة ١٩٥٦، تحقيق صلاح الدين المنجد.  
 الجمحى. (محمد بن سلام)  
 طبقات الشعراء، بريل ١٩١٣.  
 الحلبي. (محمد راغب)  
 اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، بيروت ١٩٢٣.  
 الحموى. (ياقوت) ت ٦٧٦/١٢٢٩  
 معجم البلدان، بيروت ١٩٥٦.  
 الدبس. (يوسف)  
 تاريخ سوريا، بيروت ١٩٠٧  
 الجامع المفصل فى تواريخ الموارنة المؤصل، بيروت ١٩٠٥  
 الدمشقى . (احمد بن عبدالله)  
 عجائب المقدور فى أخبار تيمور، القاهرة ١٨٦٨.  
 الدمشقى. (محمد بن طولون)  
 مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، القاهرة ١٣٨١.  
 الدميرى. (كمال الدين)  
 حياة الحيوان، القاهرة ١٨٧٥.  
 الرمالى. (احمد بن زنبيل)  
 تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه  
 الخورى، سلطان مصر واعمالها.

- السبكي. (عبد الوهاب بن تقي الدين)  
طبقات الشافعية، ط. القاهرة.
- السخاوى. (محمد بن عبد الرحمن بن محمد) ت ١٤٩٧/٩٠٣  
الضوء اللامع لاهل القرن التاسع، القاهرة ١٩٣٦.
- التبر المسبوك فى ذيل السلوك، القاهرة ١٨٩٦.
- السويدى. (محمد امين البيغدادى) ت ١٨٢٣/١٢٣٩.  
سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب، بغداد ١٢٩٦ هـ.
- السيوطى. (عبد الرحمن) ت ١٥٠٥/٩١١  
لب اللباب فى تحرير الانساب، بريل ١٨٥٦  
حسن المحاضرة.
- الشرقاوى. (الشيخ عبدالله)  
تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين، ط. القاهرة  
١٨٨٦.
- الشعرانى. (عبد الوهاب)  
الطبقات الكبرى، جزءان، القاهرة ١٣٠٥  
الشهرستانى.
- الملل والنحل، ٤ أجزاء.
- الثوكانى. (محمد بن على) ت ١٨٣٤/١٢٥٠  
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع - جزءان.
- الصيادى. (السيد محمد ابو الهدى)  
الروض البسام فى أشهر البطون القرشية بالشام، الاسكندرية  
١٨٩٢.

- الصيرفى. (على بن داود)  
 نزهة النفوس والابدان فى تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشى،  
 القاهرة ١٩٧٠.
- الطبرى. (محمد بن جرير) ت ٩٢٢/٣١٠  
 تاريخ الرسل والملوك، القاهرة ١٩٦٦.
- القلشندى. (احمد بن عبد الله) ت ١٤١٨/٨٢١  
 صبح الاعشى فى صناعة الانشاء، القاهرة ١٩١٤.
- نهاية الارب فى معرفة انساب العرب، القاهرة ١٩٥٩.  
 محمد. (ابى عبد الله)، الامامة والسياسة.  
 المسعودى. (على بن الحسين) ت ٨٣٤٦  
 مروج الذهب.
- المقدسى. (محمد بن احمد) ت ١١١٣/٥٠٧  
 احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم، ط. ثانية، ليدن ١٩٠٦.
- المقريزى. (احمد بن على) ت ١٤٤٢/٨٤٥.  
 السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة ١٩٥٨  
 البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، تحقيق عبد  
 المجيد عابدين ١٩٦١.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء.  
 اتعاط الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء، القاهرة ١٩٤٨،  
 تحقيق محمد جمال الدين الشيال، القاهرة ١٣٢٥.

- الناصرى. (احمد بن خالد) ت ١٨٩٧/١٣١٥  
الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى، ٤ اجزاء، القاهرة  
١٨٨٣.
- النويرى. (احمد بن عبد الوهاب) ت ١٣٣٢/٧٣٢.  
نهاية الارب فى فنون الالب.  
الواقدى. (محمد بن سعد) ت ٨٢٣٠/٨٤٥م  
الطبقات الكبير.
- يحيى. (صالح بن يحيى) ت ١٤٣٦/٨٤٠  
تاريخ بيروت واخبار الامراء الباحثين من بنى الغرب، نشر  
لويس شيخو، بيروت ١٨٩٨.
- اليونينى. (موسى بن محمد) ت ٨٧٢٦/١٣٢٦م.  
ذيل مرآة الزمان، ٤ اجزاء، ط. الهند. سنة ١٩٥٤.

## ج - المراجع العربية الحديثة

- آل كاشف الغطاء. محمد الحسين  
أصل الشيعة وأصولها، صيدا ١٩٣٦.
- أمين. احمد  
ضحى الاسلام، ط. القاهرة ١٩٤٩.
- ظهر الاسلام، القاهرة ١٩٥٢  
البرغوثى. عمر الصالح  
تاريخ فلسطين، القدس، ١٩٢٣.

بروكلمان. كارل

تاريخ الشعوب الاسلامية فى القرن ١٤هـ، بيروت ١٩٦٨.

جبرى. شفيق، العناصر النفسية فى سياسة العرب، القاهرة ١٩٤٥

الجميل. مكى، البدو والبدوابة فى البلاد العربية، سرس اللبان ١٩٦٢.

جوهر. يوسف

تاريخ لبنان العام.

حتى. فيليب

تاريخ سوريا، بيروت ١٩٥٨، كمال اليازجى.

حسن. على ابراهيم

تاريخ الاسلام العام، القاهرة ١٩٥٣.

حلمى. محمد مصطفى

ابن الفارض سلطان العاشقين، القاهرة ١٩٦٣.

حمدى . حافظ احمد

الدولة الخوارزمية والمغول، القاهرة ١٩٤٩.

الحوفى. احمد

الطبرى، القاهرة ١٩٦٣.

الخادم. سعد

الازياء الشعبية، القاهرة ١٩٦١.

خانجى. انطون

مختصر تواريخ الارمن، القدس ١٩٦٨.

خطاب. محمود شيت

عقبة بن نافع الفهرى، القاهرة ١٩٧١.

خورشيد. ابراهيم زكى

دائرة المعارف الإسلامية

خورشيد. فاروق

اضواء على السير الشعبية، القاهرة ١٩٦٤.

زترستين.ك.ف.

نصوص عربية من دولة المماليك، ليدن ١٩١٩.

زيدان. جورجى

تاريخ التمدن الاسلامى، القاهرة ١٩٢٩.

سالم. السيد عبد العزيز

طرابلس الشام، الاسكندرية، ١٩٦٧.

السيد. احمد لطفى

قبائل العرب فى مصر، جزء اول، القاهرة ١٩٣٥.

الشرياصى. احمد

شكيب أرسلان داعية العروبة والاسلام، الجيزة ١٩٦٣.

الشرقاوى. عبد المنعم

الاطلسى العربى

شقيير. نعيم

تاريخ سيناء، القاهرة ١٩١٦.

عاشور. سعيد عبد الفتاح

الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٦٣.

العصر المماليكى، القاهرة ١٩٦٥.

على. محمد كرد

خطط الشام.

عون. عبد الرؤوف

الفن الحربى فى صدر الاسلام. القاهرة ١٩٦١.

غوانمة. يوسف

التاريخ الحضارى لشرقى الاردن.

التاريخ السياسى لشرقى الاردن، ط. ثانية ١٩٨٢.

فهمى. عبد الرحمن

النقود العربية، القاهرة ١٩٦٤.

قساطلى. نعمان

الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء، بيروت ١٨٧٩.

كحالة. عمر رضا

معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ٣ أجزاء - بيروت ١٩٦٨.

كمال. عمر

مقدمات العدوان الصليبي، الاسكندرية ١٩٦٦.

ماجد. عبد المنعم

الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٣.

مبارك. على

الخطط التوفيقية، القاهرة ١٣٠٥هـ.

متز. آدم

الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ.

موسى باشا. عمر

أدب الدول المتتابعة، عصور الزنكيين والايوبيين والمماليك، ط.  
ثانية لبنان.

وجدى. محمد فريد

دائرة معارف القرن العشرين.

يوسف. جوزيف نسيم

العدوان الصليبي على بلاد الشام، الاسكندرية ١٩٧١.

يونس : عبد الحميد

الظاهر بيبرس فى الأدب الشعبى، القاهرة ١٩٥٦

## الدوريات

- مجلة الطوليات الاثرية السورية، المجلد العاشر - دمشق ١٩٦٠.
- مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية ، مجلد ١٦، ١٩٦٢.
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، رقم ٤٨، ابريل ١٩٧٣.
- مجلة جامعة الموصل - كلية الآداب، العدد التاسع - ايلول ١٩٧٨.
- مجلة البحوث الاسلامية.هيئة كبار العلماء بالرياض. العدد ١١ اذى  
الحجة ١٤٠٤هـ.



## **المراجع الأجنبية - الدوريات**

## المراجع الأجنبية

Abd Arrazik (Ahmed).

La femme au temps de Mamelouks en Egypte, Le  
caire. 1973.

Van Berchem (Max).

Fatio : Voyage en Syrie dans memoires de l'institute  
Français d'orchologie orientale du Caire.

1914.

Catalogue de la phototheque Geneve. 1075.

Epigraphie de Assasins de Serie, Paris, 1897.

Canard (Marius)

Sayf Aldula. Alger. 1934.

Combe (Etienne)

Repertoire chropologique arabe.

t. 12. 14 le Caire, 1954. L'institute Français.

Gibb. A.R.

Damascus Chronicle introd. p.p. 17,19

Goldziher.

Etudes sur la tradition Islamique, Paris 1925.

Lane Poole (Stanly).

Catalogue of the Mohamehamedan coins. Oxford.  
1888.

Catalogue of the collection of the Arabic Coins.  
Oxford. 1897.

Hitti (Philip).

History of Syria. London, 1957.

Sauvaget (Jean).

Memento chronologique d'histoire musulmane  
Paris, 1954.

الدوريات :

- Journal Asiatic society. Calcutta 1837-1883.
- Bulletin et Memoires de la société de geographi de Paris.



## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	التمهيد
٧	محتوى الكتاب
٩	نقد المصادر
٣٢	الفصل الأول : أحوال الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك الوصف الجغرافى. التقسيم الإدارى. أهل الشام. المذاهب والعقائد
٩٧	الفصل الثانى : العصبية العربية فى الشام
١٢٠	الفصل الثالث: دور القبائل العربية السياسى والحربى فى الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك
١٧٧	الفصل الرابع : الدور الحضارى للقبائل العربية فى الشام
٢١٨	الخاتمة
٢٢٣	الصور والخرائط
٢٣٩	المصادر والمراجع العربية- الدوريات
٢٥٣	المراجع الأجنبية - الدوريات

رقم الايداع ٩٥/٤٧٥٧

رقم الايداع الدولي 977-5655-00-5